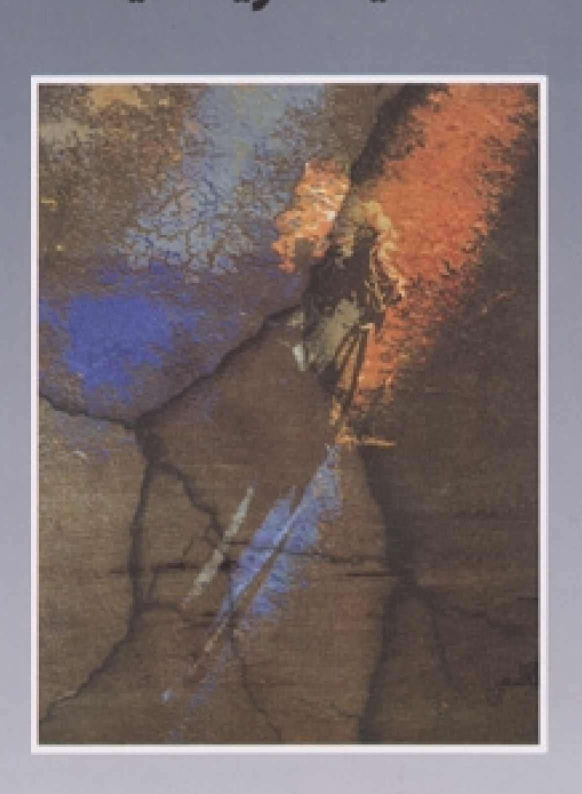
ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (٣)



علي شريعتي



فاطمة هي فاطمة

دار الأمير

سلسلة الآثار الكاملة ـ ٥ـ

فاطمة هي فاطمة

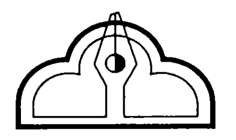
الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة: هاجر القحطاني

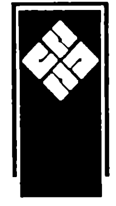
دار الأمير

إسم الكتـــاب	:	فاطمة هي فاطمة
إسم المؤلـــف	:	د. علي شريعتي
إسم المترجم	:	هاجر القحطاني
تنضيد وإخراج	:	زهرين
تصميم الغلاف	:	بشير محمد
الترقيم الدولي	:	ISBN 978-9953-494-04-3
الطبعة الأولى	:	١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م
الطبعة الثانية	:	١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م (بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)
الناشـــــــر	:	دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ: 07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان
Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي
تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهي: لا تجعل إيماني بالإسلام، ومحبتي لآل الرسول ﷺ، كإيمان المتاجرين بالدين، وبالتعصب، وبالرجعية.. كي لا يأسر رضى العوام حريتي، وكي لا يُدفن ديني خلف «دكان ديني»، وكي لا تصوغني العوام مقلداً للذين يقلدونني، فأسلم من كتمان ما أراه حقاً لأنهم لا يستحسنونه!

إلهي: لا تُنعم عليَّ بفضائل لا تنفع الناس، ولا تبتلني بجهالة المعرفة المتوحشة المزخرفة، التي تسلبني الحس الرفيع..

إلهي: أحمدك كما حمدك علي بن الحسين بن علي عليه السلام على أنك جعلت أعدائي حمقى، فهذه نعمة من لدنك تهبها عبادك المقربين.

إلهي: أنا أعلم أنّ إسلام رسولك ﷺ قد بدأ بـ«لا»[1]، مثلما أعلم أن تشيّع وليّك قد بدأ بـ«لا» أيضاً[2] فاجعلني يا باعث محمد ﷺ ويا حبيب علي عليه السلام بـ«إسلام ـ نعم» وبـ«تشيّع ـ نعم كافراً!»[3]).

---

(١) إشارة إلى شعار التوحيد «لا إله إلا الله».

(٢) هذه الـ(لا) قالها علي عليه السلام في شورى عمر، إذ ردَّ فيها على عبد الرحمن بن عوف قوله.

(٣) نصوص من كتاب الدعاء للدكتور شريعتي، والذي سيصدر قريباً عن دار الأمير.

ويأتي هذا الكتاب ليعبّر عن الـ: «**لا**» الثالثة ضمن التسلسل الذي اعتمده شريعتي، مع أنها كانت أول «**لا**» في تاريخ الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وهي الـ: «**لا**» التي صرخت بها فاطمة عليها السلام بوجه القوم، وكُلّي أمل أن يُغني هذا النص ـ الدعاء ـ عما كنت سأكتبه في هذا المقام، وأحسبه كذلك، وعلى أي حال تبقى الـ: «لا» هذه هي «لا»، كما أن **فاطمة** هي **فاطمة**.

ونحن إذ نطرح هذه الترجمة الجديدة لكتاب «**فاطمة هي فاطمة**»، التي تأتي ضمن مشروع تعريب ونشر الآثار الكاملة للدكتور علي شريعتي، والمتفق عليها قانونياً، بموجب عقد مُوقّع مع أرملة الشهيد، د. بوران شريعت رضوي، أعطت فيه دار الأمير حقاً حصرياً بتعريب ونشر آثار الدكتور شريعتي باللغة العربية، نلفت عناية القارئ العزيز إلى الأمور التالية:

١ ـ الترجمة السابقة للكتاب، التي قمنا بنشرها عام ١٩٩٢م، لم تكن على مستوى خطاب شريعتي، لعدة أسباب، أهمها يعود إلى عدم توفر المادة كاملة بين يدي المترجم في حينه. وهذا ما دعانا إلى إعادة الترجمة من جديد، متحملين أعباءً وتكاليف إضافية.

٢ ـ هذا الكتاب ـ **فاطمة هي فاطمة** ـ هو في الأصل مجموعة محاضرات مسجّلة، فُرِّغَ بعضها وطُبع في حياة الدكتور فتمكن رحمه الله من مراجعته، كما أشار في مقدمته، والبعض الآخر فُرِّغَ وطُبع بعد رحيله، وللأمانة في النقل تُرك كما كان مسجّلاً بصوته، ومن

البديهيّ أن المحاضرة شيء، وإعادة كتابتها ومراجعتها من قبل صاحبها شيء آخر.

٣ ـ من المهم جداً أن نُلفت، أن شريعتي كان يخاطب جمهوراً شيعياً فقط، وبظرف موضوعي ضاغط، فكان أحياناً يضطر لاستخدام عبارات حماسية تثويرية ـ تصب في مشروع مقاومة النظام الشاهنشاهي ـ وذلك من رحم التراث الشيعي الموجود في أذهان الناس حينها.

٤ ـ حسب متابعتي لمسيرة شريعتي العملية، ولآرائه العلمية، وللأمانة التاريخية أقول: أنّ الكثير من آرائه، خاصة في المجال التاريخي، قد تبدّلت أو تطوّرت بعد مناقشة هنا، أو إعادة نظر منه هناك، كما حصل خلال نقاشه مع السيّد حسن الأمين في سنة ١٩٧٣م(١)، وللوقوف على آراء شريعتي البتيَّة ـ والتي بعضها لم

---

(١) سنة ١٩٧٣ دُعي السيّد حسن الأمين لإلقاء عدة محاضرات في حسينية إرشاد، فلبَّى السيّد الدعوة التي لاقت معارضة شديدة من بعض «العلماء» في إيران في حينه، لكنه السيّد أصرّ على تلبية الدعوة، لما اعتبره من ضرورة تستدعي ذلك، وكان أن ألقى ثلاث محاضرات، موزعة على ثلاث أيام متتالية، وكان الحضور في كل محاضرة لا يقل عن الأربعة آلاف إلى ستة آلاف شخص غصّت بهم حسينية إرشاد ومحيطها، فاستغلَّ السيّد فرصة وجوده هناك، وناقش الدكتور شريعتي في أكثر من مسألة ومنها «صلاة أبي بكر بالناس في مرض النبيﷺ» وأثبت له السيّد تاريخياً، أن الخليفة الأول لم يكن موجوداً بالأصل في المدينة حينه، وأنه كان في مكان آخر، فاقتنع الدكتور برأي السيّد، لا بل تراجع عن رأيه صراحة وأمام الجمهور من على المنصّة، وشكر للسيّد هذا الفضل بكل رحابة صدر وسعة أفق، والجدير ذكره أنه بعد هذه المحاضرات للسيّد حسن الأمين، قامت السلطات بإغلاق حسينية إرشاد واعتقال شريعتي ووالده أيضاً ـ هذه الحادثة رواها لنا السيِّد شخصياً، ونحن لأمانة التاريخ نكتبها هنا، ونشرها في حياته ـ أطال الله بعمره ـ. (الناشر).

يكن نهائياً بسبب عمره القصير (٤٦ سنة) ـ لا بدَّ من قراءة كافة أعماله مع ملاحظة تاريخ تسجيلها، أو كتابتهما.

٥ ـ لم نتمكن في هذا الكتاب من تخريج الأحاديث الشريفة، إلا القليل منها، والسبب في ذلك يعود، أن الكثير من الأحاديث نقل الدكتور مضمونها وليس نصها الحرفي، لأنه كان يتحدث باللغة الفارسية، والمُترجمة قامت أيضاً بترجمة المضمون للعربية، مما زاد الأمر صعوبة، فتركنا الأمور على حالها، معتمدين على نباهة ووعي القارئ.

٦ ـ إننا في دار الأمير، نكرر دعوتنا للكُتّاب الكرام، والقراء الأعزاء، عن استعدادنا التام لنشر أي ردٍّ علمي هادف، على أي كتاب من إصداراتنا، خاصة كتب الدكتور شريعتي، التي أثارت أذهان بعض، وحفيظة بعض آخر، دعوة صادقة على قاعدة مفادها: أنه ليس من الضرورة أن تتبنَّى فكرياً كل ما تنشر، كما أنه لا يجب أن تتمنّع عن نشر كل ما يُكتب، وذلك بموازين الحق في إطار خدمة الحقيقة.

أخيراً أسأله جلّ شأنه أن يوفقنا لمراضيه في الدنيا، لتكون ذخيرة لنا في الآخرة؛ عليه توكلنا وإليه نُنيب.

محمد حسين بزي

بيروت في ١٠/١٠/٢٠٠١م

الإهداء

إلى روح أمي زهراء.. مرآة «التواضع»، «العاطفة» و«الزهد»، والتي كانت حياتي بالنسبة لها كلها تعب... ووجودها لي، كله، «حنان»...!!

حديث مع القارىء:

ما تقرأونه الآن هو محاضرة لي في حسينية الأرشاد، أردت في البداية أن اقدم مقاربة عن تحقيقات البروفسور لويس ماسينيون حول شخصية الزهراء وسيرتها الغامضة. وبالأخص الأثر العميق والثوري لذكراها في المجتمعات الاسلاميه وتحولات تاريخ الأسلام الممتدة. مخصصاً هذه البحوث لطلاب، دروس «العلم بالاسلام»[1] في حسينية الأرشاد.

ولكني إذ قدمت الى المجلس رأيت ـ غيرالطلاب ـ كثيرين من الطبقات الأخرى، وأوجبت عليّ مراعاة ذلك ان أغيّر موضوع

---

(١) «اسلام شناسي»: اي «معرفة الاسلام» وبمعنى أصح «العلم بالاسلام» وتأتي كلمة «شناسي» لاعطاء معنى العلم والمعرفة والأتيان بمصطلح جديد مثل «زيست شناسي» اي «علم الاحياء» وهي تأتي أحياناً مرادفة لمقطع «لوجيا» في الكلمات اللاتينية مثل بيولوجيا. «المترجمة»

الحديث، فاخترت الأجابة على السؤال التالي الذي يدور في الاذهان والذي يلح بشدة على نساء مجتمعنا هذه الأيام ألا وهو، «كيف يجب أن نصبح؟»

النساء اللواتي بقين في الصيغ التراثية القديمة، ليست هنالك مشكله بالنسبه لهن، والنساء اللواتي رضين بالقوالب المستوردة الجديدة، المشكلة بالنسبة لهن محلولة أيضاً. وبين هذين النوعين من النساء ـ هنالك النساء اللاّتي لايستطعن تحمل القوالب القديمه ـ ولايردن الأستسلام للشكل الجديد المفروض، ويبقى السؤال: ماذا يجب أن يفعلن؟ يلحّ في طلب الاجابة. هؤلاء يردن اختيار أنفسهن، صنع أنفسهن وينشدن لذلك قدوة، مثالاً نموذجياً يحتذين به،.

ومشكلتهن هي «كيفية التحول» وفاطمة «بوجودها» هي جواب هذا السؤال. أردت أن اكتفي بوصف تحليلي لشخصية فاطمة، ولكني وجدت ان الذين يقرأون عندنا ومثقفينا لايعرفون سيرتها، وحتى الطبقة المتدينة من الشعب لم تسمع إلا «بآهات» فاطمة. فأضطررت لأن أسعى الى الحد الذي يسمح به قلمي وفكري المتواضع لتلافي هذا النقص، ولهذا فرسالتي الحاضرة تحتوي سيرة وثائقية عن هذه الشخصية المحبوبة ولكن «غير المعروفة» أو «المعروفة بصورة سيئة».

اعتمدت في هذه السيرة بصورة أساسية علي الوثائق التاريخيه. وفي الاماكن التي تطرح فيها المسائل الاعتقاديه والقاطعة للتشيع فأنني اختار المصدر من أهل السنة، حيث ان أفكار التشيع المأخوذة من المصادر السنية موثقه بلا أدنى شك علمياً وتأريخياً. وحيث

ان وجه فاطمه ـ مرآة التشيع العلوي «المظلوم» و «المعترض» في آعين أهل السنة واضح لكل طالب حقيقة منطقي الرؤية

وما تقرأونه هنا لم يكن إلا محاضرة، وكلاماً إلتمع في ذلك «الجمع» وفي ظروف هذا «الوضع» وقد أوردته إرتجالياً. أما السيرة الملحقه به فمكتوبة مستعجلة أكملتها في ليلة واحدة. ولهذا فأنا لا أتوقع منها إلاّ ما أتوقعه من المحاضرات، ومن هنا لست أستطيع القول أني مستغنٍ عن الأنتقادات، بل انا ـ بالعكس، محتاج اليها وللملاحظات كل أصحاب الرؤى النزيهين أولئك الذين يسرهم إرشاد العاملين اكثر من «اضمار العداوة والبهتان والشتيمة».

علي شريعتي

الفصل الأول

في «ليلة مقدسه» كهذة ما كان مقرراً ان يكون لي أنا «اللا مقدس» برنامج. ولكن وبحكم إتصالي البسيط بالعمل الجبار الذي كان يقوم به البروفسور لويس ماسينون ـ الأنسان العظيم والعالم الكبير بالاسلام ـ حول السيدة فاطمة(ع) والفائدة التي لحقتني من دراساته حول حياة هذه الشخصيه العظمية وامتداد تأثيرها ـ بعد رحيلها ـ في تاريخ الاسلام في احياء روح العدالة والجهاد ضد الظلم والتمييز في المجتمع الأسلامي، باعتبارها مظهراً وعلامة في الطريق، والغاية الأصليه لرسالة الأسلام ـ الذي إنحرف على مئات الأيادي الداخليه والخارجيه ـ وكتلميذ فحسب، أخذت على عاتقي جانباً صغيراً من هذا العمل الجبار[1] بالذات في المراحل الأوليه للعمل،

(١) Louis massignion : الذي كانت(اولى اهتزازاته) في عام ١٩٠٥ خلال زيارة له الى المدائن بعد رؤيته لقبر سلمان المتهدم والأيوان المرتفع ومنذ ذلك الحين أغمض عينيه عن «مظاهر الاسلام» و «حوادث تاريخ الإسلام» ـ التي تجذب اكثر

والتي هي عبارة عن مطالعة وتجميع كل الوثائق والمعلومات الواردة حول السيدة فاطمة«ع» طوال ١٤ قرناً وبكل اللغات واللهجات الاسلامية المحليه، ملتقطاً خلال ذلك كل اشارة تاريخية أو نشيداً في لهجة، وقد ارتأيت ان اقبل الدعوة لعرض تقرير عن هذا العمل فهذا العمل العظيم لمّا ينشر بعد، وصاحبه الكبير أنهى حياته قبل اتمامه[1] كما انّ أغلب الأوربيين المطلعين على الاسلام يجهلون هذا العمل، وقد سبب هذا عدم معرفة بعض علمائنا ـ المطلعين على اعمال الأوربيين حول الأسلام ـ بذلك، و قد آثرت ان اختص طلاب «تاريخ ومعرفة الأديان» و «علم الاجتماع الديني» و «العلم بالاسلام» التي بدأتها في الأرشاد بهذا التقرير كي أطرح عليهم الخطوط الأصلية والنتائج البارزة العلمية والتأريخيه لتحقيقاته العميقة،

ولكني أرى الآن ان طبيعة المجلس قد لا تحتمل مثل هذا الطرح و ان لم تكن طبيعة وعظ وخطابه، فالسيدات والسادة الحاضرون جميعاً من المثقفين وممثلي الجيل المعاصر لمجتمعنا ولم يأتوا الليلة كي يبكوا على فاطمة ويهدوا ثواب حضورهم لارواح موتاهم، كما انهم لم يأتوا

المستشرقين والعلماء بالاسلام الغربيين ـ غارقاً في بحر «معنوية الاسلام» العميق، ومتجهاً منها نحو الغوص في «الأرواح الثورية» موقفاً ٥٥ عاماً من عمره للتأمل والدراسة حول الوجوة الثلاثه البارزة والمثيرة: فاطمة«ع»، سلمان والحلاج.

(١) في الوقت الحاضر تكفل البروفسور لويس غارديه Lauis Gardet مع مجموعه من المستشرقين الفرنسيين بتدوين مجموعة كتاباته التحقيقيه حول الزهراء«ع» الواصلة الى حدود عدة ملايين بطاقة.

ليستمعوا الى دراسات علمية وتأريخيه جافة، فلديهم عمل أهم واكثر فورية وحاجة اكثر الحاحاً، ألا و هي الجواب عن هذا السؤال الحاسم والمصيري: كيف يجب أن نكون؟

المرأة في مجتمعنا، تتغير بسرعة، فجبر الزمن وأيدي الجهاز الحاكم، كلاهما يبعدانها عما هي «عليه» ويسلبانها كل مميزاتها وقيمها القديمه كي يخلقا منها الموجود الذي «يريدان»، ونرى أنهما «خلقا»!

لهذا كان السؤال الحاد «للمرأة الواعيه» في هذا العصر، هو: «كيف يجب ان نكون»؟. ذلك لانها تعلم أنها لن تبقى بالشكل الذي هي «عليه» ولا تستطيع أن تبقى ولا يتركونها تبقى!

ومن جهة فهي لاتريد قبول القناع الجديد الذي يريدون أن يضعوه على وجهها القديم، تريد ان تقرر هي، هي التي تختار «نفسها الجديدة» ووجهها الجديد، بوعي واستقلال وأصالة، وهي التي تزينه، ترسمه، ولكنها لاتدري «كيف»؟ انها لاتعرف شكلاً لوجهها الأنساني الذي هو ليس ذلك «الشكل التراثي» ولا ذلك «القناع المحّسن المفروض والتقليدي»؟ هذا الوجه الأنساني أي وجه يشبه؟ والسؤال الأخر الذي يتفرع عنه هو:

«نحن مسلمون، والمرأة في مجتمعنا ـ التي تريد الوصول الى الأستقلال والاختيار الواعي ـ مرتبطه بتأريخ، ثقافة، دين ومجتمع روحه ورأس ماله تنبع من الاسلام، والمرأة التي تريد أن تكون في هذا المجتمع «نفسها» وتضع هذه «النفس» وتولد مرة أخرى وتكون هي

القابلة في هذه «الولادة الجديدة»، لا صنيعة «الوراثة» ولا «التقليد»، أمرأة كـهذه لاتستطيع الأستغناء عن الأسلام ولا يمكنها عدم المبالاة به، ولذلك فمن الطبيعي أن يخطر بذهنها هذا السؤال:

يتحدث الناس عندنا دائماً عن فاطمة، كل عام يبكي عليها العشرات، وتقام من أجلها مئات من الاحتفالات ومجالس العزاء بالأضافة الى المديح والتعظيم ونقل الكرامات والمعجزات وبكائها ومصائبها ولعن وسب كل من آذاها... ومع كل هذا فوجهها الحقيقي غير معروف والشيء الوحيد الذي يعرفه ابناء مجتمعنا من هذه الشخصيه المقدسة العظيمة والذي يعاد جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن ، هو إنها كانت تحكي ليل نهار وطوال عمرها هذه القصة: هبط جبرئيل على النبي(ص) في صورته العظمى وقال:

«يا محمد العليّ الأعلى يقرؤك السلام، وهو يأمرك أن تعتزل عن خديجة أربعين صباحاً.»

ولما إكتملت أربعين يوماً، يأتيه بطعام من الجنة، وأمر بمعاشرة خديجة. تقول خديجة، كنت أبكي الليل والنهار، أقضي الأيام وحيدة، وقد أوصدت الباب عليّ، وجلست أنتظر.

فلما كان في تلك الليلة، سمعت قرعاً على الباب، فتحته، ورأيت رسول اللّه يدخل، وكان من عادته إذا دخل البيت أن يتطهر ويصلي ركعتين يوجز فيهما ثم يأوي إلى فراشه، ولكنه في تلك الليلة، أخذ بعضدي وكان بيني وبينه مايكون بين المرأة وبعلها.

فأحسست بنور فاطمة في بطني، ومن ذلك الحين، غدت فاطمة

تتحدث معي وهي في بطني، وتؤنسني[1].

وبعد الولادة، لاخبر عن فاطمة حتى الموت!

«بعد رحيل النبي صلى اللّه عليه وآله، سلبها ابوبكر(فدك) وهجم على بيتها عمر ومعه عدة رجال وكسروا الباب على ضلعها «وضربها قنفذ غلام عمر المتوحش» فأسقطت جنينها مُحسناً، ومنذ ذلك الحين، صار عملها هو الأخذ بيد أطفالها وسوقهم نحو خارج المدينة، في خربة بأسم «بيت الأحزان» كي تبكي هناك وتلعن غاصبي فدك، وتقضي بذلك ساعات عديدة في النوح والبكاء وهكذا إنقضت أيام عمرها القصيرة بالبكاء واللعن حتى توفيت وأوصت بدفنها ليلاً كي لاينبش ابوبكر وعمر قبرها...، وأما ما الذي يجب ان نتعلمه من فاطمة«ع» فلا شيء، والدور الذي تلعبه شخصيتها في حياة ومصير أتباعها ليس إلاّ الشفاعة وذلك يوم القيامة فقط، وكل القصص هي من هذا القبيل:

«فينادي مناد من بين العرش يا مجمع الخلائق غضوا أبصاركم كي تسير فاطمة بنت حبيب اللّه الى قصرها، فتمر إبنتي فاطمة«ع» ترفل بحلتين خضراوين وحولها سبعون الف حورية... فيصلها النداء من رب العالمين جلّ جلاله ان حفظت لك لمصيبتك ألا أنظر في محاسبة العباد حتى تدخلي الجنة أنت وأبناؤك وشيعتك وكل من

---

(١) يمكن مطالعة الأصل العربي الكامل لهذه القصة في كتاب البحار للعلامة المجلسي: ج١٦، ص٧٨. المترجمة.

آحسن اليك من غير شيعتك، فيدخلهم رب العالمين جميعاً الى الجنة قبل أن ينشغل بمحاسبة الآخرين».

هذه هي كل المعلومات الموجودة في أذهان الناس عن هذه الشخصية الكبيرة. أولئك الذين يعترفون بعظمتها وجلال مقامها بكل وجودهم، وبكل قدرة الروح والأيمان والأرادة التي يمكن لأمة أو لمجموعة إنسانيه ان تحتويها في قلبها.

النبوغ وعبادة الحقيقة:

حسب إعتقادي إن اكثر مايدعو للفخر عند شعبنا، طوال تاريخه، هو اختياره في لحظة مهولة وعصيبة ومظلمة من التأريخ لعلي بن ابي طالب«ع».

شعبنا، بنفسه، أسلم على يد الخلاقة، كان يرى صورة الخلفاء ونظام بني أميه وبني العباس والخاقانات الأتراك والعرب والمغول والفرس والمتعلقين بهذه الأنظمة. يرى ذلك و يعرفه باسم «الاسلام» و «حكومة القرآن» و «سنة النبي» و «جبهة الحق» و «حقيقة الدين» مستلهماً الاسلام وكل العقائد والمعارف الجديدة من جهاز الخلافة ومن لسان المنبر والمحراب والكتاب والتفسير والحديث والوعظ والتبليغ والمسجد والمدرسة والأمام والقاضي والمتكلم والحكيم والأديب والشاعر والمؤرخ والمجاهد وحتى الصحابي والتابعي.

وقد كان كل هؤلاء أدوات لجهاز الخليفة، والسلطان، ومنظرين للطبقة الحاكمة المسيطرة في وقتها وأذناباً للخلافة الرسمية المنسوبة

زوراً للنبي، والأمامة القانونية للأمة وحكومة القرآن الألهية والسنة. ولكن برغم كل هذا وتحت وابل القصف والأعلامي وتكاثف السحب السميكة المعتمة للعلوم والمعارف والألهيات والحكمة والدين والثقافة والتاريخ والتفسير والكلام والحديث الذي كان غالباً موجهاً حسب مصالح الخلافة و مبرراً «للوضع القائم» و مقدساً «للنظام الحاكم» على رغم كل هذا أدرك هذا الشعب، والذي ما كان يتقن حتى لغة الاسلام الرسمية، ان كل هذا كذب وزور وأن الحق ليس في هذا الضجيج وليس لهذه الوجوه المثيرة والملفتة للنظر.

أدرك ان الحق مع ذلك الرجل الوحيد الذي يسكن بيتاً في ركن مسجد النبي. سجيناً لجهل قومه، وضحية لسياسة الصحابة الكبار وأوائل المسلمين، وعثر من وراء قصر الخلافة الأخضر في دمشق ودار الخلافة الاسطورية في مدينة الف ليلة وليلة بغداد، عثر على البيت الطيني المهجور لفاطمة«ع» وعرف أن الأسلام هنا في هذا الكوخ الحزين الصامت. رأى هذا الشعب الأجنبي ـ الذي أستسلم لسيف الخليفة وأسلم بدعوة من العلماء الرسميين لاسلام الخلافه ـ رأى مالم يره أهل المدينة والعرب المعاصرون والأصحاب الكبار أو لم يرغبوا في رؤيته، وعرف مالم تعرفه أو لم تنشأ معرفته المدارس والجامعات الكبيرة في دمشق وبغداد.

كان هذا اختياراً صعباً وعجيباً، ودلالة على نبوغ الفكر والفطنه الفائقة وعظمة الروح وعبادة الحقيقة والشهامة لدى هذا الشعب، الذي تمرد على التاريخ وأنكر نظام الخلافة العباسي، النظام المقتدر عسكرياً

وسياسياً أكثر من أي نظام حكم آخر في التاريخ، والممتلك لأكبر رصيد ديني وعقائدي يمكن تصوره، فضلاً عما كان يتمتع به من ثروة ثقافية وأدبية وعلمية فائقة... وسمع هذا الشعب الغريب آهات رجل وحيد و«غريب في وطنه» وتتبعه يخرج في أعماق الليالي وحيداً نحو بساتين بني النجار كي يتحدث عن الألم، وخشية توهج الكذب والفتنة والنهب وهو يعلم أن الكذب والخداع الذين عُرف بهما كسرى وقيصر، يتخذان اليوم لوناً جديداً من التقوى والتدين، كي يخدعا خلق اللّه لقرون عديدة، عرفه وسط ضجيج الحرب والحماس والنصر والهزيمة والتصنيع والعلم والحضارة والثورة والمناظرات الدينية والدنيوية العنيفة التي أصمت أذن التاريخ.

وعرف هذا الشعب أيضاً، كم من الدماء ستهدر وكم من الجهود ستبذل، كي تكتشف الحقيقة خلف هذا الشعار والدثار المقدس الجميل، **ونرى أن أول ضحايا هذا «الإستحمار الجديد» و «الإستعمار الحديث»** في الاسلام هم «الناس» و «مصير الناس» ومظهر هذين الأثنين معاً هو قتله «هو» و من قبله «زوجته» ومع أجيال الغد «اسرته» ثم جيلاً بعد جيل «أبناؤه»...

ولا شك انّ شعبنا لم يتخذ قراراً شخيصاً كهذا، في أصعب واكثر لخطات التأريخ هولأو اظلاماً بسهولة. النبوغ والفطنة واستقلال الشخصية وشهامة الأخلاق وحب الفضيلة وإدراك الفضائل الأنسانية والعظمة وجلال الروح ومعرفة القيم السامية والقدرة على التعمق، والتسامي و القدرة على اصطياد الحقيقه في الطوفان والظلام والخوف.

كل هذه المواهب هي التي مكنت هذا الشعب من آن يصدر حكماً أخر على رغم حكم التأريخ، وهي التي مكنتهُ من أن يقول في جواب كل المنارات والمحاريب والمنابر وفي مواجهة كل الصحابة الكبار والعلماء والقضاة وأئمة الدين الرسمين، وضد صراخ كل السيوف المتعطشه للدماء التي كانت تصرخ ليل نهار في الشرق والغرب بصوت واحد: نعم. امكنته من أن يقول في جواب كل هؤلاء: كلا! [1]

---

(١) نرى ان اشباه المحققين ومدعىّ حب ايران المتأخرين الذين يقولون ان الأيرانيين أسلموا بقوة السيف وضغط الضرائب والجزيات، نرى كم هم «علماء ضريبيون» عندما يريدون أن يبرؤوا، حسب إدعائهم الشعب الايراني من قبول الاسلام «الدين الأجنبي» وعندها يعتبرونه شعباً جباناً وحقيراً الى درجة انه بسبب خوفه من لمعة السيوف، ومن أجل التخلص من عبأ الجزية والضرائب يتبرأ من كل عقائده ووطنيته ومقدساته ويقبل كل أفراده «دين الجابي».

وكم هي سخيفة نظريات القوميين الذين يعزون إتباع الأيرانين لعلي وأبنائه الى زواج الحسين«ع» من «شهربانو» ابنة يزدجرد الساساني ـ لالفضائلهم وقيمهم الأنسانيه ـ إنما من أجل ان الحسين «ع» هو صهر الأيرانين وأن الأئمة من بعده هم أحفاد بنت يزدجرد!

ويظهر سخف هذا الرأي اذا عرفنا ان الايرانيين انفسهم كانوا يطاردون يزدجرد لثمانية عشر عاماً وما التحقوا بالاسلام إلا للخلاص من ظلمه، فهرب هو من أيدي الناس الى «بلخ» فكيف أذن يعودون الآن ويغيّرون مذهبهم من أجل زوج أبنته؟ ان ما تؤدي اليه بحوث ودراسات هؤلاء المغرضين الذين يقلدون المستشرقين ولو بصورة بدائية ومضحكة، هو ان الشعب الايراني لا يفهم العدالة والحرية والمساواة والحقيقه والفضائل الأنسانيه والقيم السامية للاسلام، ولايفهم علو مرتبة محمد وعلي على يزدجرد وبزرجمهر وأفضلية الحسين وزينب على زرير وشيرين، انما يفهمون السيف والمال والقومية فقط!.

ولكن مع هذا كله فالأيمان بحاجة الى الدماء وليس الى النبوغ والفكر فقط، ويتطلب التضحية والفداء، وإنتصار الحق يقتضي الأيثار والشجاعة والألم والأخلاص وتحمل العذاب والسياط والتهم والمصاعب والأسر والتشرد والتغرب وتحمل الخيانات، وأخيراً يتطلب التقوى والألتزام والصبر والتضحيه بالذات، وترك الأهتمام بالمصلحة فقط، والطمع والخوف والتقية، و... كثير من الاشياء الأخرى.

هذه هي العناصر الأساسية لتأريخ التشيع. «التشيع العلوي» لا «التشيع الصفوي». التشيع الذي يهز اركان التاريخ لا التشيع الذي هو نصير الظلم والقوة دين «العدل» و «حكومة المعصوم» وليس «مجموعة العقد التاريخية والاحقاد الطائفية» و «الحب» و «البغض» **اللفظي التلقيني**. (لا العقلي والعلمي)، وذلك بالنسبة «للخليفة» لا «الخلافة» المنحصرة بالماضي، والمفيد[1] لما بعد الموت، لا قبل الموت! المطلوب هو «الولاية العلوية» التي تنقذ الشيعة من ولاية الجور وحكومة الاستبداد وزعامة الجهل، لاتلك «الولاية المولوية» المتصوفة، والتي لا تنفع لا الرب! ولا عباد الرب!.

ذلك التشيع ليس إلأ الاسلام، لا كما يقال لنا: الاسلام بالأضافه الى أشياء أخرى، كلا، فالتشيع يعني الاسلام الخالص، «الاسلام ناقصاً الخلافة والتميز العنصري والطبقية» فليس الشيعة هم الذين أضافوا

---

(١) يقصد الحب والبغض الذي لايفيد إلأ لما بعد الموت برأيهم لتحقيق الشفاعة لهم، من دون أن يكون مسبباً لنوع من الرؤية والعمل في الدنيا. المترجمة.

«العدل» و «الأمامة» للأسلام، انما الاسلام بدون العدل والأمامة، يعني «دين الاسلام ناقصاً الاسلام» أي، نفس الدين الموجود في المسيحية واليهودية والزردشتية والبوذية... الخ و «الجاهليه الجديدة» هي التي أضافت «الحكومة» و «القوميه» و «الطبقية» للأسلام، وما حرب الشيعة والسنة في الماضي (وليس الآن بعد أن تحولت الى حرب كلاميه وجدالية وفرقية) إلا حرب «الأمامة» و «العدل» ضد الأستبداد والظلم، حيث نتجت كل الاختلافات العقائدية، والتفسيريه والتاريخيه والفلسفية والدينية عن هذه الجبهة نفسها. (علي لم يُضَف الى «محمد»). وان تكلم معاوية ومروان والمتوكل وهارون ـ خلفاء القياصرة والفراعنة والأكاسرة و وارثو ابي جهل وابي سفيان ـ وان تكلموا عن محمد(ص) فنحن تشبثنا بعلي كي لا نفقد محمداً(ص).

نحن لم نستبدل «آل علي» (العترة) بـ «سنة النبي(ص)» أو لم نضفها اليه، لأن هذه العترة هي نفسه هو، ونستطيع ان نسألها بكل سهولة عما كان يقول أو ما كان يفعل أو ما كان يريد؟

وخلافاً لما يتصوره العدو والصديق اليوم فان «التشيع هو اكثر المذاهب الأسلاميه تسنناً» بل لم يكن الأختلاف في الأساس إلاّ لان علياً وأصحابه كانوا يريدون الوقوف بوجه إمتداد البدع، والحفاظ على السنة.

ونرى كيف أختلطت الأمور، وكيف خيم «اسلام الجور والخلافة» على العالم في تلك القرون المظلمة الدامية، في نفس الوقت الذي كان فيه «اسلام العدل والأمامة» غارقاً في بحر الدم والشهادة.

لقد اختار الشيعة الشهادة ورفضوا القدرة، ولم يأت هذا الاختيار العسير بسهولة ودونما ثمن.

وتشهد بذلك معتقلات بني أميه وبني العباس وسلاطين الترك والمغول، فكم لاقى العلماء الكبار والمجاهدون التواقون للشهادة، ومحبّو الحق والعدل والفضيلة الذين يبحثون عن الحرية، في هذا الطريق - الذي يمر من دار الخلافة في دمشق وبغداد على أرض العذاب والدم والسجون ويلتحق بذلك البيت الصغير، الكبير بحجم الأنسانيه - .

لم يكن الحديث عن علي وفاطمة في تاريخ الأسلام أمراً سهلاً فهذا دعبل شاعر هذه الأسرة المناضل يقول: «حملت خشبة إعدامي على ظهري خمسين عاماً».

«الشاعر المسؤول» هو الذي يصنع من الشعر سيف جهاد. وهذا هو مصير كل الرجال والنساء الذين كتبوا تاريخ هذا المذهب. التاريخ الذي كتب كلمة، كلمة، وسطراً، سطراً بدماء الشهداء. ان عظماء الشيعة الأوائل ما كانوا يعرفون هذه الفلسفة الجديدة التي صنعت لنا الآن «أصبر حتى يأتي هو فيصلح كل الأمور». «هو الذي يجب أن يأتي ليصلح دين جده» «لا يجدر بنا الا التقية والتحمل».

ابن السكيت كان أديباً كبيراً، لم يكن في عداد المجاهدين ولكنه كان أديباً، وعالم لغة، وفي القلب، كان شيعياً. اختاره المتوكل العباسي لتربية أبنائه، وبالتدريج اكتشف ان أبناءه أصبحوا يميلون نحو علي وآل علي، فقيل له: «ربما هو من تأثير معلمهم».

وفي أحد الأيام، دخل الخليفة فجأة الى غرفة الدرس، جلس

وشجع ابن السكيت بأبداء سروره لتقدم أبنائه العلمي، ثم سأله أثناء الحديث بلحن طبيعي: «كيف ترى ولديّ؟» أمتدحهم ابن السكيت كثيراً.

سأل الخليفة فجأة:

«ابن السكيت، من اكرم عندك المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين أبناء علي»؟ كان على ابن السكيت أن يختار إذ ليست التقية هنا إلاخيانة وجبناً، فالتقية لم تكن يوماً في التشيع «ديني ودين أبائي» انما كانت «تكتيكاً». التقية من أجل حفظ «الأيمان» لا كما هي اليوم من أجل حفظ «المؤمن» وعندما يكون الايمان هو المهدد فالتقية حرام ولو بلغ الأمر ما بلغ.

لم يتردد ابن السكيت، وأجابه بنفس النبرة الطبيعية التي سأله بها المتوكل قائلاً: «إن قنبر ـ غلام علي ـ اكرم عندي منك ومن ولديك هذين»!

فأمر المتوكل فوراً بقطع لسان ابن السكيت في نفس المكان!

الألسن هي التي كانت تنزل كالصاعقة على جبابرة التأريخ، و هي و إن لم تستطع أن تهدم بناء «الاستبداد السياسي» و «الاستثمار الطبقي» و «الاستحمار الديني» فلاشك انها أستطاعت فضحه، وهو ان لم «ينهزم» فقد نُدد به. ولم يمت الأمل بالعدالة والحرية والعدالة والوعي والقيادة الثورية للناس، وكذلك العداء «لنظام المال والقوة والزهد» وأستطاعت هذه الشعلة المقدسة أن تبقى متوهجة على مر التأريخ، وملتمعة في ضمير الجميع.

نحن والناس:

تعهد بهذه المسؤولية الثقيله والخطرة فريقان، حملا على ظهرهما خشبة إعدامهما لقرون عديدة: الفريق الأول «علماء الشيعة الكبار المجاهدون ـ والذين يعتبرون «الأمامة». بناءاً على أصل التشيع الاعتقادي، إمتداداً «للنبوة»، و «العلم» أمتداداً «للأمامة».

الفريق الثاني، جماهير الشعب الصادقه المخلصة، والتي تصرخ معتقلات الخلفاء العرب والسلاطين الترك والعجم من شجاعة سكوتها... ويُخجل وجهها الدامي الهادىء جلاديها القساة، فيستسلم السوط لأصحابها ـ الذين يبدون كالصخور القوية لا تعرف الألم ـ

العقل والحب:

يتكون كل دين أو نهضة أو ثورة من عنصرين: العقل والحب، أحدهما النور والأخر الحركة، يهب الأول الادراك والمعرفة والبصيرة للناس، والآخر يهب القوة والحماس والحركة، وكما يقول الكسيس كارل: فأنّ «العقل هو مصباح السيارة الذي يدلّها على الطريق، والحب ما كنتها التي تحركها، كلاهما لاشيء بدون الآخر». وبالذات، الماكنة بدون المصباح حب أعمى، خطير، كارثة وموت!

وفي كل مجتمع في كل نهضة فكرية أو دين ثوري، يكون دور العلماء وفريق المثقفين الواعين الملتزمين، هو الأرشاد نحو الطريق والتعريف بالدين أو المذهب، وتوعية الناس. أما دور الناس فهو إضفاء

الروح والقوة والحركة على كل ذلك.

كل نهضة، هي كائن حي تفكر بعقل علمائها وتحب بقلب شعبها. وكل مجتمع ـ يكون فيه الايمان والاخلاص والحب والفداء قليلاً فالمسؤول هو الشعب، واذا كانت المعرفه والوعي المنطقي والادراك العميق والصحيح للدين ومعناه وغايته وحقائقه قليلة فالمسؤوليه تقع على عاتق العلماء، ويلاحظ هذا واضحاً في الأديان بالذات اذ يحتاج هذان الأثنان لبعضهما حاجة ماسة، سواء كان هذا الدين وعياً محباً أو حباً واعياً، فهو شعور ومعرفة تثير الحماس والأيمان، ويكون فيه العقل والأحساس متلاصقين لاينفصلان.

وهكذا كان الاسلام، بل اكثر من أي دين أخر، فهو دين «الكتاب» و «الجهاد». والفكر والحب، كما هو واضح في القرآن اذ لا يمكن التمييز بين حدود العقل والأيمان، يعتبر الشهادة حياة خالدة ويقسم بقلم الكاتب[1]. أما بين أنصار النبي فلا يمكن التفريق بين «العابد» و «المجاهد» و «المبلغ».

ولقد كان التشيع، خصوصاً بتأريخه وثقافته، تجلياً للحب والحماس والدم و الشهادة وبؤرة إحساس متأججة، في نفس الوقت الذي كان فيه فكراً ومعرفة وثقافة علمية وعقلية متميزة، ونهضة فكرية قوية مشخصة. «حادثة» في تأريخ الأنسان. وبأسم «علي» كانت مزيجاً من «العلم» و «الحب».

---

(١) اشارة الى «نون، والقلم وما يسطرون». المترجمة.

وما «عبادة الحقيقة» إلا مذهباً كهذا، اذ الحقيقة بلا عبادة فلسفة وعلم، والعبادة بلاحقيقة عبادة أصنام أو هوس.

الدمع:

هكذا ولد التشيع في التأريخ وهكذا عاش، كان مفكروه وعلماؤه مظهراً للأجتهاد، والتعمق والبحث والمنطق والغوص في أعماق المعاني ومعرفة المتحول والمتكامل من المفاهيم الأعتقاديه والحقائق الأسلاميه، مهتمين مع ذلك بمراقبة الروح والحقيقة وجهة الاسلام الصحيحة في معركة عسيرة مضلة بأسم الفلسفة والتصوف والعلم والأدب والتظاهر بالزهد، والتأثر الشديد باليونان[١] والشرقية[٢].

واما اتباع التشيع ومريدوه فهم مظهر الوفاء للحقيقه والأخلاص والحب والحماس والتضحية والإيثار في طريق علي وخلفائه والسائرين على دربه، في زمن التعذيب والسجون، في العصر الذي كان فيه الطغاة يخرسون كل لسان ينطق بأسم علي ويهدرون كل دم يغلي بحبه، وفي الوقت الذي كان جزاء ذكر آل النبي والحديث عنهم هو الجلد والحرق.

---

(١) جاءت هذه الجملة في ترجمة هذا الأصطلاح «يوناني زدگي» الذي يمكن ترجمته على غرار «غرب زدگي» «التغرب» الى «التينين» ولكن هذا ليس سائغاً وكلمة «زدگي» تعني التأثر الشديد الى درجة المحاكاة. المترجمة.

(٢) هذه الكلمة هي ترجمه لأصطلاح: «شرق گرائي» اي الميل نحو الشرق، وهي على غرار كلمة «ملي گرائي» وتعني الميل نحو القوم اي «القومية». المترجمة.

واليوم أيضاً، لايزال شعبنا عاشقاً، لايزال محباً ومخلصاً لهذا البيت، ومازال بعد مضي قرون عديدة وتحولات عديدة في الأيمان والعشق والأفكار، مازال متعلقاً بباب هذا البيت، لم يفكر يوماً في الرجوع عنه الى قصر آخر أو معبد آخر، أو قبلة أخرى[1].

ونراه مازال متشبثاً بجدار فاطمة، بألمها، يبكي عليها، وبهذه الدموع تتحدث مجاميع شعبنا المخلصة وتترجم بكل دمعة كلمات حبها ووفائها لهذه العترة، وهذه هي لغة الشعب، وأي لغة أصدق وأنقى واكثر إخلاصاً من اللغة التي تكون كلماتها، ليست ألفاظاً ولا خطوطاً بل دموعاً، وتكون عباراتها آهاتٍ وآلاماً وصراخاً محباً مشتاقاً؟

وحين تتكلم العين يكون تعبيرها أصدق من اللسان أفليست الدمعة أجمل شعر، وأعنف عشق، وأقوى أيمان، وأحر أشتياق، وأشد إحساس، وأخلص «قول» و «الطف» «حب» والتي إجتمعت كلها في مجمرة قلب وذابت، فأصبحت قطرة ساخنة اسمها الدمع؟.

نرى شعبنا ما يزال يتحدث، قائلاً مايريد ببراعة، لا تتعجبوا إذ ترونني أدافع عن البكاء، وقد سمعتم عني مراراً إنتقادي لمجالس البكاء و اللطم.

ولكن لا، مهلاً، فقولاي هذان ليسا متناقضين، هنالك فرق بين

---

(١) يريد الكاتب بكلمة(قبلة) الناحية التي يتجه اليها العقل والشعور، وهو كما نرى تعبير مجازي. المترجمة.

«برنامج البكاء» بأعتباره «عملاً» و «واجباً»، و«وسيلة» من أجل الوصول الى«هدف» و «أصلاً» و «حكماً»، وبين اعتباره تجلياً طبيعياً لأحساس ما، حالة قهرية وفطرية لحب، لألم، لشوق أو لحزن.

فهذا روجيه دبريه ـ الثائر الفرنسي المشهور المتواجد حالياً في أمريكا اللاتينيه[1] ـ يقول «الأنسان الذي لايبكي أبداً، ولا يعرف البكاء، فاقد للشعور الأنساني[2]» صخرة صماء، روح جافة متوحشة.

ونرى هنا مؤلف كتاب «نخيلي» يؤنب نفسه قائلاً: «قلبي، إنك لاتدري أية راحه وأي ضياء في التألم... أيها المغرور المحروم، حتى الآلهة تتألم... حتى ذئاب الصحراء[3]»

الدمعة التي تسيل، والآه التي تبدر، والبكاء الذي يترعرع رويداً، رويداً في القلب ويقطع طريق التنفس، فيضطر للأنفجار، كل هذه هي اللغة الصادقة والعفوية لشوق الانسان وحزنه وألمه وحبه «إنسان» ما.

أما ذلك الذي يعد للبكاء مشروعاً وبرنامجاً، ويعتبره هدفاً له فيبرز على شكل عادة وتقليد، أو واجباً دينياً، أو عملاً أساسياً،

---

(١) في حين تأليف الكتاب طبعاً في عام ١٩٧١م. المترجمة.

(٢) راجع مقابلة معه في مجلة ـ expresse لصاحبها مندس فرانس وال(p.s.u) في عدد مارس ١٩٧١م.

(٣) هو Rosas، مؤلف «همسات ملاك وحيد»، وصاحب أثر شعري بعنوان «نخيلي»، دغدغة شوق وعدم استقرار وانتظار روح تهفو «للعلم» في طريق طويل الى مالا نهاية «الدين» 11T, p.q. ١٩٦٦. Tunisie,.

أو وسيلة لجلب منفعة، دفع ضرر، تلافي نقصٍ، تقصير، وصول الى غاية خاصة، نتيجة وثواب. فليس إلاّ مستغلاً مخادعاً.

المحب الذي فارق حبيبه والثاكل الذي فقد عزيزه يبكي، فهو حزين، وكلما تذكره قلبه وذكره لسانه واشتعلت روحه بحبه وأحتقن وجهه، بلاشك ستبكي معه العين مواسية أياه،... وهذه الحالات كلها علامات صادقة وصريحة للأيمان العميق والحب الحقيقي.

أما ذلك الذي يقضي وقته سائحاً في السوق، أو متملقاً في الدوائر مرابياً ومرائياً، متكبراً على مرئوسه، متفرعناً على مُراجعه... ويعود ظهراً الى بيته فيأكل ويشرب ويضحك، ثم يذهب عصراً الى مكان يتنزه فيه ويلعب، ثم نراه ينتبه فجأة الى التقويم فيتذكر موعداً في مجلس، فيستعجل على «موعده» وهناك يجلس ليتذكر أموراً محزنة كثيرة كي يضغط على نفسه، عسى أن يبكي، ولربما يبكي، ثم ينتهي من هذا الطقس، فيبدأ بأحتساء القهوة والشاي والغليون وبعد ان ينتهي كل هذا، يخرج مسروراً فرحاً بما قدمه من عمل عظيم في سبيل الدين والعقيدة والمذهب، والى اللقاء، حتى مناسبة دينية أخرى في موسم أخر! فهو شيء آخر.

بأي عين تنظرون الى محب مُفارق مصاب كهذا؟

أنني أنظر بنفس العين التي تنظرون بها!!

ان البكاء الذي لايرافقه وعي والتزام ومعرفة حقيقية وفهم **للمحبوب والأيمان، لا يفيد الاّ لغسل العيون من غبار الشوارع.**

ولنتذكر دائماً هذا:

ان أول من بكى على مصير الحسين (عليه السلام) هو عمر بن سعد، وان أول من ندد بهذه الطريقة من «البكاء على الحسين» هي «السيدة زينب«ع»!

وليس من السيء ان تعرفوا أن أول مجلس عزاء أقيم على الحسين كان في بلاط يزيد! ولكن شعبنا يبكي «بأخلاص»، لانه يريد ان يعبر عن الصلة العميقة بين قلبه وهذا البيت المحبوب والذي هو «بانثيون»[1] أصيل، والشعب لايعرف لغة غير لغة الدموع، فهو ليس عالماً ولا فيلسوفاً، ولابد له من الأيمان والأحساس والتضحية، ولاشيء غير هذا لديه.

ليس هنالك أسرة كهذه، في اي تاريخ واي شعب وأي دين أخر «عائلة» يكون فيها الأب علياً، والام فاطمة، والولد «الحسين» و البنت «زينب». يعيشون جميعاً تحت سقف واحد، في عصر واحد وفي بيت واحد .

وفي نفس الوقت ليست هنالك أية أسرة في الوجود وهب لها كل هذا الحب والأخلاص والإيمان والشعر والدم من جانب أمة ما.

لقد خلق شعبنا، حضارة على باب وجدار فاطمة، حيث سال من هذا البيت تأريخ كامل من التوهج والتحرك والشهامة والفضيلة على مجرى الزمن، النهر الطاهر المنعش الذي مر على كل أجيال شعبنا،

---

(١) «بانثيون»: (هيكل مكرس لجميع الآلهة في اليونان): Pantheon. المترجمة. نقلاً عن كتاب(المورد): قاموس انكليزي. عربي ـ لمنير البعلبكي.

ولا يزال يجري في عمق روح شعبنا و وجدانه حتى الان.

ولكن بقى كل هذا الحب عقيماً... لم تكن هذه الدموع إلاّ كمطر ينزل على صحراء قاحلة، لا ينبتُ فيها أي شيء، فذهبت هباءاً كل هذه التضحيات والأستعدادات والتجمعات والقوى الأنسانية واللحظات والفرص النادرة!

مَنْ المذنب هنا؟ العالِمْ؟ الذي يهمل مسؤوليته تجاه الشعب. إذ كان عليه أن يعطي للشعب «الوعي» و «المعرفة» و «الجهة» ولكنه لم يفعل فانشغلت كل طاقاتنا الفكرية، ومواهبنا العقلية بالفلسفة، الكلام، التصوف، الفقه والأصول، الأدب والمعاني والبيان والبديع والصرف والنحو، ولم نقدم للشعب بعد كل تلك السنين من البحث والدراسة والتفكر والمشقة العلمية. الاّ «رسالة عملية» في آداب الطهارة وانواع النجاسات وأحكام الحيض والنفاس وشكوك الصلاة.

وتركوا رسالة التحدث الى الناس وتبليغ الحقائق الدينية وفلسفة الأحكام وتوعية الشعب والتعريف بسنة النبي وشخصية الأمام وأهل بيته، وحكمة ثورة كربلاء، ونهضة الشيعة والمباني الفكرية والاعتقادية، تركوها في أغلب الأحيان لمجموعة مشتتة من الأشخاص غير المسؤولين و «غير الملتزمين» والذين لم يصبحوا مبلغين إلاّ لأنهم لم يستطيعوا أن يصلوا للأجتهاد!.

من هنا تعهد بعمل «التعريف بآل البيت وتبليغ الدين وتعليم الحقائق الأسلامية الفاشلون في المدارس القديمة». حيث يدخل مجموعة من الشباب الى المدرسة (من أجل دراسة العلوم الأسلامية،

خصوصاً الفقه). فيوفق قسم منهم بعد تعب وجهد يطول سنين عديدة فيصبحون «فقهاء» و «مجتهدين» ينحصر نشاطهم بالتدريس في الحوزات ويبتعدون عن الناس، قسم آخر لايملكون الذكاء ولا الفطنه، ولكنهم يملكون بدلاً منها صوتاً جميلاً، وربما قدرة بيانيه جيدة، فيضطرون عندها لطرق باب التبليغ في المجتمع، وهنالك قسم ثالث حرم من الموهبتين فلا هو بفقيه ومجتهد، ولا هو بصاحب صوت جميل، ينتخب هذا القسم، طريقاً ثالثاً، يخرسون ويسكتون، ويطرقون باب «التقدس»... ومن صدف الأقدار انهم يوفقون اكثر من اي فريق آخر.

في هذا الوسط، أنصفوا الناس «ومصيرهم» وانصفوا «الدين» ومآله.

ولا داعي لان تفكروا كثيراً، كلا بل انظروا فقط!

وهذا هو السبب في ان شعبنا لديه الأيمان والعشق والقرآن ونهج البلاغة وعلي وفاطمة وتأريخاً أحمر ولكن مصيره أسود، لديه حضارة ودين «الشهادة» ولكنه ميت.

ولهذا كانت «جان دارك» ـ فتاة عاطفيه وخياليه ـ ملهمة للشعب الفرنسي في الحماس والثورة والتضحيه لقرون طويلة، وتحولت زينب ـ والتي تمتلك رسالة صعبة، وأثقل وزناً من رسالة الحسين(ع) أي مواصلة طريق كربلاء ضد نظام الجريمة والكذب والخوف والأختناق في أوضاع صمت فيها كبار المسلمون ـ تحولت الى أختٍ نائحة يجب النوح عليها فقط».

وها آنذا اسمع صراخاً غاضباً مؤنباً، يزعق في وجه العلماء المسؤولين عن عقائد الناس ومأموري إسلام محمد(ص) وتشيع علي(ع) صراخاً لا أدري من أين يأتي من فم علي أم من عمق العقل الباطن للأمة يقول: «بأي شيء انتم مشغولون»؟

عن أي شيء تتكلمون؟ و لماذا لاتتكلمون؟ وطوال هذه السنين المديدة ألا يوجد كتاب يقول للأنسان ما هو القرآن؟ لماذا أخرستم لساني بين الناس وبدلتموه بكل هذا المديح والثناء والشعر والعويل واللطم؟ لماذا لايستطيع أي فارسي أن يعرف ما قلته أنا؟ ولكنه يستطيع أن يقرأ كل آثار لامارتين الشاعر الفرنسي الماجن، ماذا أقول، بل حتى كل أغاني بليتيس الغانيه اليونانيه القديمه، يستطيع أن يقرأها بالفارسية، ولكنه لايستطيع أن يقرأ أي خطبة لعلي(ع) ولو واحدة؟

واين منا، رسالة قصيرة، صحيحة، تتحدث عن سيرة أئمتنا الذين لانفتأ نتحدث عن حبهم وذاتهم وكراماتهم ومعجزاتهم، ونحتفل في كل مولد لهم ووفاة؟ وأين منا أوراق قليله تقول لشيعة علي وعشاقه من كان علي ومن كانت فاطمة وكيف عاش أبناؤهم وكيف فكروا؟ ماذا فعلوا وماذا قالوا؟ وشعبنا الذي بكى وأخلص وأنفق الأموال طوال عمره في ذكرى أئمته، أئمته الذين كان يجب ان يتعلم من كل واحد منهم درساً وأن يستلهم من حياتهم، فكرهم، كلامهم، سكوتهم، حريتهم، أسرهم وعذابهم وشهادتهم، المعرفة والوعي والحياة والعزة والأنسانية، هذا الشعب لايعرف من الأئمة إلا بالتوالي ترتيبهم.

من المذنب اذا كانت المرأة منا، تبكي على فاطمة وزينب بكل

وجودها، وتضحي بنفسها اذا كانت تعلم ان لذلك فائدة ولكنها لاتعرفهما، ولاتعرف كلمة من أحاديثهما ولم تقرأ حتى سطراً واحداً عن سيرتهما، ولاتتذكر «فاطمة» الا في اللحظة التي تكون فيها خلف باب بيتها، ويكسر ضلعها، ولاتتذكر من زينب إلاّ ساعة خروجها من الخيمة بعد استشهاد الحسين«ع» والذهاب نحوه، ولاتعرف عنها شيئاً إلاّ ما قامت به من صباح عاشوراء حتى وقت الظهر، ثم تفقدها منذ عصر عاشوراء حتى آخر يوم من حياتها، وتنتهي معرفتها «بزينب» في ذات الوقت الذي تكون رسالة زينب قد بدأت للتو وهي وراثة الحسين«ع»؟

ذنب من اذا كان الشاب المثقف والفتاة المثقفة عندنا، يحكمان على الدين بهذه الصورة دينِ البكاء والنواح والعزاء والمصيبة، بالعقم وعدم الفائدة؟ وماذا يغني هذا الشعب الأسير المتخلف ـ المحتاج الى الوعي والحرية ـ ماذا يغنيه كل حماسه وحبه وبكائه وعويله على الحسين وفاطمة وزينب؟

واذا كان مثقفنا المتألم من إنحطاط قومه والساعي لايقاظ الشعب وتحريكه، والعارف بمجتمعه جيداً ولكنه لايعرف التأريخ، ولا يرى عقيدتنا في المدينة وبيت فاطمة ومحل استشهاد الحسين«ع» بل يراها في حسينيات أصفهان وطهران ومشهد وقم، اذا كان هذا المثقف يهتف قائلاً: «ماذا يغني هذا المذهب الساخن والآلام القديمة» و «اللعن التاريخي» و«الحب والبغض المنتفي بانتفاء الموضوع» ماذا يغني، المرأة المنحطة المحرومة الأمية عندنا ـ والتي تطلب التحرر والأصالة،

تطلب الانسانية والاستنارة ـ، ماذا يفيدها كل هذا إلاّ ان يحرف أفكارها عما «يحدث» الى ما «حدث» في القرون البعيدة والأراضي الغربية وبين الناس الأجانب ويشغلها به، فلا تعرف الظلم ولا تشعر بقيد المجتمع، على رقبتها، بل تثور من أجل ظلم حصل في أرض ما وتغضب من أجل قيد فرضه خليفة ما في عصر ما على رقبة مريض ما، وتنفعل ثم تضرب على رأسها بالسيف وتضرب وتضرب حتى يغمى عليها، كي يرتاح ضميرها ويطمئن قلبها فتمحى ذنوبها، وتسقط كل المسؤليات عن كتفها، فتخدع ميزان العدل الألهي، وبالتالي، «اذا كانت ذنوبها بعدد نجوم السماوات وقيعان المحيطات ورمال الصحراء، فسوف تبرأ منها بهذه «العملية الجراحيه البسيطة» وتتغير هويتها تماماً فتصبح كيوم ولدتها أمها، طاهرة، نظيفة. وتكون فوق هذا صاحبة فضل! ولهذا أبدلت فرقتكم «مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والشهادة والانفاق والإيثار والقسط والوعي والتكامل والعزة والوحدة والعمل...» أبدلت كل هذا «بالبكاء والمصيبة والعزاء والآه والندب والتوسل والتقية وأنتظار المنجي والشفاعة بلا حساب والعواطف والسب والشتم والمديح والتملق...» وأصبح من حق قادة هذه الفرقة وذلك بقيمة ذلة تابعيهم وفي الآخرة فقط، ينقذونهم ويأخدون بأيديهم. الفرقة التي حكمت على شعبنا بالضعف والخرافة والأنحطاط والتسليم للظلم والذلة والعجز، واليأس...، اذا فكر مثقفنا وتكلم بهذه الطريقة عندها ذنب من كل هذا؟

واذا كـان شعبنا يعتـقـد ان: «محـض حب علي» و «ولايه علي» ـ دونما معرفـة او وعـمل ـ له أثر كـيمـيـائي وخـاصيـة حـمضيـة تزيل «كل السيئات والمنكرات وتبـدلها الى حسنات» بـحكم القرآن [1]، أي ان نفس هذه الخيانة الـتي يرتكبها في الدنيا تتـغير ماهيتـها في الآخرة، وتتـحـول الى خـدمـة، وبعبـارة أخـرى: يكتب ـ بنـاءاً على هذا ـ لكل ذنب لهم في الدنيـا، ثواب في الآخرة! اذا فـكر شعبنا بهذه الطريقـة، فمن المذنب يا ترى؟

واذا كانت نفس ولاية علي«ع» وإمامته هذه ـ والتي كانت لقرون عديدة ظهيراً لحـركة العدالة والتحرر والروح النضاليـة، وملهمة للشعب الواعي اليقظ في حـريته وتحرره وعـزته واستـقلاله وتكامله الأجتـماعي والأنسـاني ـ لا أثرلها الأن، واذا كـان قيـمـة وأثر إتبّاع علي، وفاطمـة، والأئمـة قـد انـتـقلت من هذه الدنيـا الى الآخـرة، واوكلوا نتـائجـهـا الى مابعد الموت، فمن المذنب في هذا ياترى؟ ومن سيكون المذنب اذا لم تؤثر علاقـة «آبائنا بأهل هذا البيت» في حـياتهم وفكرهم وعـصرهم ومجـتمـعهم، وشاهـد «الأبناء» هذه الحالة فقـطعوا بالتالـي كل ارتباط لهم بهذه العقيدة؟

وأخيراً، من المذنب اذا كان مجتمعنا، وهو مجتمع متدين ومسلم ومعتقد بعترة النبي وولاية علي وإمـامة الأئمـة الأطهار اذا كان اكـثر

---

(١) الآية: «فـأولئك يبدل الله سيئـاتهم حـسنات» (الفرقـان آيه ٧١)، هكذا يفسـرون هذه الآية! اي نبوغ هذا في شل آيات الله وعباد الله!!.

تخلفاً حضارياً، ثقافياً، ومادياً ومعنوياً من كثير من المجتمعات المادية أو الدينيـة ولكن غير المسلمـة أو المسلمة ولكنـها فاقـدة للولاية والاعتـقاد بالأمامـة. بالرغم من وجود الأستـعمار الأجـنبي والاستبـداد التاريخي وعـوامل الانحطـاط الأخـرى في تاريخ هذه الشعـوب بل ربما اكـثر خشـونـه وأعـمق من وجـودها في تاريـخنا، ولكنهـا فـي نفس الوقت وبدون حب علي والبكاء على الحسين وانتظار الموعود والفـقه الجعفري وأصول التقيـه والتقليد والتوسل... اكثر وعياً وليـاقة وتطوراً من شعبنا، بالأضافة الى أنهم ليسوا أقل شأناً منا من ناحية القسط والعدل والقيادة الاجـتمـاعيـه والأخلاق العـامة والتـطور الأنساني والروح التـواقة نحـو الحقيقه والأجتهاد العلمي والفقهي والطهارة الفكرية والجدية، وبصورة عـامة، من نـاحـية الليـاقـة الفردية والأجـتمـاعـيه من أجل حـياة مـادية ومعنوية أفضل.

من المذنب في كل هذا؟.

آل علي؟ المثقف؟ أم الناس؟

ولكن هل حـقاً ان هذه(الأسـرة) غيـر ذات تأثيـر؟ أم أن جيلنا الشـاب والمثـقف هو المخطىء في حكـمه؟ أم ان جـمـاهيـر شـعبنا المتـديّنة هي المقصرة؟

علي أوضح «حـقـيـقـة» و «أرقـى» «مـذهـب» «تمثل» في مـوجـود إنساني. «حقيقة أشبه بالأسـاطير» و «إنسان، كائن، كما لابد للإنسان أن يكون» وزوجـته فـاطمة، نمـوذج للمرأة المثـالية، الـتي كان بأمكانهـا

أن توجـد ولـكن أحـداً لم يمثل وجـودها؟ والحـسـين وزينب، الاخ والأخت، اللذان أوجدا ثورة عظيمـة في التأريخ، حفظت للحـرية كرامتـها، وفضحت الأستبداد والإستحمـار، هذا «البيت» كعبة يقيم فيها أبناء و ورثة ابراهيم، الكعبـة «رمز» وهـم «الأصـالة». ذلك «البـيت»[1] مطاف المسلمين فقط وهذا «البيت»[2] مطاف كل قلب يدرك الجمال ويعرف عظمة الأنسانية ويقدس الحرية، والعدل، والحب والأخلاص، التقوى و «الجهاد من اجل خلاص الناس» و «الاستشهاد من أجل حياة الناس».

ومن ناحـية أخـرى، عـرف شعـبنا هذه العتـرة المظلومـة المحرومـة وقطع مـعها عـهداً أبدياً فـي الوفاء، في المسـيرة الشـاقة والجو المـشوش للتـاريخ، ومن بين القـصور والقـيـاصرة ـ والذين تحـدث عنهم التـأريخ دائماً ـ ودار حولهم.

انظروا الـى هؤلاء الناس الـفـقـراء والجـيـاع كـيف يعـملون ومـاذا يفـعلون من أجل أبراز عـواطـفـهم وإيمانهم نحـو هذه الأسـرة المحبوبة فرداً، فرداً.

أحياناً يستطيع «إنفاق المال» ان يعلن عن قدرة الأيمان والأخلاص اكثر دقة من «الأعمال الأخرى من قبـيل الاكثار في العبادة»، احسبوا كل هذه الأوقاف والنذور والمصارف التي تنفق من أجل حـبهم، حتى في هذه الأيام التي قـويت فيـها المادية وضـعف فيـها الدين، واجـتذب

---

(١) يقصد الكعبة. الترجمة .

(٢) بيت علي.

الوضع الاقتصادي القلوب والأفكار اليه فبمجرد حلول الأيام و المناسبات الخاصة بهذه الأسرة نرى ملايين المجالس التي تقام بأسمهم، وتؤمن من أجل أحياء ذكرهم نفقات حياة مئات الآلاف من «الآيات»[1] و «ائمة الصلاة» و «الوعاظ» واكثر من سبعمئة الف «سيد»[2] وقارىء وخطيب ومداح. هذا غير ما ينفق باسم الخمس، سهم الأمام والصدقات والخيرات، مع ملاحظة ان هذا الشعب شعب فقير أقتصادياً، بدخل سنوي بسيط، وبالذات اذا أنتبهنا الى الفوارق الطبقيه في المجتمع الأسلامي وحقيقة ان نصف الثروة الوطنية في يد بضعة آلاف فقط، وانّ ثلثي اجمالي الثروة بيد نسبة لا تتجاوز العشر من الشعب. وخلافاً للماضي، فقد أنتقلت الثروة من يد التجار والملاك القدامى لأيدي الرأسمالين المعاصرين، والمجموعة الصناعية المتجددة والبورجوازية الحديثة، وسماسرة البضائع الأجنبية أو منتجي المواد الأستهلاكيه الجديدة وان الأموال خرجت من المخازن القروية، وحجرات التجار والسقوف القديمة للسوق ومن أيدي الصرافين القدامى، وأصحاب الحرف اليدوية التراثية وذهبت الى البنوك والبورصات والشركات والممثليات والمعامل... وان هذه «الطبقة الجديدة» غريبة الفكر، تتنفس في جو الغرب بعيداً عن الدين،

---

(١) جمع «آية اللّه» وهو لقب يطلق على علماء الحوزه الكبار عند الشيعة. المترجمة.

(٢) القصد هم اولئك الذين يتخذون «من قرابتهم للنبي(ص)» مهنة لهم يرتزقون بها. والاّ فان السادة اكثر عدداً بكثير.

واذا وجد بينها أفراد يميلون نحو الدين، فدينهم دين أعياني، تشريفي، موسمي، وحتى في هذا العمل فهم يؤدونه بافكار غربية، وإسلامهم - كما يقول سيد قطب - ليس الاّ «إسلاماً أمريكيا».

الدين اللامسؤول، الخالي البال من الانفاق والتعب، والذي يفيدهم من أجل أبداء آرائهم وعرض عضلاتهم الكلامية فقط، وتبقى فتياتهم وفتيانهم، يلهون ويلعبون في الخارج وفي الدول الغربية على «البلاجات» و «شواطىء البحار» يبذلون ويبدون كل كرمٍ هناك، هم وأزواجهم، يذهبون كلّ عامٍ الى الغرب، كي يفرغوا ما يحتويه كيسهم من مال في معارض الأفرنج ومحلاتهم، و بين أيدي الرأسماليين الذين يحلبون كل بقرة حلوب، هاربين بذلك من كل عقدهم وغباوتهم وأحساسهم بالنقص، بأقامة الحفلات والمآدب، والتي هي دليل واضح على البداوة، كما هو الحال في زعماء القبائل الأفريقية والشيوخ العرب - ثم يعودون بجيوب فارغة، وأيد صفر، ولكن برؤوس منفوخة بالغرور، الى «ترابهم الغالي» وطنهم العزيز، والى حضن مواطنيهم الأعزاء، كي يعودوا مرة أخرى ويجمعوا ويحلبوا الناس والبلد هنا ويرهقوا أقتصاده، ثم يعيدوا الكرّة مرة أخرى بعودتهم الى الغرب كي يُحلبوا هم ومرات..، انّهم يقومون بكل هذه الأعمال بصورة طبيعية، كأن شيئاً لم يكن، بل بفخر واعتزاز، متفضلين على الشعب، معتبرين كل ذلك علامة على تمدنهم وتحضرهم وتطورهم.

وفي الوقت نفسه، نرى حجاج بيت اللّه أو زوار كربلاء، وأغلبهم من القرويين أو متوسطي الحال أو رجال الأقتصاد الوطنين، يقضون

عمراً في التعب والكد والجهد ثم يجمعون مبلغاً معيناً ليسافروا به ، باعتبار هذا السفر العمل الوحيد في حياتهم والذي هو سفر وسياحة وتعرف على الخارج، في نفس الوقت الذي يكون تجلياً للأيمان والعقيدة ومظهراً للتواصل مع تأريخهم والترابط بينهم وبين حضارتهم، وهو أيضاً زيارة الشخصيات المحبوبة والتعرف على أثار الحضارة والفن المنتسبة اليهم وتحقق أمانيهم وشفاء روحهم وعواطفهم، وأخيراً باعتباره عبادة دينية، وعلى أية حال، فهو عملٌ يلهمهم ويعلمهم، بأي مستوى كان عليه روحياً ومعنوياً وأخلاقياً، ولا يكون السفر الى الحج مثلا إلاّ مرة واحدة في العمر ينفقون أكثر أموالهم التي جمعوها له من أجل الحجز في شركة الطيران، ولا يبقى لديهم إلاّ النزر اليسير الذي يقضون به بقية حوائجهم بينما نرى الطبقة الأولى التي مر ذكرها تنفق أضعاف ذلك في مقاهي الدول الأوربية ومطاعمها.

نلاحظ ان قطاع الشعب المدني والقروي ازداد فقراً وحيرة وجوعاً[1]

---

(١) تعتبر قضية الجوع، كما أثبتها علم الاجتماع الخاص بالجوع. وكما عرضها (كاسترو) الكاتب المعروف والمسؤول من المنظمة الغذائية العالمية التابعة للأمم المتحدة بالارقام الدقيقة، تعتبر «ظاهرة جديدة»، ووليدة النظام الرأسمالي الجديد، وهناك نسبة أثنين من كل ثلاثة في العالم يعانون الجوع بما فيهم سكّان أمريكا وآوربا وروسيا والتي تعتبر من المجتمعات الغنية. وهذه كارثة اكتشفها علم الاجتماع والجغرافيا البشرية من طريق الدراسة والتحقيق العلمي بينما يظن الاكثرية بان الزيادة في مستوى الانتاج العالمي تؤدي الى انخفاض الفقر في العالم وبالذات الجوع، في حين ان ميزان حجم ونوع الاستهلاك، يرتفع بوتيرة اسرع من الأنتاج ويتقدم عليه، ويجب قياس الفقر والثروة أو الحاجة والرفاه

بهـذا «التـحول الطـبقي الخـاص» «والفـقـر» الاقتـصـادي العـام أما طـبقـة الملاكين وتجار السوق، أي الطبقة الحاكمـة قديما، فقد ضعفت وتراجعت الى الخلف أمـام تقـدم الـطبـقـة الجـديدة، وآل مـصـيـر أكـثـر أفـرادها الى الالتـحـاق ببقـيـة افـراد الشعب، واسـتطاعـت الأقـلية ان تلتـحق بالطـبقـة الجديدة وتغير هويتها.

وأمـا القطاع الذي يـبقى وفـيـاً لعـقائـده وشعـائره الدينيـة فـهـو هذان الفريقان اللذان ضعـفا بشدة وسقطا من الناحية الطبقيـة والأقتصادية بناءاً على هذا التـحليل الاجـتـمـاعي والاقـتـصـادي الملمـوس. ومع ذلك فـان الحقـوق الدينيـة الثقـيلة التي يدفعـونها، والمصـروفات الكثـيرة التي مـازالوا ينفـقونهـا في تعظيم الـشعـائر وتشكيل المجـالس وتشـييـد البنايات الدينيـة وتأمـين حيـاة علماء الدين ومـصارف الحـوزة العلميـة وغيـرها، تدل على عمق إرتباطهم بهذه الأسرة ومدى ثباتهم واخلاصهم في ذلك.

ويقفز هنا هذا السؤال فجأة الى الذهن، الذهن الذي تابع القضية

بميزان «الأنتاج» و«الاسـتهلاك» الحالي أو «الدخل» و «الانفـاق» المرادف لهما، لا بميزان الأنتاج أو الدخل الحالي بميزان الأنتـاج أو الدخل القديم. وكما ان ارتفاع دخل الموظف ليس دليلاً عـلى إنخفاض مستوى فقـره أو ازدياد مسـتـوى رفاهه وثروته، فان فـقر عائلة ما أو مـجتمع ما، يقـاس بالنسبة الى دخله وانفـاقه والذي أوجد كـارثة الجوع المنتشـرة حالياً هو تحمل حـجم ونوع الاستهـلاك المتزايد في النظام الرأسمـالي وحياة الأقـتصاد البـرجوازي وفلسفة اصـالة الأستهـلاك درجه تكون فيها حـتى العوائل الغنية ظاهراً مبتلاة بالجوع الخـفي، يسرقون من بطونهم كي ينفقوا على ظاهرهم، وطبـقاً للفلسفة الشائعة التي تـقول: ان أحداً لا يسمع صوت البطن عندما تجوع ولكن الجميع يرون الملابس والبيت!

الى هنا، ودرس كل جوانبها بتفكير دقيق ومنطقي و واضح، فتقدم خطوة خطوة ووجد كل شيء صحيحاً ومتعالياً وثابتاً في انه:

«من جهة فان ديننا الأسلام: هو آخر الأديان في التأريخ و اكملها و محمد(ص) والقرآن والصحابة وتاريخ الأسلام، هم معلمو الحياة والعزة والحضارة والمجتمع والقانون والتصور والقدرة والثقافة ومعلمو دين التوحيد الألهي والتوحيد الأجتماعي الأنساني ورسالة «قيام الناس بالقسط» «وصنع أمة كل فرد فيها... شهيد على الناس»!

كما ان عقيده التشيع: هي عقيدة «الامامة» و «العدالة» واتباع علي، وهي صاحبة التاريخ الحافل بالجهاد والمقاومة والالهام والحرية والعدل وعدم الاستسلام للظلم والجور والتمييز والأسر، والعداوة الدائمة مع إغتصاب الحق ومسخ الحقيقه والأستعباد السياسي والاستغلال الأقتصادي و «استبداد علماء الدين»[1] وهي عقيدة الأيمان بعلي والحسين وزينب والعدل وقيادة المعصوم والاجتهاد العلمي والجهاد العملي والشهادة والاستعداد وانتظار الأنفجار والثورة وظهور القائم الذي ينتظر هو بدوره ثورة الناس، كي يظهر،...

ومن جهة أخرى، فشعبنا مرتبط بهذه الأسرة ليس فقط لعلاقته الدينية بها، بل اكثر من ذلك، فذكر أفرادها يهب الحياة لقلبه، وذكراهم تجعل الدم يغلي في شرايينه، وكل عام يرتدي أفراده السواد،

---

(١) أول من أطلق هذا المصطلح هو المرحوم آية الله النائيني الكبير في كتابه «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» مع هوامش من آية الله الطالقاني.

ويبكون ويندبون مآسيهم ومصائبهم، وينذرون آنفسهم بأنتظار موعودهم...

ومن جهة أيضاً، فمثقفونا اليوم، هذا الجيل الحساس واليقظ والواعي والمطلع على مصير العالم ومصير مجتمعه، والعارف بروح وحركة الزمن والباحث عن فكر ثوري والمفكر بالحرية والعدالة ويقظة الشعب وإيجاد الأحساس والحركة والمسؤولية والوعي عند شعبه، مثقفنا اليوم ليس هو ذلك الشخص المتغرب، التائه الغريب عن شعبه، ووجه مثقفنا اليوم ليس وجه جمال زاده[١]. بل جلال،[٢] و «انفجار قنبلة التسليم في نص السنة والحضارة الاسلامية[٣]» ليس شعاراً له بل شعاره هو: «انفجار قنبلة التمرد ضد التغريب واعلان العودة الى الحضارة الاسلاميه والأعتماد على الذات»! لقد أظهر مثقفنا أنه يعرف مسؤوليته الاجتماعيه جيداً، ويعمل بالقدر الذي يعرفه.

اذن لماذا لا تؤثر كل هذه العوامل، التي تحيي كل واحدة منها شعباً بأكمله، على شعبنا ومصيره؟

«ذلك الدين» هذه «العقيدة» ذلك «المثقف» وهذا «الشعب»، لماذا إذن يكون الأمر هكذا؟

---

(١) جمال زادة: كاتب ايراني متأثر بالافكار الغربية. المترجمة

(٢) جلال آل أحمد: كاتب ايراني وأديب فارسي معروف، كان ضد التغريب والتأثر بالغرب. وكان يدعو الجيل الشاب للعودة الى اصالته الوطنية الدينية. المترجمة.

(٣) اشارة الى كلمات «تقي زادة» الذي يقول بتفاخر «انا الذي كنت أول من فجر قنبلة الأستسلام للأفرنجي في جو ايران في ذلك الوقت». المؤلف.

ولماذا لايثمر كل هذا الحب وهذه العواطف والدموع الحافلة بالحياة والحرية والأيمان، والمليئة بعظمة الانسان في الوفاء لهذه الشخصيات، لماذا لا تثمر، وتنتج شيئاً لشعبنا؟

الدين هو دين النجاة، والعقيدة هي عقيدة العدل، والمثقف الملتزم والشعب المؤمن، اذن من المذنب هنا؟

انه بكلمة واحدة:

العالِم!

ولكن لماذا؟

لان السبب الأساسي في بقاء إيماننا باسلام محمد وطريق علي وعمل الحسين شيئاً عقيماً، هو أننا لا نعرفهم، فنحن« نعشقهم» ولكننا لا «ندركهم».

هنالك «حب» ولكن ليس هنالك «معرفة». سر هذا اللغز في ان الدين هو دين الحياة ولكنه لايهب الحياة لشعبنا، هو أنهم يؤمنون به ولكنهم لا «يعرفونه». من الذي يجب أن يعطيهم المعرفة؟ انه العالِم.

هو الذي كان يجب ان يعرِّف بعلي، وان يعلّم «عقيدة علي»

العالِم في الاسلام ليس عالِماً بلا التزام ومسؤولية يمتلك مقداراً معيناً من المعلومات. العالِم ليس مجموعة من المعلومات الفنية التخصصية في عقله فحسب، بل العلم «شعاع من نور» في قلب العالم: «النور الألهي»[1]

(١) العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء. النبي(ص).

وهذا التعبير الخاص - الموجود في حديث النبي(ص) - ليس مفهوماً غيبياً مرموزاً، وليس علم الأشراق العرفاني، وأمثاله، وكذلك، ليس علم الفيزياء والكيمياء والتأريخ والجغرافيا والفقه والأصول والفلسفة والمنطق، فهذه كلها «المعلومات العلمية» لا «النور»، **العلم الذي هو نور العلم المسؤول، علم الهداية** «علم العقيدة»[1] والمذكور في القرآن بأسم «الفقه» ولكنه اليوم يعني «عِلم الأحكام الشرعية والفرعية، وهذا العالِم لا يعمل في الظلام، انه يُنير الفضاء ويحطّم الليل، يدلل على الطريق، ليس استاذاً أو حكيماً اختص بطلاب معدودين، بل هو معلم الناس، علمه ليس علم الأكاديمية الافلاطونيه، بل علم الرسالة النبوية علماء كهؤلاء يطلق عليهم اسم «ورثة الأنبياء».

«علم المعلومات» هو «نوع» من «القدرة»، وعلم النور، هو **«هداية»، وعالِم النور، هو عالِم مثقف والمثقف هو مفكر ملتزم** مسؤول أمام عقيدته وشعبه وعالِم التشيع مسؤوليته أخطر وأوضح، فهو «نائب» الإمام وعلم الإمام لديه مسؤولية الإمامة، والإمامة لديها مسؤولية النبوة. وعالِم التشيع، لديه نيابة الإمام ويأخذ حصة الإمام، ويتعهد بتبليغ الرسالة النبوية، والإمامة العلوية للناس فتكون اكثر وظائفه بداهة هي، ان يعرف للناس من هو الإمام، على الأقل ومن

---

(١) في رأيي، فان «علم العقيدة»، ومرادفه «العلم بالعقيدة»، هو الترجمة الصحيحة لكلمة أيديولوجيا.

كان الأئمة، وكيف كانوا يفكرون؟ ماذا كانوا يقولون؟ ماذا كانوا يفعلون؟ وكيف كانوا يعيشون؟ وما هو دورهم في التاريخ؟ ماهي عقيدتهم؟ وأيّ فكر وقفوا بوجهه، أيّ جناح، وايّ نظام وماهو الجهاد الذي قاموا به؟ وأخيراً ماذا يريدون منا، وماذا يجب أن نفعل نحن من أجل ان نواصل دربهم؟

واذا رأينا ان كل هذه الاسئلة تحتاج الي جواب، ومع ذلك فليس هنالك كتاب حول كل أئمة الشيعة، بين الناس وبلغتهم، في حين لا يعدم ذلك عن أحد الفنانين الأوربيين مثلاً، فالمذنب هنا هو العالِم.

واذا عثر شابنا المتعلم اليوم على أغاني ومنكرات بليتيس الغانية في الأساطير اليونانيه، اذا عثر عليها باللغة الفارسية، ولم يعثر على أية خطبة من خطب علي(ع) بلغته، فالمذنب هنا ليس سوى العالِم.

و اذا كان شعبنا لا يعرف عن أئمته إلاّ عدة « أسماء » وعن كل واحد منهم عدة معجزات وكرامات ومدائح ومناقب، وعن كل حياتهم يعرف يوم ولادتهم وليلة وفاتهم فقط، فالمذنب هو العالِم.

علي واهب الحرية، والناس، عشاق علي، وعشاق علي منحطون ومظهرٌ للضعف والذلة، والمثقف مطلع على هذا الضعف والأنحطاط!

السبب الأساسي في هذا التناقض، هو «عدم المعرفة».

«المعرفة» هي القيمة المؤثرة، والأيمان والحب لايساويان شيئاً بدون المعرفة والأختيار الصحيح. والقرآن الذي لايُقرأ ولايُفهم، شأنه شأن

اي كتاب آخر، أو اي دفتر أبيض. ولهـذا كان السعي الحثيث من أجل ألا نقرأ القـرآن ولانتدبره، ولانفهـمه، وبحجج كـثيرة مـثل اننا لانفهم القـرآن، وان للقرآن **سبعين** بـطناً ولكل بطن سـبعـون بطناً و...[1] وان التـفسـيـر بالعـقل ممنوع وحـرام[2] ولهـذا يصـرح الـقـرآن قـائلاً: «أفلا يتـدبرون القرآن» ويقـول في جواب اعـدائه الذين يعرّفـون القرآن باعتـباره صـعباً جـداً ومعـقداً جداً، ولكن بلهـجة رقـيقة مـشفـقة كي يـبـعـدوا الناس عـن القـرآن، يقـول في جـوابهم: «ولـقـد يسّرنا القـرآن للذكر، فهل من مذّكر».[3]

وعلي يهب أتبـاعه الوعي والعظمـة والعزة والتـحرر في الوقت الذي يعرفونـه فيه. وماذا يفـيدو ماذا يؤثر مـدحه والثناء عليه؟ عندمـا لانعرف كتاباً صـحـيحاً واحداً عن سيرته في لغتنا، ولانـعرف منبراً واحداً ينقل أحاديثـه للناس المشتـاقة بصورة صـحـيـحة[4] والحبّ والايمان لاينفعان لايهبـان الروح، لايعـطيـان التـحـرك والبناء الاّ بعــد المعـرفـة. وهكذا أصـبحت فـاطمـة، وجـهاً أختـفى خلف ستائر المديح والثناء والبكاء الدائمي لاتباعها.

---

(١) انظر الى المغالطه بينما كون الشيء عـميقا غير كونه لغزاً، وكونه سـهلاً، غير كونه سطحياً!

(٢) انهم يفسرون «من ترجم القرآن برأيه» بـ «من ترجم القرآن بعقله»!

(٣) (٥٤ ـ ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ ـ أربع مرات في سورة قصيرة).

(٤) المقـصـود هنـا المنبـر، لا المنبـريين المـوجـودين والذين يتكاثرون بـاطراد «كـثـر الله أمثالهم!».

ثلاثة وجوه للمرأة:

لدنيا في المجتمع والحضارة الأسلاميه، ثلاثة وجوه للمرأة:

أحدها وجه المرأة التقليدية، الخرافية ـ والآخر وجه المرأة الحديثه المتأثرة بالغرب، والتي بدأ انتشار نماذجها، والأخير هو وجه «فاطمة» والنساء «الفاطميات»! والذي ليس له اي شبه بوجه المرأة التقليدية، والفكرة الموجودة في أذهان أفرادنا عن المرأة التقليدية بعيدة وغريبه عن وجه فاطمة بقدر ما وجه فاطمه بعيد وغريب عن وجه المرأة الحديثة. في عالمنا اليوم، وبالذات في الشرق وخصوصاً في المجتمع الاسلامي والأيراني، يواجهنا واقع قائم، وهو وجود تضاد وأزمة وتحول وأنهيار وتشتت عنيف جداً في الخصوصيات الأنسانية والسلوك والعادات الاجتماعيه وطريقة التفكير، وأساساً تغيير الشكل الأنساني هو الذي أوجد طبقة خاصه بأسم «المثقف» و «والرجل والمرأة المتعلمين» أو «المتحضر» والذين هم في تضاد مع المرأة والرجل «التقليديين».

وهذا التضاد، هو التضاد الذي كان يجب ان يحدث، وما كان أحد يستطيع الوقوف بوجهه، كان قدراً لم تستطع اي قدرة أن تقف بوجهه.

وهذا لا يعني تأييد هذا التحول ولا إنكاره، فالبحث ليس هذا، ولكن القصد هو ان المرأة تتغير بالأجبار، بتغيير المجتمع وتحوّله، تبدّل اللباس، تغيّر الأفكار والحياة وجهتها، ولا أمل في إمكان بقائها في قوالب دائمية.

في الاجيال الماضية، كان الولد وفياً تماماً كأبيه، ولم يكن الأب يخشى أبداً أن يتخذ ابنه شكلاً جديداً ومبتدءاً ومجهولاً ثم يصبح بشكل لايوجد فيه أي وجه أشتراك بينهما فتموت العواطف إزاء بعضهما الى درجة لايستطيعان معها الجلوس مع بعض ولو لدقيقه واحدة بدون الأنتقاد وسوء الظن والمناقشات الحادة لم يكن الأب في السابق يخشى هذا الأمر، أما اليوم فالوضع يختلف تماماً، حيث ان إحدى مميزات قرننا الحالي ـ سواء في الغرب أو الشرق ـ هو الفارق الشديد بين الجيلين، إذ يقيّم من ناحية «الزمن التقويمي» ثلاثين عاماً بينما يُقيّم من ناحية «الزمن الاجتماعي» ثلاثين قرناً .

بالأمس كان المجتمع ثابتاً، وكانت القيم والخصوصيات الأجتماعيه غير قابلة للتغير، ولم يكن يتغير اي شيء في غضون ١٠٠، ٢٠٠، ٣٠٠ عام. البنية الاجتماعيه، شكل الأنتاج والتوزيع، نوعية الاستهلاك، العلاقة الأجتماعيه، الحكم، نوعية التبليغ الديني، المراسيم الدينية، الأخلاق والطباع والقيم الأيجابية والسلبية، الفن، الأدب واللغة وكل شيء، كانت هي نفسها الموجودة في عصر «الآباء» و «الأجداد» وتبقى هي نفسها، في عصر «الأبناء» و «الاحفاد».

الصالح والطالح:

في دنيا ثابته كهذه، ومجتمع مغلق لايتحرك فيه «الزمن الأجتماعي» كان شكل الرجل والمرأة واحداً، وكان طبيعياً ان تكون الفتاة نسخة مكررة من أمها، واذا كان هنالك اختلاف بين

الأم والبنت فهو في القضايا الفرعيه للحياة، أوفي حوادث الحياة اليوميه أو الأنحراف والفساد الأخلاقي، الفردي، الفساد الذي يتفق على الحكم عليه أفراد المجتمع، ولم يكن هناك اختلاف بينهما في السلوك أو الحالة التي يعتبرها البعض صلاحاً والآخر فساداً، كما هو الحال اليوم.

أما في عالم اليوم فالفتاة تبتعد عن أمها دون ان تكون منحرفة وتصبحان كلاهما غريبتين عن بعضهما، ويجعل معدل فارق السن(١٥ ،٢٠ أو ٣٠ عاماً) منهما إنسانين خاصين بعصرين إجتماعيين، خاصين بتأريخين ثقافيين، لغتين، فكرين مستقلين عن بعضهما، ولا علاقة بينهما الا في الاوراق الرسمية، ولا أشتراك إلاّ في العنوان!

ونلاحظ ملامح هذا التضاد والفارق التدريجي بين الجيلين في مظاهر الحياة الأجتماعية أيضاً.

الدين والتقليد:

والمجتمع الذي يحوي هذا التضاد لن يستمر فيه طويلاً، وواضح أن أحد هذين الصنفين وهو «الأم» سوف يبقى في بوتقته يقضي آخر أيام عمره، وان الآخر يبدأ دوره منذ أيامه الاولى، وبالتأكيد سوف تكون هذه الفتاة هي أم «الغد» ولكنها لن تعود الى القوالب القديمة، وعندها سوف تتفق الأم مع البنت ـ في الجيل القادم ـ فيتحد الفارق الاجتماعي والزمني بينهما، وتصبح أبنتها «وفية» لها تماماً كما كانت أمها لجدتها.

وهذه الحركة، اي تبديل الصنف التقليدي «صنف الام» الى الصنف الجديد هو أمر قطعي ومن يقف في مواجهة هذا «الأمر الواقع»- سواء كان حقيقة أو باطلاً، فهو واقع محتوم - ببلاهة وسذاجة، ويكتفي بالتهريج والشتم والسب والغضب والضرب والضغط والتأنيب والفرض والحرمان والتقييد والكلام الفارغ والخداع لن يجني من اعماله هذه شيئاً سوى التسريع في هذا التغيير وتقوية الجبهة المعارضة ان هؤلاء يبررون ويقدسون بعنوان المرشد والمفكر وباسم الأيمان والعقيدة والدين والعصمة كل شكل ورثوه عن السابق وأصبح لديهم تقليداً وعادة، أو وكما يقول القرآن الكريم من «سنن الأولين» و «أساطير الأولين» وما كان عليه «الأباء الاوّلون» ويسعون جاهدين في الحفاظ عليه، ويعتبرون كل شيء «قديم» فهو «ديني» وبالتالي يعتبرون «التغيير» بأي شكل كان وبأي شيء حتى في الملابس والزينة «كفراً» ويغالطون فيعتبرون التقليدية والمحافظة والقديم والهروب من التجدد والأبداع والأبتعاد من التغيير والتجدد يعتبرونها هي الأسلام.

ومن هذا القبيل وضع المرأة الذي يحاولون إبقائها عليه بحجة انه كان من السابق[1] هكذا، وبأنهم اعتادوا عليه، ويقبلونه، ومنطبق مع مصالحهم، مدعين ان الاسلام هو الذي يريد هذا، وان الدين وضع

---

(١) وهذا السابق، لربما كان من عهد القاجاريين أو الصفويين، أو جاهلية العرب أو العجم قبل الاسلام، وحتى من أديان اليهود والنصارى، المهم انه قديم، فيصبح بذلك مقدساً دينياً، إسلامياً، وكل من رفضه، فهو كافر، أو اذا تسامحوا قليلاً ففاسق!

هذا «الشكل» ويجب أن يبقى هكذا الى يوم القيامه، أما الدنيا فتتغير وحتى الرجل نفسه يتغير، وابنه يتغير، وتبقى المرأة في نفس القالب الذي يعجب الرجل.

مدّعين أن محمداً«ص» خاتم الأنبياء هو الذي أراد للمرأة أن تكون بهذا الشكل وهذه الصفات!!...

هؤلاء أيضاً يدعون للضلال، وما اشد الضرر في دعوتهم! ولكن أحداً لايستمع الى أقوالهم، لان المتحول لايمكن ان يوقفه أحد، ولان المرأة تتغير بالأجبار والأختيار، فالزمن يتحرك. والمجتمع يفقد جلده بالتدريج فتتغير العادات والرسوم والتقاليد والاشكال، لان «الحقيقة» تحيا و «اشكال الحقيقه أو الباطل» هي التي تموت، واذا أردنا ان نحتفظ بهذه «الاشكال» ببلاهة وسذاجة، فسوف تدهسها قافلة الزمن المسرعة، وتسحقها هي وما تحتويه ـ وما تحتويه هو الحقيقة... هذه دعوة فاشلة، عقيمة، لن يستمع اليها، لا الزمن، ولا المجتمع أبداً، ولا يمكنهم الأستماع اليها، ولكن، اذا هم برروا التقاليد التي تموت والعادات التي تمر وتُنقض، بالدين فهم لن يستطيعوا حفظها بقوة الدين، ولكنهم يظهرون بهذا العمل الدين على انه ميّت، جامد، خاص بالماضي فقط. فيخسرونه مع التقاليد.

اذا اعتبرنا الدين والتقاليد، شيئاً واحداً وصنعنا من «الاسلام الذي لا يزول» حارساً «لاشكال الحياة والمجتمع الزائلة» وأشتبهنا به مع العقائد القوميه والظواهر الحضارية والتأريخيه، عندها سوف يخطيء الزمن، الذي يجري ويجرف معه التقاليد والعادات واشكال الحياة،

والعلاقات الاجتماعية، والظواهر القومية والتأريخية، والعلاقات الثقافية القديمة، سوف يخطئ فيجرف مع كل هذه الاشياء الدينَ والاسلامَ ويصلبهم جميعاً على خشبةٍ واحدة، والآن أفلا نحس بهذين الخطأين الكبيرين؟ أفليست لنا أعين فنبصر بها؟[1]

---

(١) انقل هنا نموذجاً صغيراً، يدل على حقائق كبيرة ويبين نوعية التفكير والنظرة الدينية الرائجة! فأداء القواعد الصحية الاسلامية مثلاً والتي هي في غاية الرقيّ والدقة والعلمية، تحولت هذه القواعد بمرور الزمن، وحسب وسائل التأمين الصحية والغسل والتنظيف في الماضي وإمكانات الحياة القديمة، الى مشكلة خاصة، إذ اتخذت هذه «الوسائل والأشكال ـ والتي ليس لها اية علاقة بالإسلام بل تخص الأمكانيات الفنية والمادية والعادات القومية والمحلية ـ اتخذت وجهاً دينياً مقدساً، وأصبحت من عناصر الاحكام الاسلامية التي لا تقبل التغيير.

فقد لوحظ في مدينة «مشهد» مرّة، ان «منظمة ليلية سرية تحت الارض، شكلت، تعمل حسب أصول تشكيلية، حزبية، دقيقة ومنظمة جداً، الى درجة لم يستطع أحد من خارجها التعرف على أهدافها و«ايديولوجيتها» وطريقة عملها. تبدأ هذه المنظمة نشاطها من الثالثة بعد منتصف الليل وتختفي تماماً قبل طلوع الفجر، ولا يعلم احد اين يذهب اعضاؤها، وبعد مدة، وبعد ان اسطاعوا إدخال بعض العناصر من الخارج اليها، اكتشف ان هذه المنظمة تعمل ضد مديرية الصحة ـ والتي كانت قد اغلقت كل خزانات الحمامات في كل مدن وقرى الأطراف ـ وبما ان اعضاء هذه المنظمة يعتقدون ان الآلة التي ترش الماء في الحمامات (الدوش)، لا يصح الاغتسال بها، وغسل الجنابة لا يصح إلاّ في الخزّان فقد فتحو في احدى زوايا المدينة خزاناً بمساعدة أحد أصحاب

سنة نبي الأسلام (ص):

«سنة النبي» والتي لها كل الاهمية في الاسلام، هي الكلام الذي قاله الرسول (ص) أو الامر الذي أصدره (الحديث) أو قبوله لعمل يقام به، سكوته وعدم مخالفته، أو عمل قام به هو في حياته حتى بدون أن يأمر الآخرين بأدائه (التقرير).

اذن فسنة النبي هي كلامه وعمله وبالتالي تقسم أحكام الاسلام الى قسمين:

١ـ ما كان قبل الاسلام وأيده النبي (الاحكام **الإمضائية**).

٢ـ ما جاء به الاسلام ولم يكن قبله (الاحكام التأسيسية) وشيء آخر أفهمه من السنة غير هذين الأثنين وهو ما اعتبره اكثر دقة وأهمية منهما، أي طريقة عمل النبي «ص» أو، المنهج، التكتيك، والأستراتيجية التي كان أتخذها وكانت نصب عينيه في تحقيق رسالته «ص».

الحمامات المؤيد لهم، واقاموا عليه من الامام جداراً مغلقاً، ومن الخلف كان هنالك ثقب لا يرى تحت السقف ولا يدخله إلاّ الاعضاء الرسميون «الحزب الخزّان» يمارسون نشاطهم تحت إشراف المسؤولين الخبراء، وكانوا يخبرون الاعضاء في الثالثة، فيوصلون أنفسهم من طرق مختلفة الى اللجنة المركزية ومنها يرسلون الى الخزان القذر، كي يغتسلوا فيه غسلاً إرتماسياً، يرضون عنه! كان «الخزان» قد اتخذ وجهاً إسلامياً مقدساً، فتبديله الى جهاز رشاش جرح مشاعر الكثيرين! وكأن خسران «الخزان» كارثة اكبر بالنسبة للاسلام من ضياع فلسطين!

أسلوب النبي الخاص:

كان عمل النبي «ص» ازاء اي ظاهرة اجتماعية من أجل إصلاحها أو تغييرها يتم بطريقة واسلوب، بحيث تكون درساً وقدوة لنا في حل قضايانا، حتى ان لم يكن هنالك اي شبه بين القضيتين - قضية عهد النبي، وقضيتنا -

وهذه المسألة وان كانت مهمة جداً إلاّ انني اكتفي هنا بمثال واحد بغية الاختصار،كان لدى العرب قبل الاسلام تقليد ذو جانب خرافي عقائدي، فقد كانوا يعتقدون ان الانسان الجنب يحلّ فيه جن أو شيطان فيتنجس جسمه وأنفاسه، ولا تخرج هذه الشياطين من جسمه إلاّ بعد أن يغتسل.

فحين يغتسل العربي الجاهلي اذن، فلأنه يريد اخراج الشياطين من جسمه.

ثلاثة مناهج معينة

- الطرق المتبعة في النضال الاجتماعي من أجل الأصلاح، حسب العقائد والأديان والمذاهب الاجتماعية هي:-

١ - المنهج التقليدي والمحافظ[1]:

القائد الاجتماعي المحافظ، يبقي على اية ظاهرة، بكل خرافيتها، لأنها تقليد ومحافظة. وهو حارسها، ويعتبرها خلاصة وجود شعبه.

---

(1) Traditionalism ,Consarvatisme

٢ - المنهج الثوري[1]:

القائد الثوري، يجتث هذه الظاهرة بسرعة وحسم، لان التقليد الخرافي، قديم ورجعي ومتأكل.

٣- المنهج الأصلاحي[2] والنشوئي[3]:

يحاول القائد المصلح ، ان يغيّر التقاليد الرائجة تدريجياً ، ويهيّء الأرضية المناسبة والعوامل الاجتماعية لأصلاحها، بالتدريج، فيصلحها ببطء، رويداً، رويداً. (الطريق الوسط).

وأما النبي (ص)، فقد كان يعمل بأسلوب رابع، وهو انه يحتفظ بالتقليد المتجذر في اعماق المجتمع والناس، جيلا بعد جيل، حتى اعتادوا عليه وصاروا يمارسونه بعفوية، فيصلح شكله، ولكنه يغير محتواه وروحه وجهته وفلسفته العملية بطريقة ثورية.

الأستدلال المنطقي للمحافظ:

اذا غيرنا التقاليد القديمة، تتفكك الجذور والعلاقات الاجتماعية المحفوظة في التقليد والتي تنظم البناء الاجتماعي كما تنظم سلاسل الاعصاب أعضاء البدن، وعندها، ينهار المجتمع فجأة، ويصيبه الأضطراب، وهذا هو السبب في انه بعد اي حادثة ثورية كبيرة، ينتشر الأضطراب والهرج، أو تعم الديكتاتورية وهذان لازم وملزوم لبعضهما لان الإجتثاث السريع للتقاليد الأجتماعية والحضارية المتجذرة

(1) Revolutionnisme

(2) Reformisme

(3) Evolutionisme

بقفزه ثوريه مسرعة، يوجد خللاً كبيراً ومفاجئاً في المجتمع، تظهر آثاره بعد خمود الثورة!

استدلال المصلح الثوري:

اذا احتفظنا بالتقاليد القديمه، فسوف نبقي المجتمع دائماً في القدم والركود والجمود والتخلف، لذلك فالقائد الناجح هو الذي يكسر فجأة كل القيود والقوالب التي تمسك بأيدينا وأرجلنا وأرواحنا وأفكارنا وإرادتنا وعقائدنا، فيحرر الجميع، ويرمي بهذه العلاقات والعادات والأخلاق والطباع بعيداً مع الماضي، ويضع قوانين جديدة مكانها، وإلاّ فانه يبقي المجتمع على حاله من الانحطاط والرجعية والركود.

إستدلال المصلح النشوئي:

يريد المصلح ان يستفيد من نقاط ضعف الطريقتين الثورية والتقليدية، فينتخب طريقاً ثالثاً وهو التحول التدريجي وبهدوء، ويكتفي «باضفاء وجه مناسب» على أمر غير مستساغ، لا اجتثاثه من الجذور والتبديل السريع له.

يسعى هذا المنهج لا نقاذ المجتمع من الركود والأسر بين أيدي التقاليد الجامدة، ولكنه، ومن أجل ألا ينهار المجتمع فجأة، وكي تتهيأ الأرضيه المناسبه، فانه يصلح ماهو موجود تدريجياً، وباسلوب هادىء، وبعد تهيئة الأرضيه الاجتماعيه الفكرية للمجتمع، ويصبر حتى تتحقق

أهداف المجتمع بالتحول التدريجي، لا أن يعمل بصورة ثورية، بل يصل الى هذه النتيجة بعد مدة طويلة واعداد برامج ومناهج كثيره لها.

أما العيب الذي يظهر غالباً، في هذا الأسلوب الأصلاحي، فهو انه في خلال هذه المدة الطويلة قد تتدخل العوامل السالبة والقدرات الرجعيه وأيادي الأعداء الداخليين والأجانب، كي تحرف هذه «النهضة الاصلاحية التدريجية» عن مسيرها، أو توقفها، أو حتى تدمرها.

فاذا أردنا مثلاً، إصلاح اخلاق الشباب وتنوير أفكار الناس تدريجياً، فاننا في اغلب الأحيان، إما ان ننتهي قبل الوصول الى النتيجة المرجوة، وأما أن نواجه بتدخلات العوامل المفسدة التي تخدع الناس فتشل حركتنا.

إن تفكير القادة المعتقدين بالاصلاح التدريجي في المجتمع، تفكير منطقي، ولكن ما لم يدخلوه في حسابهم هو عمل القدرات المحبطة لكل نشاطاتهم، والتي كانت، دائماً، «بأنتظار» الفرصة التي يهيّئها لها الوقت الطويل الذي تتطلبه الأصلاحات التدريجية، كي تكون لها مجالاً فسيحاً لتخرج من كمينها الذي نصبته ، وتبدأ بنسف كل ما بناه هؤلاء المصلحون «البطيئون» ثم تقلب الاوراق فجأة.

أما النبي«ص» فقد أبتدع منهجاً خاصاً في النضال الاجتماعي وقيادة التغيير وتطبيق الرسالة ـ بدون ان توجد في منهجه نقاط ضعف المناهج الثلاثه الآنفة الذكر أو عواقبها السالبة ـ فيصل الى اهدافه الاجتماعيه ويجتث جذور العوامل السالبة والتقاليد المعيقة لحركة المجتمع، بسرعة، وطريقته هي: «يحفظ شكل التقاليد، ولكن يغير

محتواها، من الداخل، بطريقة ثورية».

في المثال الذي ذكرناه، عن «الغسل»، ـ والذي كان عقيدة إسطوريه وتقليداً خرافياً لدى العرب الجاهليين ـ هنا يعمل «التقليدي»، على حفظ هذه العادة والابقاء عليها كما هي، أما الثوري، فينسفها وبعنف، ويمنع من أدائها تماماً. والنشوئي، يسعى في تمهيد الأرضية الفكرية والاجتماعيه لدى الناس حتى تنمحي الاعتقادات الخرافية بالسحر والاسطورة حول حلول الشيطان والعلاقة الوهمية بين الجنابة ونجاسة النظر والأنفاس، أما النبي«ص»، فيصنع من هذا التقليد اكبر سنة صحية، باصلاح طريقته وشكله، والتغيير الثوري لمحتواه.

لقد حفظ النبي«ص» سنة «الحج» ـ والتي صارت قبل الأسلام وبعد ابراهيم تقليداً عربياً قومياً خرافياً من أجل تعظيم عبادة الأصنام ومن أجل المنافع الاقتصاديه لقريش ـ واستخدمها في دينه بتغيير محتواها بصورة ثورية للغاية مستفيداً بذلك من المكانهَ التي كان عليها هذا التقليد(الحج) عند المجتمع الجاهلي، المنسوب الى ابراهيم«ع» وكذلك اعتقاد كافة الناس قبل الاسلام بأن ابراهيم الخليل(ع) هو الذي بنى الكعبة، فجعل(ص) من الحج الذي كان قد أصبح أساساً اجتماعياً وتقليدياً من أجل حفظ مصالح قريش واقتصاد مكة التجاري، جعل منه، أعظم، أجمل، وأعمق سنة مبنية على التوحيد والوحدة الأنسانية.

لقد غير النبي«ص»، عادة عبادة الأصنام القبائليه القوميه للحج، بقفزه ثورية، الى سنةٍ تختلف إختلافاً كاملاً عن محتواها السابق،

وقد حدثت هذه القفزة وهذه الحركة الثورية بصورة لم تجعل الشعب العربي يحس بالأضطراب والأنفصال عن الماضي، وانهيار كل قيمه ومقدساته، بل أحسوا بأحياء تقاليدهم ودوامها، ولكن مع صقلها وتصفيتها، في حين انَّ هنالك فاصلة زمنية تتجاوز القرون العديدة بين عبادة الاصنام حتى التوحيد، طواها النبي«ص» فجأة وبصورة ثورية، واكثر فورية من اي ثورة ثقافيه وفكرية أخرى، بدون أن ينتبه المجتمع الى انسلاخه عن ماضيه، وإنهيار كل أسسه ومبادئه السابقة.

يمكن تسمية هذه القفزة وهذه الحركة الخاصة في المنهج الاجتماعي للنبي(ص) «بالثورة في باطن التقاليد، مع حفظ شكلها المحسّن».

أظن ان المطلب والمقصود قد إنجلى للحضور الكرام، وان كان المثال الذي جئت به عن الحج غير مقبول عند البعض، وقد قيل سابقاً **«المثال لا يُسأل عنه»** اذن نعود الى المحافظ، الذي يحاول الإبقاء على التقاليد باي ثمن، ولو استلزم ذلك التضحية، بنفسه والآخرين، والثوري الذي يريد ان يغير كل شيء فجأة ويبعثره بضربة واحدة، يدمره، وينتقل فوراً من مرحلة الى مرحلة أخرى، وان لم يكن المجتمع مستعداً لذلك، فيتصدى لمجابهته، ومن الممكن ان يضطر الثوري، لذلك، للتوسل بالخشونة و الديكتاتورية و القسوه، والمذابح الواسعة المتاليه، ليس فقط ضد القدرات المعادية للناس، بل حتى ضد الناس أنفسهم! والمصلح النشوئي، الذي يعطي دائماً الفرصة والمجال للمفسد!

أما النبي(ص) فينتخب منهجاً آخر اذا ادركناه واستخدمناه، أخذنا أمراً واضحاً وصريحاً للغاية، من أجل مواجهة المفاسد والتقاليد **الباليه والحضارة الميتة والدين الممسوخ والعقائد الإجتماعية المتجذرة في** عمق المجتمع والأفكار والعقائد ـ المدمرة للعقل، والتي تواجه اي مثقف سليم النظرة يحمل رسالة الأنبياء وبهذا المنهج فقط يستطيع هذا المثقف المغَيِّر أن يصل الى «أهدافه» الثورية بدون ان يتحمل، مضطراً، كل العواقب والنتائج الوخيمة للطريقه الثورية، أو مجابهة المباني الاعتقادية والقيم القديمه للمجتمع، وبدون أن يبتعد عن الناس ويصبح غريباً عنهم، فيتهمه الشعب.

الواقعيه أداة في خدمة المثالية:

احدى مميزات الاسلام هي قبوله للواقع العيني والجبري لأي مجتمع واعترافه به هنا أيضاً، نظرة الاسلام نظرة خاصة، ففي المذاهب المثاليه يكون كل الأعتماد منحصراً على القيم السامية والمثاليات المطلقة والمطلوبة، طاردة بذلك كل واقع لايتفق معها، ولاتتحمله، أو تنفيه، أو تنسفه! ـ كالغضب، الثأر، و الغريزة الجنسية ـ فالبحث عن اللذة وحب المال من الواقع «الموجود» ـ ولكن المثالية الاخلاقيه (الزهد) أو الدينية(المسيحية) تغض النظر عنها وتستنكر وقوعها بأي شكل!

على العكس من ذلك في المذاهب الواقعيه، فهنالك قبول لكل الاشياء بدليل انه واقع، حتى اللواط كما هو في بريطانيا، أو الأعتداء،

كما هو في فلسطين!

فالمسيحية مثلاً تحرّم الطلاق وتمنعه، للحفاظ على العائلة من الانهيار، بأعتبار ان الوفاء لبعض، وحفظ الأسرة، ورابطة الزواج، من الاشياء المثالية المقدسه، ولكن الواقع هو ان كل الناس، وفي كل الاماكن والاشكال لا يستطيعون جميعاً، الاحتفاظ بهذا الرباط المقدس، وقد يحدث ان يبتعد أثنان عن بعضهما في حياتهما المشتركة الى درجة يصبحون فيها تعيسين يعيشان معاً، وبقاؤهما ليس إلا لأضطرارهما، وفي هذه الحالة لا يبقى بينهما اي رباط، وقد فرضا على بعضهما الآخر، وافتراقهما سيجعل من كل منهما أنساناً سعيداً، هذا واقع أحسه كل أنسان متحضر وغير متحضر، متدين وغير متدين، في الماضي والحاضر والمستقبل ولكن المسيحية تنكره، وبأسم «تقديس العلاقة الزوجية» تغلق أحياناً أبواب بيوت ليس وراءها إلاّ جهنم. أو بؤرة فساد وخيانة وجرائم. أغلق من دونها باب الطلاق وفتحت لها كثير من النوافذ الأخرى.

(زواج التمتع) الغربي

ان الوقائع الاجتماعيه، اذا لم يفتح لها الباب، سوف تقفز من النافذة! هذه حقيقة، ولهذا كان تحريم الطلاق سبباً في ايجاد حاله (الكونكوبيناج) أو إتخاذ الخليل. أي ان الرجل الذي لايستطيع العيش مع زوجته القانونيه يفترق عنها دون أن يطلقها، والمرأة كذلك،

تفارق زوجـها بدون ان تطلقـه، فيعـيش الأثنان، لسنين عديدة، بعيدين عن بعضهما، ولكن كل واحد منهما مع شخص آخر! يعيشون تحت سقف واحد. وهكذا تشير لنا الارقام والاحصائيات الرهيبة عن الابناء الذين يولدون نتيجة هذا التزاوج اللاشرعي. إنّ أغلبية هؤلاء الأبناء يعانون من أمراض نفسيه وعقد، وان اكثرهم من المجرمين والعدوانيين.

ان الزوجين الشرعيين، لا يستطيعان الحياة مع بعضهما بعد أن يصلا الى طريق مسدود في التفاهم. فيستحيل عليهما العيش سوية، بل حتى الجوار، فمن الطبيعي عندئذٍ ان يفترقا، ويختار كل منهما من يناسبه للعيش معه، ارضاءً لحس الميل للحياة العائليه، أو الانجذاب الجنسي.

نرى هنا ان الطبيعة والواقع يبنيان بيتين جديدين، على حطام بيت منهار. أما «المسيحيه المثاليه» فانها لاتقبل هذه الحقائق التي لم يكن بالامكان منع وقوعها - حتى من جانب الزوجين -، وتغمض عينيها عنها كي لاترى، وبالتالي فهي تعترف بهذا «البيت المنهار الموهوم» والذي لا وجود خارجياً له، وتنكر هاتين «العائلتين الطبيعتين الموجودتين» وهكذا يقع الأنفصال والتضاد بين الشرع والقانون من جهة وبين الطبيعة والواقع من جهة اخرى. وفي النتيجة فان العائلة غير الموجودة هي العائلة التي تعتبر مسيحيه ودينيه، والعائلة الواقعيه والطبيعيه الموجودة، كأنها لاوجود لها، وينظر اليها على أساس انها بؤرة فساد وخطيئه!

ولقد سببت المسيحية، بأنكارها لهذا الواقع، عدم مشروعية العوائل التي وجدت بعد ذلك واعتبار الأطفال الذين يولدون من هذه «العلاقات الطبيعية» و «الزيجات الموفقة والوفية الواقعية» على أساس أنهم أولاد زنا ومجرمون وجناة في رأي المجتمع الديني، وهؤلاء الذين حرموا من حنان الأسرة وطهارتها ونظر اليهم المجتمع دائماً، على انهم «ابناء الخطيئة» سوف تظهر في حياتهم عقد وأمراض نفسية، تجعلهم ينتقمون من المجتمع بجرائم وجنايات غريبة.

وكل هذه الجرائم التي نشهدها في أوربا وأمريكا أيضاً، ولا وجود لشبهها في الدول النامية، سببها الأصلي، بالرغم من وجود الحضارة في هذه المجتمعات، والثقافة، والاخلاص والتربية العقليه والفكرية والحرية الفردية والاجتماعيه والدينيه، هو وجود شيء آخر يملأ الجيل الجديد بالعقد والأمراض، فيضطره للثأر من المجتمع بأبشع صورة ممكنه.

صنع شاب إنجليزي، يبيع السجائر، شيئاً يشبه القوس الصغير جداً، نصبه تحت خشبه وضع عليها سجائره، وكان يرمي المارّة والمحتشدين في زحام الشوارع والسينمات بسهام رفيعة كالأبر ملوثة بمادة سامة، فيعمي بذلك البعض ويقتل آخرين، ولم تستطع الشرطه العثور على القاتل. لانها كانت تبحث دائماً في تحقيقاتها عن اعداء المقتولين، وبما ان القاتل لم تكن له أية علاقة أو عداوة بأحد من الذين قتلهم فلم تكن الظنون لتتجه اليه. إنّ هذا يدل على انه لا سبب منطقياً وراء جرائم القتل هذه، سوى ان هذا الشاب كان يقتل هؤلاء

الاشخاص باعتبارهم اعضاء في المجتمع، وهو - اي القاتل - منبوذ وأحد ضحايا هذا المجتمع. إنّ جرائم كهذه تحلّل، عادة، تحليلاً اجتماعياً لانها إفرازات عقد، ساهمت في ايجادها الكنيسة - بعدم رؤيتها للواقع وغضّها الطرف عمّا هو موجود -، ومن حسن الحظ، ان عقداً كهذه لا تزال غير مألوفه في مجتمعنا، فهنا وبسبب وجود الطلاق، لاتوجد عوائل غير شرعيه، وبسبب وجود الطلاق أيضاً، فلا وجود للعائلة المعدومة! كما لا وجود للعائلة الملتئمة بالاكراه خوفاً من الشرع والقانون.

يريد طفل ما ان يخرج من الغرفة، فتمنعهُ كثير من الأشياء كالقدور الساخنه والاشياء الثقيلة، يغمض عينيه ويمر! متصوراً ان الموانع قد أختفت.

والمثالي هو الشخص الذي لايرى الواقع، لايريد أن يراه، يغمض عينيه عما لا يجب ان يوجد ولايريد ان يوجد، وبما انه لايراه فهو يتصور ان لا وجود له. الواقعيون هم عكس المثاليين، يقبلون بكل شيء وان كان سيئاً، بحجة انه واقع موجود فقط فيتعلقون ويؤمنون به، وعلى العكس يطردون كل جمال وفضيله وصدق وصلاح، بحجة انه لايوافق الواقع الموجود فقط ويكفرون به ويتركونه بحجة انه شيء مثالي.

أحد طلابي، كان من أشباه المثقفين المنتشرين في البلد، ولم يكن يفقه شيئاً مما كنت اقوله، إلاّ انه كان يميل الى المادية الجدلية (الديالكتيكية) و بما انني متدين ومعتقد بالاسلام. فقد كان يرفض

كل ما أقوله بناء على هذا القرار الذي اتخذه مع نفسه، حتى اذا كان الشيء قاعدة أقتبستها عن الماركسية ويتعين عليه تبعاً لميوله أن يقبلها، ولكن، بما أنَّني أنا الذي قلتها ولم اذكر «الاستاذ»! الذي تعود إليه، فقد كان يرفضها.

في أحد الأيام كنت أتحدث عن جرائم بني أميه، والفوارق الطبقية والدكتاتوريه السياسيه وتحريف الدين من أجل تبرير الوضع القائم وجعل الناس يعتقدون «بالجبر الألهي» وان كل شيء حدث، بما في ذلك حكومة بني أميه، كان بارادة اللّه وحكمه وقضائه وقدره... كان البحث عمن قاوموا هذا الوضع.

فجأة لاحظت انه أنزعج، فأنا أهاجم بني أميه، وأمدح عليّاً وفاطمة وأباذر وحجراً والحسين ـ باعتبارهم قادة هذه الحركة المطالبة بالعدالة والحرية الأنسانية والنضال ضد التمييز والظلم والجهل ـ وبطريقه علميه وبناء على ضوابط وأسس علم الاجتماع أما هو الذي يعتبر نفسه مثقفاً من الدرجه الأولى، ماذا سيفعل؟ كيف يرفض كلامي؟ كيف يقبلني أنا؟ وجدته يعثر على حل علمي أيديولوجي! هتف: استاذ «كان الجبر، جبر التأريخ» اي ان المجتمع كان لابد ان يصل الى هذا العهد، بعد طيّ مراحله التاريخيه حسب فلسفة التاريخ عند ماركس، ولقد كان هذا واقعاً عينياً تاريخياً، ولم يكن علي والحسين وابوذر إلاّ مثاليين وقفوا خلاف جهة جبر التأريخ!

أجبت: ما شاء اللّه على مثقفنا! أترى كم هي صحيحة قاعدتي الدائمية حيث أقول «عندما يكون مستوى تفكير المجتمع متدنياً،

فلا فرق عندئذٍ بين المتدين وغير المتدين، المثقف والرجعي، العالِم والجاهل»:

فالمتدين، يعتقد بالقضاء والقدر، باعتباره جبراً الهياً بلافهم ولا وعي، فكل ما يحدث هو بمشيئة الباري ومرضاته!

والماركسي، يعتقد بجبر التاريخ، وان كل مايحدث هو معلول العلل العلمية والعوامل المنطقية للبيئة، وخارجة عن إرادة الأنسان، ويجب قبول كل ماهو موجود لانه واقع!.

العجب هو ان بني أميه هم الذين طرحوا فكرة «الجبر» في الأسلام[1] لأول مرة لتبرير أعمالهم ووجودهم، والآن يأتي شبه المثقف هذا، فيبرر، ماكان يقوله بنو أميه بأسم العلم.

قلت: كلا يا عزيزي، «هذا جبر السيف، لا جبر التأريخ»!

كثير من «أنصاف المثقفين» هؤلاء تشابهت عليهم «القوة» و «الجبر»[2] نرى ان الواقعيين، يعتبرون ما هو «موجود» هو ما «يجب ان يكون» لأن، «ما يجب ان يكون» ليس إلاّ تعبيراً مثالياً وموهوماً!

هل سمعتم باستدلال النواب الانجليز في الدفاع عن مشروع «اللواط» إذ قالوا: هذا «واقع عيني»، موجود في مجتمعنا، إذن يجب

---

(١) حيث أمروا ان يقال على المنابر: «نؤمن بالقدر» خيره وشره! وأستقرت هذه الفكرة حتى في اذهان اعداء بني أميه.

(٢) لقد استخدمنا كلمة «جبر» «خطأ» لترجمة مصطلح Determinisme. وهو خطأ فكري، ولغوي. إني أقترح كلمة «التقدير» ترجمة له.

آن يصبح قانونياً! ومخالفة هذا «الواقع» نوع من الخيالية المثالية!

وهل رأيتم السياسيين وأشباه المثقفين في استدلالهم هذا: «إسرائيل واقع، موجود، وعودة الشعب الفلسطيني المشرد الى فلسطين ـ الواقعة بيد الاسرائليين ـ مطالب مثالية، لابد من قبول هذا «الواقع»، وليكن إغتصاباً، عملاً لا إنسانياً، جريمةً، ولكنه موجود، إذن نقبله ونعترف به رسمياً..!

انظروا إلى مجلة «هذا الأسبوع» التي توزع للجيل الشاب هذه الأيام مقالاتها، ترجماتها، وأخبارها وصورها، كلها تحكي، بدون أي نقصٍ وتقصير، حكاية مفصلة ومجسمة ثلاثة نماذج، بأسماء مختلفة وعناوين مختلفة، يذهبون إلى بيوت الدعارة، ومن هناك، يشرحون «فضائحهم» لجيلنا الشاب، نقطةً، نقطة، بالصور، والتفاصيل الوثائقية والواقعية.

هذه كلها وقائع! الاستعمار أيضاً واقع و الظلم والاستغلال الطبقي واقع أيضاً. فالواقعي اذن في نظر هؤلاء، هو شخصٌ متنور، غير متعصب، يحكم على الأمور، بناءً على الشيء الذي له عينية خارجية، وما هو واقع علمي وحسي، ولايعاني من الخيال والمثالية والمسائل الذهنية غير الواقعية!

ونرى أن المثالي، مفكر مصلح، أو مجموعة حزبية، أو مجتمع مترقي ثوري. يحلم بغايات رفيعة مثالية، ومثاليات ذهبية، وقيمٍ مقدسة واصلاحات واحتياجات متعالية، ولكنه يراها كلها «غير ممكنة»، وفي نفس الوقت، يغض النظر عن الواقع السيء

الذي هو وليد الحتم، أو هو يرفضه جهلاً لأنه يدور في ذهنه في بيئة مقدسة من خيال، فلا يشعر بأنه ليس في تلك البيئة، بل فيما هو منظور ومحسوس وموجود. على حين ان «الواقعي» يقتل في الإنسان روح التحليق والتصعيد والمحاولة والتمني والتكامل ويحدده فيما هو كائن، فيقضي في الإنسان على الإبداع والتمرد والتفكير والتغيير ومعاكسة حتم التاريخ.

لا المثالية ولا الواقعية، بل كلاهما!

أما الاسلام، «مصباح الطريق» الذي هو «لاشرقيٌ ولا غربيٌ»[1]، هذه الكلمة الطاهرة كالشجرة الطيبة أصلها في «الأرض» وفرعها في «السماء»[2]، فهو يرى الواقع الموجود في الحياة، في الروح والجسد، في العلاقات الاجتماعية، في بناء المجتمع وحركة التاريخ - خلافاً للمثالية -، وكالواقعية، يعترف بوجود هذه الأمور ولكنه - خلافاً للواقعية - لا «يرضخ لها» بل «يغيرها» يبدّل «ما هيتها» بأسلوب ثوري، ويقودها في مسير مثالياته ومن أجل الحصول على أهدافه المثالية، «يتوسل» بغاياته «الحقيقية» لكن غير «الواقعية»، فلا يستسلم لها كالواقعي بل يخضعها له، ولا يفر منها كالمثالي، بل يذهب نحوها ويشد بحبله على رقبتها، ويطوعها، وهكذا يجعل مما كان «حاجزاً» للمثالي، «مركباً» مثالياً له.

وهنا أورد نفس المثال السابق، زواج «الكونكو بيناج» - والذي يعتبر في أوربا زواجاً لا شرعياً ولاقا نونياً، مرفوضاً ونجساً، ولكنه مع ذلك موجود في كل أنحاء أوربا وأمريكا وفي البلدان بل حتى المجموعات المتدينة أيضا -

هذا الأمر نرى ان الاسلام قبله، اعترف به وعالجه بتشريع الطلاق

---

(١) إشارة إلى الآية ٣٥ من سورة النور «يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لاشرقية، ولاغربية».

(٢) إشارة إلى الآية «كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء».

وتجـويز الزواج الجـديد وكــذلـك الزواج المؤقت كل ذلـك في الموارد الاستثنائيـة[1] للحيـاة الفـردية والوضع الاجتمـاعي غيـر الطبيـعي. ولو كان قد رفـضه فانه سيحدث، ولكن خـارجاً عن ارادته وسيطرته. أما الآن، وبقبـوله اياه باعتباره واقعـاً لايجتنب، يجعل منه أمراً شـرعياً وقـانونيـاً، وبالتـالي، يستـطيع السيطره عليـه ويطبق شكله مع المبـادئ الحقـوقيـة والأخلاقيـة، يقيـد الطرفين، ويجري القـوانين على كليهـما، فينقذ هما من الشعـور بالخطيئة والمنبوذية في عين اللّه والناس، ويحفظ علاقتهما ضمن أُطر أخلاقـية ودينية، فيهئ لذلك الجو السالم والنظيف والطبيعي لتربية أبنائهما، وكذلك يجبر المجتمع على ألا ينظر إليهم على أساس أنهم أولاد زنا وخطيئة.

يحـصل الاسـلام عـلى كل هذا النجـاح باعـتـرافـه بهـذا «الواقع الاجتـمـاعي والانسـاني» وبـالتـالي، يسـتطيع السـيطـرة على نتـائجـه وعـواقـبـه، يعطيـه شكلاً قـانونيـاً، يصلحـه، ويهـبـه وجـهـةً مـشـروعـة وأخـلاقـيـة، لهـذا كــان الاعـتـراف بالواقع الموجـود، يعطـينا القـدرة، للسـيطرة عليـه، وتوجيـهـه، واذا أنكرناه تسلط هو علينا وجـرّنا خلفـه بدون ارادتنا، أينما شاء.

وهكذا نرى الواقعيين الغارقين في الواقعـية الموجودة، سواء كانت سيئة أو حسنة، وكذلك المثاليين الذين يهربون من الواقع، نراهم جميعاً هم ضحايا وأسرى السيئات والوضع السئ الوخيم، وبالأخص المثاليين

---

(١) لم يشرع الزواج الثاني والزواج المؤقت في الموارد الاستثنائية فقط(المترجمة).

الذين لايفكرون إلا بالصالح المطلق والصحيح المطلق فهم أكثر من غيرهم يبتلون بهذا الوضع، فالواقعي يعرف الواقع ويتعايش معه، أما المثالي، فهو لا يعرفه ولايراه، وينكره بجهل وخيالية، فيركع أمام هجومه، ضعيفاً، مستكيناً، جاهلاً، فيهلك.

ألسنا نرى الفتيات اللاتي تربين في عوائل محافظة جداً، واللاتي لم يكن يجتزن عتبة بيوتهن، كيف يغرقن في بحر الإنحلال الخلقي حين يفتح لهن الباب فجأةً؟ وكيف يشرعن، للتعويض عن الحرمان الذي سبب لهن هذه العقد، بانحرافات خلقية متأخرة رهيبة وهكذا شأن أبناء عوائل الزهد والتقوى، الذين يفرطون في التحرر أو التحلل! وكذلك شأن المتحضرين حديثاً، الذين ارتموا فجأةً من دنياهم المثالية شبه الدينية التي كانوا يتحدثون فيها عن حرمة الفيزياء والكيمياء والدراسات الطبيعية والجامعة وثقافة المرأة وتقصير اللحية، والجلوس في سيارات الأجرة بدل العربة ذات الحصان، والتوسل بالدواء، بدل الدعاء والاستفادة من ربطات العنق، وإطالة الشعر وتغيير الملابس والزينة و شراء المذياع وحتى إذاعة كلام من المذياع، ارتموا فجأة إلى دنيا الواقع الجديد، وأثاروا الضجة حولهم، فأفرطوا في الاستهلاك وامعنوا في التكلف في الحديث والتأنق، حتى انهم أثاروا سخرية الغربيين أنفسهم، لماذا؟ لأنهم يعرفون هذا الواقع وهو طبيعي بالنسبة لهم، ونحن الذين أنكرناه بجهل، ووقفنا بوجهه بسذاجة الآن، وقد سقطنا في مجراه لا إرادياً، لانعرف ماذا نفعل، فلا نحن بقادرين علي تمييز سيئه من حسنه، معرفته، ولا نحن هيأنا أنفسنا لهذه «المواجهة»،

وبما أننا لا نستطيع اختيار الواقع فان الواقع سيختارنا هو بدوره، وهذا ما نراه يحدث.

الحضارة الحديثة، هجمت على كل الحدود، والأبراج، وهدمتها كلها. القرون الحديثة، تيار «الرنسانس» المسرع وحركة الثقافة، والثورة الفرنسية الكبرى والحياة الصناعية كلها، حدثت مسرعة متتالية، بدلت جو العالم، وكان تبديل جونا، شيئاً إجبارياً، و واقعاً حتمياً. وكان من المسلم به مجيئ الكهرباء والسيارة والطباعة والجامعة و «الديمقراطية»!، المذياع، والتلفاز، والسينما، والجريدة، والمدرسة والدراسة، وفي الغرب، التقنية الجديدة، والعلوم الحديثة، والدراسة، والعمل، والحرية، والحقوق الاجتماعية، وادعاء المساواة مع المرأة، وتمرد الشباب وانهيار الحدود القومية والقلاع الاجتماعية المغلقة، ودخول السيارات والبنوك، والدوائر الحكومية، وهجوم الرأسمالية، والدراسة الحديثة، وتراجع التقاليد وتزلزل الطبقات والمجاميع والفئات والقيم والأخلاق الاجتماعية القديمة، وإيجاد وتوسيع طبقة البروجوازية الجديدة ونظام الانتاج والتوزيع والاستهلاك الجديد وظهور احتياجات وظواهر وقضايا و«وقائع مستحدثة»، وهجوم الأفكار والعقائد والمذاهب الغربية على الثقافة والدين الإسلامي، والأخطار الجديدة والمواجهات الشديدة وكثير من «الأشياء السيئة والحسنة» الأخرى.

إن قادة الشعوب، أي حرّاس اخلاق المجتمعات والمسؤولين عن توجيه أفكارها، أغمضوا أعينهم عن هذه الوقائع التي لا يمكن اجتنابها، و بقيت قلوبهم معلقة بمثالياتهم الذهنية و ذهنياتهم القديمة،

و حاولوا أن يحتفظوا بالعربة رغم مجى السيارة، ويبقوا السراج مشتعلاً إلى جانب الكهرباء، وما هي حجتهم في ذلك؟ هي أن كل تلك الأشياء منسوبة للكفار وان هذه الأخرى منسوبة للقدماء. «قل وصل بك الأمر للاستهزاء بالسراج؟ إن على ضوء هذه القناديل بدخانها المتصاعد درس أمثال الطوسي والكليني والعلامة المجلسي...!

ولكن ماهي القوة ماهي الوسيلة والخطة لسد الطريق على هذا الهجوم الكاسح وايقاف حركة هذا الزمن المسرع؟ انها إغماض العيون و إدارة الظهور، ومعها السب واللعن والتأوه و«الندب»!

تسير «السيارة» مسرعة على طريق منحدر بلا موانع، من قمة حضارة الغرب وقدراته، و «بسرعة الكهرباء» تتجه نحونا نحن ـ الذين نجلس أو ننام في عمق وادي القرون الوسطى والتخلف ـ ويستمر حراسنا ومسؤولونا بهدهدتنا، أوينهض أولئك الذين أحسوا بالخطر للمواجهة، فيعودون إلى الخلف سائقين مجتمعنا تحت هذا الشعار «اتجهوا نحو الدين» و هكذا ساقوا إسلام شعبنا باتجاه مخالف معاكس، ووقفوا في طريق هذه السيارة مديرين ظهورهم، متوهمين أنهم بذلك يبتعدون عن الخطر، وهكذا، رأيناها كيف تصل وتدهس حياة الناس وإيمان الناس والسيارة التي إمتنعنا عن ركوبها بسذاجة ركبتنا هي بمهارة، ولأننا لم نشأ في هذا العصر، وإزاء هذا الخطر الداهم، أن نترك ركوب الحمار دهسونا، نحن وحمارنا، تحت «عجلات» السيارة وعصر السيارة،وتحت قبضات وأنياب صاحب السيارة، فجعلوا منا لقمة سائغة، يسهل بلعها وهضمها!

لقد كانوا يعلمون ويعرفون هذه الحقيقة جيداً، وهي أن هذا «الواقع» وهجوم هذه «الحوادث الجديدة» على حياتنا وثقافتنا ستدمر كثيراً من أصالتنا، قيمنا، مبانينا الأخلاقية و العقائدية، إيماننا، تقوانا، وسلامة روحنا واستقلالنا الفكري والثقافي، وبالتالي، الانساني، وسوف يقيم التلوث داخل عظامنا

وأما الذي فعلوه أمام هذا الجبر القوي والفوري، الذي يفرض قضاياه وعلاقاته وأنظمته واحتياجاته وعوامله، ويحتوي حتى أقصى وأبعد وأكثر المجتمعات العشائرية تخلفاً في أعماق الصحراء، فلم يكن إلاّ أنهم ظلوا يرددون:

«حرام»!

المذياع لاتشتروه!، الفيلم لاتشاهدوه!، التلفاز لاتنظروا إليه!، مكبرة الصوت لاتستمعوا إليها!، الجامعة لاتلتحقوا بها!، العلوم الحديثة لاتقرؤوها!، الصحيفة لاتشتروها !، العمل في الدوائر الحكومية لاتقوموا به! و...

المرأة صه! لاتذكروا إسمها!

ووقفوا أمام السيل الجارف للصناعة وتغيير نظام العالم، والرأسمالية الممتدة النشطة التي «تبيع الثلاجة للاسكيمو»!، كي يواجهوه ويمنعوه من التقدم، ويدافعوا عن «الوضع السابق» ولم يكن سلاحهم من أجل صد هجوم الغرب إلاّ كلمتين هما:

الأولى: «حرام»!

الثانية: «كلا»!

ماذا كانت النتيجة؟ حدث مانراه، كسرت الأحداث الحدود، فانهارت الأبراج والقلاع، ودمرت الحصون الحربية على محاربيها الذين قاطعوا العدو بدل «محاربته»!، وخلطت كل شئ ببعض، وهجمت على بيوتنا ومدننا وقرانا، ومساجدنا ومزارعنا وغزتنا قطعان الثعالب الماكرة، والذئاب المفترسة ونابشي القبور، والكلاب المسعورة، التي كسرت قيودها، والفئران السارقه التي تعبد المال، فتنقب آلاف الحفر تحت بيوتنا ومخازننا، «جاءوا وقتلوا وحرقوا، ونهبوا، ولكن، و خلافاً لما قاله ذلك الرجل البخاري حول جنود چنگيز، لم يذهبوا»!

لماذا؟ لأن أحداً لم ير تلك الوقائع! كرهها حراس حدودنا وجنود أبراجنا، إلى درجة لم ينظروا إليها، لم يشاؤوا أن يذهبوا فيصلحوها ويصنعوا منها ما يلائم جو بلادنا واهل بلادنا، ويجعلوها وسيلةً لهم يسيطرون عليها ويركبونها، بل وقفوا أمام مسيرها، وسط الطريق، فدهسوا وشلّت حركتهم.

ولهذا، يصرخ الشخص منا، إذا أرادت امرأته المحجبة أن تنجب طفلاً: «لماذا الأطباء الرجال؟»، «لماذا لاتكون المرأة هي طبيبة نساء»؟.

وإذا أراد إرسال إبنه إلى المدرسة والجامعة، يرتفع صوته بالاعتراض قائلاً:

«فهل هذا درس أدب أم قاعة موضات»؟ «هل هذه جامعة في مجتمع إسلامي»؟ «هذه المدرسة لا تحمل أية رائحة للاسلام والأخلاق والقيم» «وهل هذا مذياع في مجتمع إسلامي أم صندوق أغانٍ»؟ «هذا التلفاز»! «هذه البنوك المرابية القانونية»! «هذه الترجمات»!

«وما هذه الأفلام»؟ «ماهذه المسرحيات»؟ «ما هذا الفن»؟ «ما هذه الصناعة»؟ « وما هذه الحضاره»...؟

ولابد من القول لهذا المعترض المطالب ـ بالرغم من أحقّية مطالبه ـ انه ليس لنا الحق في الاعتراض، والسبب هو، انه عندما جاءت هذه الوقائع وأقامت بيننا، وبدأت العمل، غبت أنت عن الأنظار، هربت، وعندما غضبت أنت يا رجل التقوى والدين والأخلاق والاسلام، أيها المشفق على الناس، والموجّه لأفكارهم، والمدافع عن ثقافة الاسلام وحاميها، وانزويت فمن الطبيعي عندئذٍ أن تأتي الحضارة والصناعة والعلم الحديث «بميرزا ملكم خان»، وتستخدمه للعمل في المجتمع. العالِم الإسلامي المسؤول الذي يخرج من ساحة «الزمن والحياة» زاحفاً نحو ركن قصي، ويترك الناس في ساحة الابتلاء لوحدهم وفي ايدي المتلاعبين بايمانهم ومصيرهم وتحت أسر الحياة وضغوط استحقاقاتها، ثم يتجه نحو ركن عزلته وعبادته الهادئ ظاناً أنه سيذهب إلى الجنة وحده، بعد أن يضمن إسمه وجاهه في هذه الدنيا ونجاته وفلاحه في الآخرة، واضح أن هذا العالم الاسلامي المسؤول سيخلي مكانه «للعاقل العميل للاستعمار». وعندها، سيصنع هذا كل شئ وفقاً لمراده، مفيداً له، أو غير مضر بمصالحه على الأقل. ولهذا، فعندما يغيب نواب الامام كما غاب الإمام، ويعهدون بمسؤولياتهم الأساسية من القيادة والإرشاد والجهاد والدفاع عن كرامة الناس وايمانهم لصغار ممثليهم، وفي اللحظات التي يتعين فيها مصيرنا وايماننا وديننا وامور دنيانا، فإن أحداً غير عملاء

الغرب، والمخادعين الذين يظهرون كل يوم بأفكار مضلة، لن يستلم «ساحة الإصلاح الديني» و «حركة الحداثة والتطور»!

نرى أننا، في الوقت الذي كان الاسلام يواجه الغرب والاستعمار الغربي لم نكن موجودين في الساحة، وفي الوقت الذي كان عملاء الغرب من المتصدين للسياسة وقضايا الحكم يحصلون على أكبر المكاسب والامتيازات في فنّ صناعة الأديان المبتدعة، التغرب، والتلاعب بالسياسة، تركنا نحن السيد جمال الدين والناس وحدهم، وشللنا حركته تحت وابل الافتراء والتكفير والتفسيق والاتهام بالبابية، والتشبه بالإفرنج والمادية وخدمة الكنيسة والبلشفية، وسلمناه بيد الاستعمار الحاقد وعملائه كي ينتقموا منه لدوره في إيقاظ المسلمين وإحياء الإسلام وشعار القرآن، ويجعلوا من مصيره عبرة للآخرين!

إننا بحاجة إلي مساعٍ حثيثة، عميقة، وكبيرة، من أجل التدخل المؤثر في ما يحدث، ومن أجل توجيه حركة المجتمع الجبرية، فالخطر عميق، مدمر، والمسؤولية ثقيلة، خطرة، وتتطلب التضحية والإيثار!

وهؤلاء الملقنون المخدّرون الذين يخدعون الناس بسلامة هذا المريض الهالك ويدعونهم لحفظ ماهو زائل، ولا يتحدثون عن الأخطار المحدقة ومعهم اؤلئك الذين يدعون الناس لقبول ماهو غيرمقبول، هؤلاء هم الذين يبقون المجتمع في حالة الركود والجمود والسكون والضعف والتسليم.

إن الذين ينشدون «مجتمعاً حيّاً ومتحركاً» و يطلبون «سعادة الإنسان.. لاهم أهل لأن يخدعوا الناس بالدفاع عن ماهو

ليس بقابل للـدفاع، ولا هم يمتلكون ميـزة (العصرية). فـيصبـحون من «الرجال العـصريين» و بتـشبثـون «بمكان ما» فيـعرفون الـوقائع ـ السيـئة والحـسنة ـ كـمـا هي مـوجـودة في المجتـمع، ويعتـرفـون بهـا ومـتى ثمّ يشخصون العلاج، ويستفيدون من كل طاقاتهم لمعالجتها.

هؤلاء هم الذين يعـرفون أن الـزمن يتحـرك، ويعـون أن مجـتمـعنا التقليدي ينزع جلده، ويشعرون بأن القدرات الكبرى تقصدنا من أجل تبديلـنا ومسخنا والمشـكلة تكمن في أنهم ليسـوا «عديمي الإحـساسى» كي يكتفوا بالتفرج، ولا «عديمي الحياء» إلى الدرجة التي يصبحون فيها أدوات بأيدي كل جهـاز ونظام ولا «لا أباليين» إلى الدرجة التي، يرون فيها السيل يهاجم المدينة، فيهربون إلى بيوتهم ويغلقون الأبواب عليهم وعلى أطفالهم، كي يأمنوا شره! فينجون بأنفسهم، و هم يعلمون جيداً أن اليـوم، لم يعد، كـالأمس، والعـائلة، ليست قلـعة مـغلقة، فـاذا أنت سجنت ابنتك في الحـجرة الخلفية ستـستطيع الإذاعـة والتلفزيون المحلي وغير المحلي من الدخول إليها! والتغلغل في وجودها.

قالبان لصياغة الإنسان

هنالك واقعـان في مجتـمعنا، أحدهمـا: الصنف الذي يريد فرض التـقـاليد الـقديمة الموجـودة باسم الديـن بتعـصب وتزمت، رغـمـاً عن الزمن، ومع أنه يعلم انه لايستطيع ذلك يصـر على بقائهـا والاحتـفاظ بها وفرضها على الجيل الشاب.

والآخـر الـصنف الذي، لايـلعب أي دور ازاء تحــول المجـتـــمع

والتبدلات الجارية فيه، كي لا يَتهم بالرجعية إذا تدخل، أو أمر ونهى أو راقب، أويتهم بالبلاهة، والتخلف والتدين! فألابن يتصرف والوالدان يهيئان له الإمكانات والفرص كي يحضيا بلقب الأب والأم المثقفين، ولكن صمتهما وتسليمهما هذا ليس نابعاً عن ثقافتهما ولا عن عقائدهما وآرائهما الخاصة، بل هو نابع عن عجزٍ وضعف ازاء مايقع فهما يعلمان جيداً أنهما إذا تدخلا، فسيفقدان حتى هذه الحرمة الظاهرية الخادعة! هذان قالبان، قالبان من أجل صناعة الإنسان «المصبوب» أحدهما ناشئ من «حدائق إصفهان الأربعة»[١] فاسد، سئ التركيب، اعوج، غير مفيد ونخر، والآخر قالب «الأفران الغربية» الأملس، الرقيق، الناعم، الزائل والخاوي.

هذان صنفان، طريقان، كلاهما خطأً وضلال، لأن دور كلٍّ منهما على أرض الواقع، هو أنه في وقت الطوفان يقف أحدهما وسط الطريق ويحاول أن يوقف اندفاع الماء بيده، فيسب ويشتم ويصرخ ويلعن ويبكي وينوح، وأخر يبقى على جانب الطريق، ممدداً كجثة هامدة، لاحراك يبدر منه سوى التفرج، وسوى الرضوخ لإبنه وإبنته اللذين ينتظران منه المال الذي يجمعه بالخداع والكذب والتزوير، والتوسل بهذا وذاك، كي يفرغاه بعد ذلك، بدلال وبذخ وترف، في جيوب أصحاب الشركات الغربية.

وجود هذين الصنفين ـ سواء ذلك الذي يريد الوقوف بوجه

---

(١) يقصد الانسان التقليدي المحافظ والقديم. المترجمة.

الطوفان والسب والشتم واللعن، أو ذلك الذي سقط على شاطئ السيل منهكاً ـ كلاهما يعطي نتيجة واحدة. فحركة السيل المدمرة، تتقدم مسرعة دونما حاجة الى توجيه ايٍّ منهما أو قيادته فتوسع من مداها، وتحطم كل العمارات والمؤسسات والجدران على رأسيهما، وتدمر كل شئ وتحرقه، وتترك من المدينة مستنقعاً عفناً، مهلكاً، راضخاً لها.

لقد أصيبت المرأة في أوربا بمصير وصلنا إليه نحن بعد قرون عديده، وطبعاً بخصائص معينة، فالمرأة الأوربية التي نعرفها نحن في إيران هي ليست المرأة الموجودة في أوربا انها ليست المرأة التي نشاهدها هنا في الازقة والشوارع، بل هي التي نشاهدها هنا في التلفزيون والسينما، والمجلات النسائية، ومراكز الفاسدين «المثقفين!».

والوجه الذي نعرفه عن المرأة الأوربية، هو انتاج محلي من صنع إيران، ولاشك ان المرأة الموجودة صورتها على غلاف مجلة «إمرأة اليوم»[1] موجودة في أوربا أيضاً، ولكنها موجودة هناك في أماكن خاصة، وباسم «إمرأة الليل»، وهذه ليست هي المرأة الأوربية، كما أن «المرأة الإيرانية» ليست بعض النساء الخاصات في إيران، واللاتي يمكن تسميتهن لشدة إبتذالهن بالنساء الأمميات! هنالك صنف خاص فقط من النساء الأوربيات اللاتي يحق لنا ويتعين علينا معرفتهن، وهن اللواتي يظهرن في الأفلام والمجلات والعروض الجنسية،

---

(١) مجلة «زن روز»، الحديث هنا عن هذه المجلة يعود إلى زمن تأليف الكتاب، أما الآن، فتتمتع هذه المجلة بسمعة طيبة تحت ظل الجمهورية الاسلامية. المترجمة.

والروايات الجنسية لكتابنا يَعرفن لنا باسم «المرأة الأوربية» عامة. فليس لنا الحق في معرفة تلك الفتاة الأوربية ذات الستة عشر عاماً، التي ذهبت إلى صحراء النوبة في أفريقيا وإلى صحراء الجزائر وأستراليا وقضت كل عمرها في ذلك الجو الرهيب، المخيف، الخطر، وتحت رحمة الأمراض والأهوال والقبائل البدوية المتوحشة، وعملت ليل، نهار، في عنفوان الشباب، وتعب الشيخوخة وهي تدرس، و تتابع الأمواج التي ترسلها نملة وتستقبلها نملة أخرى، حتى انتهى عمرها في ذلك الجو، وعندها تكمل إبنتها المسيرة، وتعود هذه المرأة في سن الخمسين معبرة عن الجيل التالي لجيل أمها، فتصرح في إحدى جامعات فرنسا قائلةً:

«لقد اكتشفت طريقة تكلم النمل، وحصلت على بعض علائم التفاهم بينه».

نحن ليس لنا الحق في معرفة «مدام غواشن» التي أنهت كل عمرها في التحقيق الفلسفي حتى عثرت على جذور الأفكار والمسائل الفلسفية لإبن سينا وإبن رشد وملا صدرا والحاج هادي السبزواري في فلسفة اليونان وآثار أرسطو والآخرين وقارنتها ببعض، وكشفت عمّا أخذه حكماؤنا منهم، وصححت ما فهموه خطأً وما ترجموه خطأً، خلال ألف عام من الحضارة الإسلامية.

وليس لنا الحق في التعرف على السيدة «دولافيدا» الإيطالية والتي كان أحد أعمالها هو تصحيح واكمال كتاب نفسانيات ابن سينا بالمقارنة مع نسخة (رسالة النفس) لارسطو باللغة اليونانية القديمة...

وليس لنا الحق في معرفة «مدام كوري» كاشفة الكوانتوم والراديوم.

أو «رزاس دولاشابل» الحسناء السويدية المترفة الحرة، والتي أوقفت حياتها، أكثر من أي عالم من علماء الإسلام، وحتى مدعيّ المعارف العَلَوية، أوقفتها من بداية شبابها عل معرفة تلك الروح المجهولة في جسد الاسلام، وإكتشاف الرجل الذي أخفته أحقاد العدو وحيل المنافقين، كما أخفته مدائع المحبين، فعثرت على أصح خطوط وجه علي، ألطف اشعاعات روحه وأبعاد عاطفته وأبعد وثباته الفكرية، وأحست، لأول مرة، بآلامه ووحدته، وهزيمته، وقلقه، واحتياجاته، متعرفةً بذلك على علي المحراب والمسجد والليل وآبار المدينة، لا علي أحد وبدر وحنين فحسب، وعالجت «نهج البلاغة» ـ والذي لايعرف عنه المسلمون العرب الإ منتخباته الأدبية فقط بتصحيح محمد عبده، مفتي أهل السنة، ويعرف عنه شيعة علي «أحاديث جواد فاضل» المنسوبة لعلي، أو ترجمة فيض المنسوبة لعلي أيضاً. والتي لا يمكن قراءتها بالنسبة للقارئ الفارسي إلا بمساعدة النص العربي ـ إستطاعت هذه الفتاة(الكافرة) أن تجمع ما نُقل عن علي مبعثراً هنا وهناك فقرأته وترجمته وشرحته، وكتبت عن عليّ أجمل وأعمق ما يمكن كتابته عن شخص، وما يستطيع قلم أن يسطره في وصف أحدٍ ما. وما تزال لحد الآن، وبعد إثنين وأربيعن عاما، غارقةً في التفكير والبحث والتأمل والتحقيق حوله.

وكذلك ليس من حقنا معرفة الآنسة «ميشن» التي وجهت ضربات مؤثرة للنازيين عند إحتلالهم باريس، من خلال نشاطها في:

حركة المقاومة الفرنسية، الأمر الذي دفعهم للحكم عليها مرتين بالإعدام غيابياً، ومع أنها يهودية فقد فهمت الإنسانية والحرية إلي الحد الذي جعلها تقاتل الآن مع «الفدائيين الفلسطينين» ضد الصهيونية! كما ليس لنا الحق في التعرف علي آلاف الفتيات الباريسيات! اللاتي قاتلن ضد الإحتلال الفرنسي للجزائر برفقة المجاهدين الجزائرين، بلا عنوان، ولا إسم، وبلا توقع ثواب دنيوي أو جزاءٍ أخروي، في المنظمات السرية والمواضع الجبلية واعماق الغابات، من كبد صحراء الجزائر الحامية إلى عمق أبنيَة وملاجئ مدينة المجون واللذة باريس، وضد إرهابيين كالجنرال دوغول وسوستل وسالان وآرغو، مستقبلات بذلك أشد الآلام والتضحيات في سبيل تحرير شعب أجنبي.

وأيضاً ليس من حقنا معرفة «آنجيلا» الفتاة الأمريكية، أو الأخرى الايرلندية، اللتين توجهت إليهما أنظار شعبين، ماذا أقول؟ بل كل الشعوب الحرة في العالم، وكل البشرية الجريحة والمحكوم عليها بالتمييز العنصري والظلم والاستغلال.

فليس لنا الحق أن نعرف أن المرأة الأوربية ليست هي تلك التي يعرفنا عليها رؤساء تحرير المجلات الساقطة، دمية وألعوبة بيد أمثال «دون جوان» وعبدة للمال والزينة والجواهر، وجارية معاصرة، لاتلفت نظر الرجل ولا تفيده، إلاّ عندما تكون وسيلة لإشباع الشهوات وإرضاء الغرائز، ثم لا تكون لها قيمة بعد ذلك، إلاّ كسلعة مستهلكة يُستغنى عنها.

علينا ألا نعرف المرأة التي ارتقت وارتفعت منزلتها حتى وصلت

إلى درجة كانت فيها التجسيد النموذجي لأمتها، ومظهر نجاة وزهو لبني قومها، بل من حقنا فقط أن نعرف «مدام توئيغي» بإعتبارها آخر نموذج للمرأة الأوربية المتحضرة، ملكة جمال العالم لعام ١٩٧١، وإلى جانبها، وتحت عنوان أبرز إمرأة أوربية، علينا أن نعرف جاكلين أو ناسيس ـ التي تحصل على كل شئ بالمال ـ و «ب، ب»؛ وملكة موناكو، والنساء المسلحات بالمسدسات واللاتي يُحطن بجيمس باندرا، أي علينا أن نتعرف على ضحايا وسائل الإنتاج الأوربي، هذه الدمى والعرائس المسيرة للرأسمالية وجواري الحضارة الجديدة، أولئك النساء اللاتي تمحورت كل فضائلهن الإنسانية وقيمهن الاجتماعية في ملابسهن وأعضائهن التناسلية!

هذه هي المرأة التي من حقنا ـ نحن الايرانيين ـ التعرف عليها باعتبارها المرأة الأوربية المتحضرة فإنني لم أشاهد، ولا مرة واحدة في عمري، صورة عن طالبات جامعة كمبريدج، أو السوربون، أو هارفارد، يبينون فيها كيف تذهب الفتيات هناك وكيف يعدن، كيف ينكببن على النسخ القديمة في المكتبات العائدة إلى القرون الرابع عشر والخامس عشر الميلادية في أوربا، والألواح التي عثر عليها في الصين والتي ترجع إلى ٢٥٠٠ سنة مضت، أو على نسخة من القرآن، أو نسخ من المخطوطات اللاتينية واليونانية والمسمارية والسنسكريتية من الصباح حتى المساء دونما حراك ودون أن تتجه أنظارهن إلى هنا وهناك، واللاتي يعرّفهن ـ الإستحمار المعاصر ـ لنا على أساس أنهن فتيات المكالمات الهاتفية والغواني الرخصية، اللواتي يمكن صيدهن

«بغمزة عينٍ واحدة» أو «قهوة على الرصيف»، كي يخدعوا فتياتنا بأن «المرأة المعاصرة» و «الفتاة المثقفة اللائقة» هي هذه، وغير هذا، ليس الاّ تزمتاً وحماقةً ومظهراً للتخلف وثقافة القرون الوسطى...

أما أولئك الفتيات اللاتي يتصرفن، في صفوف الدراسة والمكتبات و المتاحف و المجامع التحقيقية و المختبرات، كالأساتذة و المحققين و المستشرقين الطاعنين في السن الذين لا يهوون سوى العلم، فيقتلون كل هوى ورغبة دنيوية أخرى من أجل عملهم وعلمهم... هؤلاء لا يحق لنا التعرف عليهن!.

ولكن الإستحمار المعاصر، والذي يعبّد الطريق للاستعمار المعاصر ـ كما كان الإستحمار القديم يعبد الطريق للاستعمار القديم بمحاولته إبقاء المرأة في الجهل التقليدي والانحطاط الإجتماعي لصالح الإستعمار القديم ـ لا يتحدث عن هذه المرأة لأن الاستعمار لايرغب أبداً أن تفكر فتاتنا وتعمل بطريقة أوربية.

لا يرغب أن تكون فتاتنا مفكرة وحرة ومنتجة. فهو يسعى أن يصنع من الفتيات صنفاً يسمى «فتاة البار» كي تستطيع أن تلعب له دورين استعماريين كبيرين في المجتمعات المحافظة والتقليدية.

أحدهما، أن توجه أنظار وعواطف ورغبات الجيل الشاب من الأعضاء العلوية ـ الأذن والعين والرأس والقلب ـ إلى الأعضاء السفلية، ويطرح الحرية الجنسية بصورة يفتت بها كل «الروابط الثقافية» ـ أي سر وجودنا والقوام الوطني والديني لنا وأصالة شخصيتنا التاريخية ـ، ويعطل بها كل رغبات الجيل الشاب وإنفعالاته الاساسية في

المجتمعات الآسيوية ـ الأفريقية، ومن بينها الاسلامية، والدور الثاني، هو أن تصبح هي ـ فتاة البار ـ أحرص المستهلكين وأقوى المحرضين والمروجين للاستهلاك في مجتمعاتنا.

ومن أجل هذه الغاية، لابد، لفتيات العالم الثالث، أن يفهمن الحضارة، على أنها التجدد، وتلتبس عليهن «المرأة المعاصرة» «بفتاة البار».

أجل، فنساؤنا يجب ألا يعرفن هؤلاء النسوة، لأنه ليس من حقهن، إعتبار «السيدة ميشن» أو «دولافيدا» هي «المرأة المعاصرة» أو «المرأة الأوربية المتحضرة» وتقليدها. فليس أمامهن إلاّ اختياران. أما أن يبقين ضحايا الإستعمار القديم، أو يصبحن ضحايا الإستعمار الجديد.

الدين؟ «إمرأة المائدة»!

الحضارة؟ «إمرأة البار»! ولاشئ آخر.

تكاتف الرجعية والإستعمار

ها نحن نري كيف إلتقت اليد المكشوفة «للتقليدي الأحمق» باليد الخفية (وفي نفس الوقت البيّنة) [1] «للمتجدد المتحضر» وتعاونتا على تدمير كل شئ في حياتنا كي يخلقا منا مستهلكين مطيعين، وعبيداً هادئين، ومن فتياتنا «نماذج لعرض الملابس في واجهات المحلات»، لافتاة شرقية ولاغربية، بل «دمية إفرنجية» خاوية، محسّنة، لا عاطفة إمرأة الأمس عندها ولا إحساس إمرأة اليوم، مجرد ألعوبة

(١) تماماً كالشيطان الذي هو «عدو مبين» في نفس الوقت الذي يكون فيه خفياً.

مسيرة، لاهي «حواء» ولا «آدم»! لاهي «زوجة» ولا «حبيبة» «لا ربّة بيت» ولاإمرأة عاملة، ولا إحساس بالمسؤولية لديها، لاإزاء الطفل، ولا المجتمع، وكلها لا، لا، لا. نعامة، لاتحمل الأثقال لأنها طائر، ولاتطير لأن حجمها كبير كالمواشي!

إنّها «صناعة محلية» بماركة «صنع في أوربا» مغشوشة، بضائع إفرنجية الغاية، خاصة للاستهلاك في الأسواق الشرقية والاسلامية، **أوصوا بها**: فصنعوها وصبوا قوالبها، يعطي الإستحمار القديم موادها الأولية، ويصنع منها الإستحمار الجديد، في أفران حرق الانسان والتلوين وأجهزة غسل الدماغ والمسخ الثقافي والتفريغ المعنوي مستفيداً لذلك من الحوامض والإكسيرات الكمياوية، يصنع منها، «جارية معاصرة»، من أجل «ليالي الجنس» و «تمثالاً مزيناً لعروض الأزياء» من أجل واجهات عرض الاستهلاك.

يتعاون التقليدي الأحمق والرأسمالي المجدد معاً عملياً، كي يوجدا صنفاً جديداً كهذا، أحدهما بإسم «الأخلاق والدين» والآخر بإسم «الحرية والتطور»!

الحمقى التقليديون يسوقون المرأة بسوط التعصب والتحجر والرجعية، ويتركونها بلا ماء ولا غذاء، ويتصرفون معها بوحشية، كي تفلت من أيديهم وترتمي في الحضن الناعم المدلل لأولئك المتغربين الحليقي الذقون الذين يفتحون أحضانهم لها برحابة، ويتحدثون معها بتأدب ويرفعون قبعاتهم إحتراماً لها، ويتسمون لها ابتسامة عذبة ساحرة!

وهذه المرآة الأوربيـة التي نراها ونعـرفهـا ـ إمرآة العـصر الحـديث ـ هي وليدة نطفة علقت منْ «القـرون الوسطى»، وهي ليست إلاّ رد فعل على كل الخشـونة والعنف الرجعي للقسـاوسة الذين أذلوا المرأة وأهانوا كرامتها في عـصر إقتدار المسيحية والكنيسـة واعتبروها منبوذة الربّ و رمـزاً للخطيـئـة والسبب الاسـاسي والمجـرم الاصلي في خـروج آدم من الجنة، وسلبوا منهـا حقها الطبيـعي في الإستقلال الإقتـصادي والحرية، وحق تملك أموالها، و أطفالها، وحتى حقّ إمتلاكها للَقب!

سُئل قـسـيس في القـرون الوسطـى، «هل يستطيع رجـلٌ غـريب أن يدخل إلى بـيت فـيـه إمـرأة»؟ أجـاب: «أبداً! أبداً! فـاذا دخل هذا الرجل إلى البيت، حتى إذا لم ير المرأة، فقد ارتكب خطيئة». يعني هذا أنه إذا دخل رجلٌ غـريب إلى الطابـق الثـاني من بيتٍ تسكن في قـبـوه إمرأة فقد إرتكب إثماً وخطيئة، كما لو أن الخطيئة تنتشر في الجو لمجرد وجود المرأة.

يقول «سن توماس داكن»: إذا رأى اللّه حبً إمرأة يتلألأ في وجه رجل ـ و إن كـانت المرأة زوجـتـه ـ فـسـوف يغـضب، إذ لا يجب أن يدخل إلى قلبه حبٌ، غير حب اللّه، لقد عاش المسيح بدون زوجة، و من يمكنه أن يصبح مـسيحيـاً حقيـقـياً هو ذلك الذي لا يـقتـرب من المرأة. لهـذا لايتـزوج الأخـوة المسـيحـيـون و الآباء الروحـانيـون ـ و الأخـوات المْسيـحيـات ـ حتى نهـاية أعمـارهم. لأن الزواج علاقـة تغضب الرب، و يجب أن تكون للمسيحي الحـقيقي علاقة باللّه فقط، و بالمسيح، لأن من غير الممكن إجـتماع حبين في قلب واحد، و الذي

يستطيع آن يصبح روحانياً ـ حاملاً لروح القدس ـ ليس سوى الذين يعيش أعزباً.

في المسيحية، كانت المرأة هي الخطيئة الأولى pecheoviginale، وكلما إتجه الرجل ـ باعتباره إبناً لآدم ـ نحو المرأة وإن كانت تلك المرأة زوجته ـ كما كانت حواء زوجة آدم الشرعية ـ فقد كرر الخطيئة الأولى، واعاد إلى ذاكرة الربّ ذنب آدم ومعصيته. فالمطلوب اذاً هو ان نعمل عملاً ينسى معه الرب آدم وخطيئته!!.

إن المرأة في الفكر القروسطي منبوذة و عاجزة و محرومة من التملك. إلى درجة أنها عندما تدخل بيت زوجها بأملاكها الشخصية يسلب منها حق الملكية.

تنتقل مالكيتها تلقائياً إلى زوجها لأن المرأة لاتملك شخصية. آثار هذا الفكر لاتزال مشهودة حتى يومنا هذا في أوربا المتمدنة، وهي غير مقبولة حتى لدينا نحن الذين نعيش تحت تأثير المخلفات الساسانية والطبقية والتاريخية، والأخلاق المسيحية والزهد الديني غير الإسلامي.

حتى أن المرأة اليوم، تغير إسمها بمجرد أن تتزوج، أي أنها تفقد لقبها، وهذا التغير ليس محصوراً داخل العائلة أو عرفياً بين الناس، وإنما يثبت حتى في الوثائق الرسمية والشهادات الدراسية، ففي كل مكان يحل لقب الزوج مكان لقب الأب، وهذا يعني أن المرأة بنفسها، لاشئ، ليس لها وجود ذاتي، الاسم معنى ـ والموجود الذي ليس له معنى قائم بغيره ـ وطالما هي في بيت أبيها فهي تحمل اسمه ومتى ما انتقلت إلى بيت زوجها عاشت تحت لقبه، اما هي فليس لديها حق

وتملك الاسم ولقد آثرت هذه العادة في إيران أيضاً، لأنهـا عادة غربية، فـالشئ وإن كان تقليـداً إستعبادياً، ولو أسطورة، ولـو تصرفـاً قبـيحـاً مـذمومـاً، بمجرد انه يحـمل (مـاركة) إفـرنجيـة، يـرر للمجـدد عندنا، والذي هو ليس إلاّ مقلداً عاجزاً بلا وعي ولا تشخيص.

فـالإحسـاس والإرادة والإختيـار والحكم، سيئـه وحـسنه، حقـه وباطله، مشلول عند المقلـد، ومعياره في ذلك أصلٌ يقـول: «كل عيب يقبله السلطان فهو فن» فإذا قال السلطان إنّ النهار ليل، عليه أن يقول: «هاك القمر والثريا».

يسألون في الأوراق الرسـيمة الخـاصة بالنساء المتـزوجات في أوربا عن إسمين: الأول: الاسم الحالي الثاني: الاسم البناتي(Jeune fille)، فـيسـألونها في الاسم الأول عن لـقب زوجهـا، أي لقبـها بعـد الزواج، وفي الثاني عن لقب أبيها أي لقبها قبل الزواج.

أي أن المرأة ترتبط بصـاحـب البيـت، وإن كان البـيت من الناحيـة الماليـــة ملكاً لـلمـــرأة، الاّ أنهـــا بمـا انهـــا إمـــرأة لايمكن أن تـكون «صاحبة البيت».

مجددونا هنا، إنتبهوا حديثاً لهذه العادة الأوربية فأصبحوا يبدلون أسماءهم بعد الزواج، لالقب العـائلة طبعاً، بل الإسم الخاص، هذا شئٌ مضحك للغاية. نموذج صادق عن المحاكـاة التي يقوم بها أشباه الغربيين عندنا، «لـلجنس الأفـضل»، أولاً يكررون و يقلدون كـل مـا يقــولون و يفـعلون دون معـرفة لـعلته و مـغزاه، و قـيمتـه، «لأنهم لا إحسـاس لديهم». و ثانـيـاً، يقـومـون بالعـمل الذي يقلدونـه بصـورة مـضـحكة

و خاطئة، «لأنهم لا معرفة لديهم». لهذا نقول إنهم صنعوا في مجتمعنا أشباه غربيين، و متغربين، لا وجود لهم و لا لأمثالهم في أوربا نفسها.

هنالك قانون يطبق حالياً في فرنسا، يقضي على المرأة المطلقة ألا يكون لها أي حق في أطفالها بعد الطلاق. بينما نرى في الإسلام ـ الإسلام الحقيقي النقي لا هذا الإسلام المخلوط المشوه ـ أنه يعطي للمرأة شخصية وشأناً الى الحد الذي يسمع لها بالمطالبة حتى بثمن الحليب الذي أرضعته لأطفالهامن زوجها، و تستطيع المتاجرة بدون تدخل الزوج، و المشاركة في عمل إنتاجي مستقلةً و بطريقة مباشرة، أو تشغيل رأسمالها، و بعبارة أشمل إمتلاكها حق الاستقلال الإقتصادي.

لقد سبب كل ذلك الضغط اللا إنساني وشبه الديني ـ بإسم الدين ـ على المرأة، رد فعلٍ عنيف في أوربا اليوم، ورد الفعل هذا ناشئ عن القرون الوسطى التي ما تزال ذكراها تعشعش في ذاكرة المرأة.

ولاتزال المرأة في إيطاليا وإسبانيا ـ حيث الدين أقوى ـ محرومة من كثير من الحقوق الانسانية برغم كل المنشورات التي تتحدث عن الحرية وحقوق الانسان وأمثال هذه المزحات الكبيرة.

إنني أتحدث عن الحريات الإنسانية والحقوق الإجتماعية، لا عن الحرية والحقوق الجنسية، والتي نرى شيوعها بهذه السرعة الفائقة، حيث يُصدر مجاناً إلى العالم الثالث «الحرية والاخلاق والتكنيك والثقافة والفن والأدب الخاص بالجنس» مقابل

مواد أولية كالنفط والألماس والمطاط والنحاس والقهوة والأورانيوم التي تسرق من هذا العالم بكل سهولة، فتعمل كل وسائل الاعلام والاتصالات والامكانات الاجتماعية والفنية والتعليمية لشعب «متخلف» على إشاعة وتبرير وتوسيع هذا الوارد، وهذا شئ غير الحريات وحقوق الانسان. فالحريات الجنسية خدعة من كثير من الخدع التي لاتعد ولاتحصى «للإستحمار الجديد»، والتي يتوسل بها النظام الرأسمالي الغربي في عالم اليوم، شرقه وغربه، محليه وأجنبيه، كي يتمكن من «استغلال الشعوب الغربية» و «إستعمار الشعوب الشرقية» بلا موانع ولا معوقات، وأن يستمر فاعلاً بالذات في أوساط الجيل الشاب المتهور، والذي هو عنصر عصيان وتمرد، ولايتحمل، ولا يأبه لقيود الأديان التخديرية وحبال التقاليد الموروثة في يديه ورجليه، فيكون بذلك مهيئاً لأن يثور في كل لحظة، ويقوم بعمل للإصلاح، مغرقاً رأسه في مستنقع «الحب الغربي الرخيص» وأجواء «الحريات المصنعة عند الرأسمالية»، إلى درجة لايشعر فيها بالدنيا وما يجري حوله، مشبعاً نفسه إلى درجة لايفقه. بها فقره و أسره، و لهذا نرى كل هذا التهافت من قبل اعمدة «الاستبداد المحلية» في آسيا و أفريقيا و أمريكا اللاتينية، من أجل إعطاء الحقوق و الحريات الجنسية المهداة من الرأسمالية الغربية إلى الجيل الشاب و إشاعتها، و تقويتها و تشديدها بصورة جنونية.

و هكذا يمكننا رؤية عفريت العالم الجديد خلف القناع الجذاب لهذه «القفزة الجنسية العاصفة» و أيضاً يمكننا رؤية الصنم الكبير ووجوه

مذهب التثليث لهذا العصر: «الاستغلال» و «الاستعمار» و «الإستبداد» التي صنعت من فرويدنبياً كاذباً، ومن الفرويدية مذهباً علمياً وإنسانياً، ومن الجنس وجداناً أخلاقياً، وجهازاً حقوقياً، وأخيراً من «الشهوة» محراباً ومعبداً متيناً، كانت أول قرابينه «المرأة»

المرأة في الدور الثقافي والقاعدة الإجتماعية للعصر الحديث:

حدث بعد «النهضة» في القرنين الخامس عشر و السادس عشر و تجاوز العصر التقليدي و الديني القديم، أن حلّت الرؤية الدكارتية والمنطق الحسابي التحليلي، مكان العاطفة الغريزية والإحساس الديني، و «الفردية» بمعناها الدوركهيمي، أي الإستقلال **الفردي إزاء المجتمع** (العائلة، القبيلة، الشعب،...)، أو «ترجيح الأنا» على الروح الإجتماعية الواحدة و «تفضيل النحن على الأنا» (الإشتراكية الدوركهيمية)، وأصالة «المنفعة» (utitite) مكان أصالة «المبدأ» (valeuz) وأصالة «الواقعية» مكان أصالة «المثالية»، وأصالة الغرائز العينية، مكان أصالة الميول الروحية، وأصالة الرفاه والترف المعيشي، مكان طلب الكمال والتقوى والقناعة، و «العلاقات العقلانية المنطقية والمتحيزة الإعتبارية» (بديلاً) عن العلاقات المعنوية المقدسة والأدبية والفطريه غير القابله للتحليل بطابعها الأبدي وآخيراً الظواهر المعلومه والمصلحية المفيدة والإرادية القابلة للتحليل والدراسة العقلية والمعللة نسبياً والمتغيرة الدنيوية ـ التي تشكل في مجموعها العالم والإنسان والحياة والحضارة وكل أبعاد العالم وعناصر المجتمع ومظاهر الروح الحديثة ـ «بديلاً»

عن الأسس الإلهامية الرمزية والحقيقية القيمة، التي هي لا آرادية، ولاتوصف، ما وراء عقلية، وخارجة عن التسلسل العلمي المنطقي، خالدة وغيبية وأفلاطونية ـ وهي متجذرة في أعماق الوجود، وتنشأ عن الأبدية، وهي مظاهر رمزية لعالم آخر، تنبع من ذات القدس والمطلق، ومبادى التقدير الإلهي ـ وأيضاً، الطبيعة، بديلاً عن ما وراء الطبيعة والعلم مكان الإلهام و «اللذة» مكان «العفة» و «السعادة» بدل «الكمال» و «الترف» بدل «التقوى» وكما يقول فرانسيس بيكن: «القدرة» بدل «الحقيقة».

لقد ترك هذا التغير الروحي و الفكري و التحول العميق للمبادئ الإنسانية و تغيير الوجهة الاصيلة للثقافة و العلم و الإحساس و الحياة، ترك آثاراً ثورية جذرية، في العائلة، في الحب، في علاقة المرأة بالرجل، و نظرة الرجل عن المرأة، و وضع المرأة في المجتمع وازاء الرجل وفي صميم الحياة و الأدب و الفن و العواطف.

لقد فسر العلم والرؤية المنطقية الدكارتية، كل شئ وحتى المقدسات والأصول الأخلاقية، والتي نظر لها الإنسان دائماً علي أنها مبادئ وراء عقلية وفضائل إلهية، فسرها كأشياء مادية، ومنها المرأة والحب والتي كانت دائماً تحيطها «هالة» من القدسية والخيال والروح والإلهام والشعر والأسرار المستعصية، وضعها تحت مبضع التشريح، فجزّأها وحلّلها. وقد تعهد بهذا العمل اثنان هما «كلود برنارد» الذي يعتبر الإنسان جثة بلا روح و «فرويد» الذي يعتبر الروح خنزيراً مريضاً، مخيمةً عليهما كليهما ظلال بورجوا الذي كان يفهم الحياة على أنها

«مال» فقط، وكانت نتيجة هذه التحقيقات هي ما نراه. وكان في مواجهتهم رجال المسيحية، وفي مواجهة هذا المختبر، كانت الكنيسة التي لم يكن لديها من جواب سوى التكفير، والذي أصبح هراوة لا يخافها أحد، فلم يكن هنالك أي أثر لإستنفارهم وصراخهم باسم الدين وإصدارهم فتاوى بلا أدلة، وتخويفهم الناس من نار جهنم، مقابل أولئك الذين كانوا على أية حال يستدلون ويستشهدون.
والمرأة التي كانت في الماضي عضواً في العائلة، وإن لم تكن لديها شخصية إنسانية مستقلة فقد إنصهرت في وجود العائلة ـ وهي روح واحدة ـ إستقلت هذه المرأة تدريجياً من الناحية الإقتصادية لأنها استطاعت أن تعمل في الخارج، حيث سحبت الحياة الصناعية والمتحركة والمعقدة الحديثة والمشاغل الإجتماعية المتزايدة، المرأة خارج بيتها، وشغلتها.

إن الإستقلال الإقتصادي يعطي المرأة إستقلالاً إجتماعياً أيضاً فتحصل على «وجود بالذات» إلى جانب الزوج والأبناء وتستقل... الآن تمتلك المرأة إستقلالاً فردياً قبل تكوين الأسرة، وبما أنها ناضجة عقلياً ومنطقياً، يكون تصرفها تلقائياً مع الآخرين ـ الرجل، الحبيب، الأب، الأسرة ـ تصرفاً مبنياً على أسس عقلية ومحاسبات مصلحية دقيقة. لقد حررت الرؤية المحاسبة والواقعية والتحليلية والعلمية و «الأنانية» والمصلحية والمنافع الفردية، والتوجه نحو الغرائز وطلب اللذة، والترف والرفاه والعقلانية، والبحث عن السعادة، حررت هذه الأشياء المرأة من كثير من القيود الإجتماعية والعائلية والدينية، وفي نفس

الوقت، سلبتها كثيراً من العواطف العميقة وغير العقلية العاطفية والإنسانية و (تركتها لوحدها)، لأنها إستقلت.

لقد أثبت «دوركهيم» أن الروح الإجتماعية كانت متينة في الماضي، ولكن، وبمقدار ما نما التعقل والإقتصاد والفردية - من الناحية الاقتصادية -، قطع الأشخاص روابطهم مع الأقارب وعلاقاتهم العاطفية والإعتقادية التقليدية والروحية واستقلوا، فوهبهم هذا الإستقلال إمتيازات كثيرة، الى الحدّ الذي يمكن لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن تعيش لوحدها في شقة مستقلة بدون أي ولي أو مشرف، و تستطيع معها المرأة أن تتمتع بكثير من الحريات داخل الأسرة لأن لديها إستقلالاً أقتصادياً، وكلما ساءت حياتها وتلوثت بالأذى تستطيع أن تتركها وتتحرر منها، لأن لديها حقوقاً فردية، ولأن لديها إستقلالاً إقتصادياً، ولأنها تتصرف بتعقل.

فلا يسمح لها عقلها السليم أن تتحمل الآلام من أجل شخصٍ آخر، وكلما لزم أن تضحي، أو تُؤْثِر، أو تغض الطرف عن الرفاه واللذة والحرية والترف والسلامة من أجل حب رجل، الحفاظ على حرمة، الوفاء بقسم، أو الإلتزام بعقد، بعلاقة، فانها لاتفعل ذلك، لأن أموراً كالوفاء والتضحية والإيثار والشكر والحرمة والقسم والعقد والحب أمور روحية وأخلاقية، وغير قابلة للتحليل العقلي والمنطقي.

«أضحي بحياتي من أجل أن يعيش إنسانٌ آخر»، «أتحمل الألم

كي يرتاح إنسانَ آخر»، معاملة لاتـتناسب وآي حساب، إنني لا أحتاج إليه، إذن ليجب أحدكم عن سؤالي هذا: لماذا أضحي بنفسي من أجله هو الذي بحاجة إليّ و أبقى وفـية له؟ لماذا عليّ أن أتحمل رجلاً قبـيحاً، ضعيفاً، من أجل عـقد، عهد، أو قـسم، قطعته له عنـدما كان جمـيلاً وقـوياً أو ربما لأنه كـان الإمـكان الوحـيـد الموجـود أمـامي، وأترك رجلاً قـوياً، جميلاً، إعـترض حياتي، يشـبع روحي وغريزتي؟ من أجل أي شئٍ أضحي؟

القضـية التي يطرحـها سـارترهي: إمرأة زوجة لرجـل لايحمل أي جاذبـية، وامامـها رجلٌ جـذاب ويحبـها، حـساب العـقل واضح هنا. فكلاهما محـتاج إليها، أولهـما كـزوجة، والثاني كعشـيقة، ولكن المرأة لاتحتاج إلى الأول، وبحـاجة إلي الثاني، وهي ستضـحي باحـتياجين من أجل إحتـياج واحد عندمـا تبقى وفيـة لزوجهـا، وعندما تتركـه تضحي باحتـياج واحـد من أجل إحتـياجين، إذن واجب المرأة واضح، فـالعقل يصدر حكمه القاطع، معادلة رياضية دقيقة، إن أيّاً من فرويد ودكارت لا يفهم العامل الذي يجـعل المرأة تضحي باحتياجين من أجل إحـتياج واحـد، وهو ليس عـاملاً عـقليـاً و منطقيـاً، المرأة العـقـلانية، تحـاسب، وتعـمل بصـورة منطقـيـة، يمكنهـا من ذلك الإسـتـقـلال الإقتـصـادي والحـقوق الإجـتـماعـيـة. يولد الإبن والطفل، فـيـقيـد حـرية الوالدين، والعـقل لا يقـبل أن يضـحي بـحـرية وراحـة إنسـانين من أجل إنسـان واحـد، إذن فامـا أن يُلغى مشـروع إنجاب الأطفـال أو يوُكل بتـربيتـهم إلى مـربيـة أو مؤسـسـة. لقـد إنهـارت كل هذه الروابط غـير العـمليـة

والعواطف غير المنطقية والقيود الأخلاقية والتقليدية والنفسانية والوجدانية، التي كانت «تحفظ» المرأة وتصهرها في صميم روح الأسرة، وتربطها بمئات الحبال اللامرئية، فتضطرها للتحمل والصبر والتضحية والإيثار، والوفاء للزوج، للإبن، للبيت، للأسرة، والأقارب، إذن يكون الإستقلال الإقتصادي والإجتماعي والروحي والنضج العقلي، وغلبة المنطق على العواطف والنظرة الواقعية على طلب الحقيقة، حصولها على الروح الفردية والاستقلال بدل تلك الروح الجماعية ـ التي ينصهر فيها الفرد ـ، تكون هذه العوامل بمقدار ما تهبه للمرأة من حريات وإمكانات إجتماعية وفيرة، عاملاً أساسياً في وحدتها وانفصالها عن الآخرين.

الوحدة:

الوحدة هي كارثة القرن الكبرى، ولقد حلل «هالبواكس» في كتابه «الإنتحار» وكذلك «دوركهيم» في كتابٍ له بنفس الاسم، ظاهرة الإنتحار في أوربا من الناحية الإجتماعية.

الإنتحار في الشرق، حالة نادرة، وإستثنائية، أما في الغرب فهو ليس حالة، بل ظاهرة إجتماعية، ليس «واقعة» بل واقعاً، ترتفع درجات منحنيه في الدول المتقدمة يوماً بعد آخر، حيث ينخفض مستوى الإنتحار في إسبانيا والتي هي دولة متخلفة ـ قياساً بالدول الأوربية ـ ويرتفع في أوربا الشمالية، ثم يصل أعلى مستوى له في أمريكا الشمالية نفس هذا المستوى يختلف في البلد الواحد من القرية إلى

المدينة، وفي المدينة الواحدة، من المناطق المترفة إلى المناطق الفقيرة، وفي المجتمع الواحد بين الفريق المتدين والمتحرر، والمتدين والقديم ذلك لأن الناس وحيدون يعانون من الوحدة والفراغ، وكما يقول الشاعر «أحمد شاملو»(١):

الجبال مع بعض... ولكنها وحيدة!

مثلنا، مع أولئك الوحيدين.

الدين يربط الأشخاص ببعضهم، ويخلق روحاً مشتركاً بين أتباعه، وكذلك يربط كل شخصٍ بربه، في الماضي كان الفرد مرتبطاً بمئات العلائق مع أقاربه وأهله ومعارفه وقومه، فجاء الاستقلال الإقتصادي وشعر الأفراد أنهم ليسوا بحاجة إلى بعضهم، فالمجتمع هو الذي يدافع عن الفرد بدل أسرته، وجاره، و والديه، وإبنه، وصديقه وقريبه، ويؤمن احتياجاته المادية والمعنوية، النضج العقلي أيضاً يهجم على هذه الروابط الروحية والدينية التقليدية، النضج العقلي والمنطقي والحسابي والروح المادية والغريزية والترف، يدمر هذه العلاقات الروحية اللاعقلية، فيستقل الفرد، يصبح أنانياً، يستغني عن الآخرين، وعندها «يصبح وحيداً». لأن الآخرين أصبحوا مثله أيضاً، وعندما يستغنون عنه ينقطعون عنه، ولا يقصده الناس إلاّ من أجل مصلحة أو فائدة. وعندئذٍ ينفرد الشخص في جزيرته فيهاجمه الإنتحار ـ الرفيق الدائمي للوحدة ـ.

---

(١) أحمد شاملو: شاعر فارسي معاصر وحديث. المترجمة.

المرأة تختار رجلها، والرجل يختار إمرأته. ولكن العامل الذي يجذبهما لبعضهما - حيث كلاهما مستقل ومقتدر ومستغن - ليس هو العامل الجنسي، ولا العاطفي، ولا الحب، ولا العلاقة الإجتماعية والتقليد والميل نحو الأنيس والصاحب والجواذب الرمزية التي لا توصف، - فصوت هذه الأمور ميتٌ هذه الأيام - إذن ماالذي يجذب؟ إنه ليس إلاّ محاسبة عقلانية، خاوية، لا نور فيها ولا ضياء، أو ربما ضرورة قانونية، أوحتى «الإضطرار».

تخلق الحريات الجنسية، - التي تبدأ «رسمياً» عند سن البلوغ، وعملياً، في أي وقت يشاؤون - في فكر الرجل والمرأة الإعتقاد بأن إرضاء الغريزة الجنسية لايلزمه إلاّ وجود الغريزة الجنسية، وإذا كانت ضعيفة فيمكن جبران ضعفها بالمال، إذن المال هو اللازم فقط، ويمكن إرضاء الغريزة الجنسية على كل المستويات، وبمبالغ متفاوتة.

على أية حال يستطيع المرء أن يصبح دائماً وفي كل سن إما «دون جوان» أو «أوناسيس»، أما إمرأة أمريكا الأولى فيمكن شراؤها بمبلغ معين أيضاً، ولافرق بينها وبين فتيات الأرصفة إلاّ في السعر. وبما أن الفتاة والفتى كلاهما يتمتعان بالحرية الجنسية لايريان من مصلحتهما، في فترة عنفوان الغريزة الجنسية، أن يقيدا أنفسهما إلى نهاية العمر. كما أن العقل والمنطق السليم والحساب الصحيح ومبدأ ترجيح اللذة والترف والفردية والواقعية وغيرها، لايفتي بوجوب حرمان الشخص لنفسه من كل هذه الحريات المتنوعة، وتمتعه بأنواع الجمال، و الجذابية، من أجل شخصٍ واحد.

تكوين الأسرة:

يقضي كل من المرأة والرجل فترة القدرة الجنسية في المراقص والمطاعم، والمنتزهات وأمثال هذه الأماكن بكل حرية، حتى تنتبه المرأة لنفسها فتجدها وحيدة، وترى حواليها خالياً، لا أحد يقصدها، وإذا قصدها فلأجل تجديد ذكريات من الماضي.

والرجل أيضاً، صرف فترة التجربة الجنسية، واقتطف من كل بستان ـِهرة، و من كل وردة عطراً، فلم يعد أي شئ جذاباً ومثيراً بالنسبة له، هدأت عنده الثورة الجنسية، وحل محلها حب المال والجاه و الشهرة والمنصب، فينبعث في أعماقه الميل نحو تكوين الأسرة و البيت.

إذن، تتشكل الأسرة ولكن أساس بنيانها هو خوف المرأة من الضياع والوحدة، وملل الرجل وتعبه! وعندها لن يكون في هذه الأسرة إلاّ الإرهاق والملل، بدل الحب والمثالية، وبدل أن يكون لوجودهما إلى جانب بعض طعمٌ ولذة خاصة، وحياة جديدة نابضه، لاشئ جديد. وهما يعلمان جيداً ما الذي ينتظرهما. بالطبع لاشئ!.

لاشيء يريح القلب، وهما يدريان كيف عثرا على بعضهما و لأي سبب، و ما حاجتهما، فكلاهما إتجها نحو بعضهما بمحاسبات دقيقة وعقلانية، وكلاهما يعلم الغاية من وراء كلمات الغزل والحب. حيث كلاهما اتخذ من الطرف الآخر وسيلة لإرضاء

حاجة في نفسه. وكلاهما محبان، والهان، ولكن في عكس الإتجاه الذي نفهمه نحن.

ولهذا، نرى مجاميع كثيرة كهذه، في الأيام المخصصة للزواج، تملأ قاعات البلدية - حيث لا يسمح لهم بدخول الكنيسة - فيعرفهم شخص نيابة عن رئيس البلدية بعلامة على صدره، تبين أنه موظف دائرة لاغير، لارجل دين (وجه يمثل الروحية والإيمان والحرمة والقدسية)، تماماً كنماذج مصبوبة في قوالب، يقرأ الأسماء من ورقة في يده فيأخذ الجواب من العروس التي يتبعها غالباً عدة أطفال. ثم يوقعون في نهاية إستمارة مخصصة، وتنتهي المراسم، فيعود الجميع إلى قوالبهم - بيوتهم، والظريف هنا هو عدم إرتداء أكثرية العرائس لفستان زفاف، فأغلبهن يقلن أنهن يخجلن من إرتداء شيءٍ كهذا، في عمرهن الآن!

ثم تنشغل المرأة بشئ ما، وينشغل الرجل بأمر آخر، وربما يدعوان أصدقاءهما إلى وجبة غذاء في مطعم، هذا إذا كانت حفلة الزواج صاخبة شيئاً ما وإلاّ فانهما سينسيان كل شيء بعد إنتهاء المراسيم، كأن شيئاً لم يحدث. وغالباً ما ينظر الطرفان في قاعة البلدية إلى بعضهما، ماذا يعني هذا؟ أين يذهبان؟ إلى النزهة؟ وهما قد شبعا منها، إلى حجرة النوم والعناق؟ وقد تذوقا طعم بعضهما مئات المرات، ولم تبق أي لذة في ذلك. إلى البيت؟ وقد جاءا تواً منه، إذن ما هو الشئ المثير بالنسبة لهما؟ يحرك خيالهما وإحساسهما؟ لا شئ. إذن أليس من الأفضل أن يتجه كلاهما نحو عمله. كالعادة وككل يوم. هكذا تتكون الأسرة، فقد عثر الرجل و المرأة

على بعضهما بعد محاسبة دقيقة، وشكلا شركة إقتصادية. أو إضطرهما الوضع أو القانون لذلك. هذا في حين يكون الطفل قد دخل إلى حياتهما وجعل من أمه وأبيه عروساً وعريساً. فاستسلم هذان الإثنان لهذه الشركة دون أي شعور بالحماس أو العاطفة أو الشوق. فلاهما بحاجة إلى بعضهما، ولا هما يلتجئان لبعضهما. لا سر فيهما ولا سحر في وصالهما. ولا شيء يبدأ ولا شيء يتبدل. ولهذا يكون أساس الأسرة ضعيفاً، فلا يرى الأبناء فيها حماساً وجاذبية وحرارة، وبما أن الأب والأم لا يستطيعان التضحية بحرياتهما من أجل طفلهما، يعهدان به إلى مكان، يدفعان له مبلغاً من المال، ويواصلان حياتهما.

وعندما ينفصلان عن بعض، فتبعاً لنفس قوانين المنطق والمصلحة التي دعتهما للشراكة والعيش معاً. لأن الرؤية نفسها والمنطق نفسه والروح والإمكانات نفسها لاتزال قائمة. فكيف يمكن أن تشبع المرأة التعبة المرهقة ـ التي يثير تسلطها في العلاقة الجنسية نفور الرجل واشمئزازه ـ كيف تشبع رجلاً احتضن كثيراً من الفتيات الصغيرات النضرات، وذاق طعم كثير من الأحضان الدافئة؟ وهكذا شأن المرأة، تعيش دائماً في حالة مقارنة بين زوجها المنهك وبين الأحضان التي تلقفتها، واضح أن مرتبة زوجها لن تكون مرتفعة في هذه المقارنة، في الوقت الذي لاتزال فيه الأحضان مفتوحة خارج بيتها والمقاهي ساخنة والحفلات قائمة... فيعود العامل الذي جمعهما على رغم كل هذه الدعوات، ليصبح عملاً لامنطقياً.

المرأة في النظام الإستهلاكي: الجنس بدل الحب:

في المجتمع الذي تكون فيه الأرجحية «للإنتاج والإستهلاك» و «الإستهلاك والإنتاج» الإقتصادي، والتعقل لايفهم غير الإقتصاد. تكون المرأة هنا، لا ككائنٍ مثير للخيال، مخاطباً للعواطف الطاهرة، محبوباً لاينسى، رابطة مقدسة، أماً، أنيساً، بؤرة إلهام، مرآة صادقة لنفس الرجل الحقيقية، بل سلعة إقتصادية تُباع وتشترى، حسب جاذبيتها الجنسية.

لقد صنعت الرأسمالية المرأة بالشكل الذي يجعلها تفيد لشيئين، أحدهما أن تشغل المجتمع عن التفكير في مصيره، بما هو عليه من الاستغلال، بمستقبله المظلم والأسود الذي صنعته له البرجوازية. ولا يسأل أسئلة كهذه:

«لماذا نعمل؟» «لماذا نعيش؟» «من هو السبب في كل آلامنا، ومن أجل من نتألم»؟

وأيضاً استخدمتها كأداة تسلية وترفيه، وباعتبارها الكائن الوحيد الذي يملك جاذبية جنسية، كي لاتدع العامل والموظف والمثقف يفكرون في أوقات فراغهم بالتمرد ضد الطبقية والرأسمالية، واستخدمت لتملأ كل الحفر والثغرات الموجودة في الحياة الإجتماعية، فعمل «الفن» بشدة على تبديل أسسه ومرتكزاته التي تعني دائماً الجمال والروح والعاطفة والحب إلى «الجنس» بناءً على توصيات الرأسمالية والبرجوازية، معتبراً الفرويدية السوقية والشبق الجنسي

المبتذل فلسفة علمية، وأساساً للانسان المثقف الواعي، وواقعية معاصرة، وكل الخيال والأشعار والعواطف المتالية أموراً خاوية لا معنى لها، و«الجنس» هو الشئ الوحيد الذي يصلح أن يكون أساساً ومعتمداً للفن الجديد.

لهذا نشاهد كيف أصبح كل من الرسم، الشعر، السينما، المسرح، القصة، المسرحية، يدور حول محور «الجنس» دائماً.

كما أن الرأسمالية، ومن أجل تشجيع الناس على الإستهلاك الأكثر، ومن أجل إشعار الشعوب بحاجتهم إليها، فترفع من مستوى الإستهلاك والإنتاج، من أجل هذه الغاية، عرّفت المرأة على أنها كائن لايملك إلاّ الجاذبية الجنسية ـ ولاشيء آخر ـ أي كائن ذو بعدٍ واحد. وأعطتها مكاناً وحجماً واسعاً في الإعلانات والدعايات كي تخلق قيماً وعواطف جديدة، وتجلب بذلك الأنظار إلى البضائع الجديدة، وهكذا استخدمت المرأة لقتل الأحاسيس التي تهدد مصالح الرأسمالية وتدمر وجودها..

فحل «الجنس» مكان «الحب»، وتحولت المرأة، «الأسيرة المحبوبة» في القرون الوسطى إلى «أسيرة حرة» في القرون الحديثة. وحدث أن صارت المرأة في التاريخ والحضارات والأديان المتطورة ـ وإن لم يكن لديها المكان الخاص بها، ولكنها على أية حال كانت مصدر إلهام وعاطفة وذات مقام كبير متسامٍ من الحب والعاطفة والفن ـ أصبحت الآن أداة من أجل الغايات الإقتصادية والإجتماعية، ومن أجل تغيير شكل المجتمع وتدمير قيمه الرفيعة وأخلاقه، وتبديل المجتمع التقليدي

ـ أو المعنوي والأخلاقي أو الديني ـ إلى مجتمع إستهلاكي خاء مِن أجل تبديل الفن ـ الذي هو التجلي الإلهي للروح البشرية ـ إلى سـ لة لتغيير النوع البشري بواسطة «الجنس».

في الشرق:

والآن، جاءت الرأسمالية نحو الشرق ـ نحونا ـ وعملها هنا سـط للغاية. أبسط بكثير من مجتمعات القرون الوسطى، حيث أن حس الجنسي في الغرب عند الفتيان ـ بالذات في السويد، النرويج، وحتى فرنسا وألمانيا ـ يستيقظ متأخراً. إذ لايملك الفتى هناك، حتى سن السابعة عشرة اوالثامنة عشرة، أي إحساسٍ يجذبه نحو الجنس الآخر، بينما تكون الفتاة، عند هذه السن، في عنفوان الفوران الجنسي. فتحدث عند الرجل حالة الهروب، وعند المرأة حالة الهجوم، مما يسبب لديه نفوراً وإشمئزازاً من الجنس يلازمانه طوال عمره، ويؤثران حتى في علاقاته العائلية.

لهذا طرح علماء الإجتماع وعلماء النفس في أوربا الشمالية عدة إقتراحات من أجل رفع العاطفة الجنسية عند الرجل الأوربي الشاب، عن طريق الإثارات الجنسية الطبيعية والاصطناعية بواسطة المرأة.

أما في الشرق، فلا وجود لهذه المشكلة، إذ يصل الشاب الشرقي إلى النضج الجنسي قبل وصوله إلى سن البلوغ، وقد سبب هذا البلوغ المبكر مشاكل معقدة عند علماء الإجتماع وعلماء النفس الشرقيين، ولكن، أين الملتزم المتعهد بهذا الجبل، كي ينصت إلى مشاكله

ويفكر بها؟ والحرب بين الفريقين قائمة من أجل أشياء وأمور أخرى، فالبحث بينهما يدور حول طريقة إرتداء الملابس وإستعمال أدوات الزينة، والسلوك الخاص والعادات والأذواق.

والحرب بينهما ليست لصالح أحد، وليس من صالح أيّ شخص ان يهزم أيّ منهما الاخر، فأحدهما يسمى نفسه كذباً «بالمتمدن» والآخر «بالمتدين»، وكلاهما لاعلاقة لهما لا بالتمدن ولا بالتدين. الأول يعتبر المرأة النموذجية هي «المرأة الأوربية» والثاني «فاطمة و«زينب»»، وكلاهما، إما أن يكونا كاذبين في إدعائهما، أو أنهما غريبان عن النماذج التي يدعون اقتداءهم بها.

يريد الأوربي أن يغير المجتمع الشرقي، كي يستطيع غزوه إقتصادياً وثقافياً و عاطفياً. يسرق لقمته من فمه، ويدمر إحساسه ومعرفته وأصالته وإرادته ومبادئه الإنسانية، اذ لايمكن غزوه إقتصادياً ما لم يستطع تدمير هذه الأشياء.

إذن، يجب قبل كل شئ أن نُفَّرَغَ من ذاتنا، وننسى كل القيم الإنسانية، ونفقد كل التراث الذي يقينا ويحفظنا، ننهار من داخلنا، فنصبح كطبول خاوية، عارية عن الذهن، بروح عاجزة، مشلولة، وفارغة، **تماماً كسلة القمامة، التي يملؤونها ويفرغونها من القاذورات** كيف شاؤوا.

هكذا يتعاملون مع العقل والروح الشرقيين، وإذا رأت الروح الشرقية باطنها خالياً. لإيمكنه الإتكاء على شيء والإعتماد عليه لأنه لا إيمان لديه ولا معرفة ولامفخرة، ولا أمجاد، معتبراً ماضيه عاراً عليه،

وعديم القيمة والأثر، ودينه خاوياً خرافياً، ومعنوياته رجعية وتخلفاً، وحياته مبنوذة كريهة، بشعة، فلا يعرف نفسه ولا أصله ولاجنسه، أو يعرفها بصورة سيئة، هذه الروح كيف يمكن أن تصبح؟ لن تكون بالطبع إلاّ كبرميلٍ فارغ، متعطش، محتاج إلى أوامر الإستعمار، يرمي في داخله ما يشاء، ويغزوه كيف يشاء.

وهكذا نراهم يفرغون الجميع، من أجل غزو الشرق، فيعدون للمسلم والبوذي والهندي والإيراني والتركي والعربي والأسود والأبيض، شعاراً ثابتاً، من أجل أن يصبح الجميع بشكل واحد، وبعدٍ واحد، وهو أن يكونوا مستهلكين للبضائع الإقتصادية والفكرية، دون أن تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم.

أما ماكان يسد الطريق على الغرب، ويحفظ الشرق، فهو الإلتزام، القيم الإنسانية، التقاليد والدين، فقد كان الإلتزام كقلعة تقف لحماية الإسلام والإستقلال في مواجهة الغرب، لم يكن للغرب باب للنفوذ، **وكان المسلم ممتلئاً معنويات وفخراً وثقةً بنفسه، يهبه «تاريخه»، قادته،** حضارته، إيمانه، وشخصياته الدينية كل الإستقلالية والعظمة والعزة. لايرى الغربي إلاّ شخصاً جديداً على التحضر والثقافة والثروة، فيمعن في إنتقاده وإحتقاره، ويستعرض نفسه أمامه. أما الغرب، فقد إستطاع بالمكر والحيلة أن يسكن في ثنايا هذه القلعة و زواياها ويبدأ كدودة الأرض يقضم كل شيء من الداخل في الشرق، فأفرغه بذلك من كل محتوياته، ودمر كل قواه المقاومه. وخلق من صانعي الملاحم الملتزمين بدينهم أشخاصاً يفتقدون كل حماس وثقة بالنفس، يستقبلون العدو

ويأخذون عنه ما يعطي، ويقومون بكل ما يأمرهم به، فأصبحوا كما أراد لهم أن يكونوا.

دور المرأة في هذا الهجوم.

لقد كانت المرأة في البلدان الإسلامية عاملاً قوياً، تستطيع أن تغير التقاليد، النظام القديم، العلاقات الإجتماعية، القيم المعنوية، والأهم من كل هذا، الاستهلاك، (كما كانت عاملاً قوياً في حفظ هذه الأشياء)، ذلك لأنها بطبعها العاطفي، بالأخص في الشرق، تستطيع قبول المظاهر الجديدة لـ «شبه الحضارة» الحديثة، أي الاستهلاك، أسرع من غيرها، خصوصاً وهي ترى أمامها التشعشع الدائمي والخلاب للمظاهر الجميلة الجذابة، ثم لاترى إلاّ القبح والبشاعة في الجهة المقابلة.

ينقل أنه، في بدايات الاستعمار الاوربي لافريقيا، كان هنالك أوربي مخادع يتنقل بين القبائل السوداء، ويعرض عليها وعلى رؤساها أنواعاً من وسائل الزينه الزجاجية، والتي تلمع بالطبع أكثر من الطبيعية، وبناءً على أحد قوانين علم النفس الذي يقول بازدياد حب الزينة والإفراط فيها لدى البدو أكثر من غيرهم (نلاحظ هذا واضحاً عند القبائل الافريقية والقبائل البدوية العربية)، فقد كان يبيع عليهم حفنة من هذه الوسائل المزورة، كي يأخذ بدلها إمتيازات كبيرة، كإمتياز زراعة القهوة وتصديرها أو شراء قطعان من الغنم أو حتى إستخراج الألماس.

واضح أن دور المرأة، التي تعاني من العقد وتبحث عن التحضر، في معاملة كهذه فعالٌ جداً، كما أن المرأة في المجتمعات الشرقية، ومن ضمنها المجتمع «شبه الإسلامي» الموجود حالياً، تعاني من حرمانها من كثير من الحقوق الإنسانية، بإسم الدين والتقليد، كالدارسة والتحصيل والإمكانات الإجتماعية وحرية التثقف، والتربية وتغذية الروح والفكر، وحتى أنها محرومة من كثير من الحقوق والإمكانات التي وهبها لها الإسلام باسم الاسلام، فهبط دورها الإجتماعي إلى الحد الذي لاتعتبر فيه إلاّ **«كماكنة غسيل»** وحصرت قيمتها الإنسانية في حدود «أم الأطفال» ولم تتعد هذه المنزلة، وحتى إسمها، يشعر البعض، بالعار والخجل من ذكره فينادونها باسم إبنها(وإن كان صبياً لافتاة)[1]

الظالم والمظلوم:

يقول علي«ع» إثنان مسؤولان عن إيجاد الظلم، الظالم ومن يقبل بالظلم. وبتعاون هذين الإثنين يظهر الظلم، وإلاّ فان الظلم لايظهر عن جانب واحد. فالظالم لا يستطيع أن يظلم الهواء، الظلم قطعة حديدية تتخذ شكلها تحت مطرقة الظالم وسندان المظلوم.

وليس الظلم وحده هو المحتاج في وقوعه الى طرفين، بل كل الفساد والإنحراف والتعاسة والمصائب. فعند هزيمة «مجتمع ما» ليس

---

(١) هنالك عادة كانت متبعة في إيران عند بعض العوائل من جيل الأربعينات والخمسينات تسمى فيها المرأة بإسم إبنها أو زوجها، كأن تنادى «محمد» مثلاً أو «غير ذلك من الأسماء». المترجمة.

الغازي هو الوحيد الذي «يهزم»، المجتمعَ نفسه يجب أن «ينهزم» كي تتم الهزيمة. في القرن السابع مثلاً لم يكن چنگيز هو الذي هزمنا، بل نحن الذين كنا قد نخرنا من الداخل، وقد أعددنا أنفسنا لتقبل الهزيمة منذ القرنين الخامس والسادس، و لم يفعل چنگيز شيئاً سوى انّه رفس هذا الجسد المنخور، فانهرنا وهزمنا.

ان الديدان الموجودة في جذور الشجرة وجذعها هي التي تنخرها من الداخل، فتسلبها روحها ومحتواها، وتتركها خاوية فارغة، وهيكلاً قائماً فقط، وهي التي تدمرها فتنهار على الأرض، لاتلك العاصفة المارة عليها، كمرورها على بقية الأشجار، والعواصف تهب دائماً على الغابات فلماذا نشاهد سقوط بعض الأشجار دون بعض؟

إذا كانت المرأة اليوم، تغير لونها وصبغتها، وتظهر نفسهابشكل دمية غربية (لاإمرأة غربية)، علينا أن ننتظر عندها، الإستعمار الإقتصادي كامناً خلف الحدود، وهنا، داخل الحدود، نرى أنفسنا، نحن الذين ساعدناه ونصرناه، بإجبارنا المرأة على الهروب منا، كي يصطادها هو بسهولة، فقد لقبناها بالضعيفة، المستكينة، الجارية، أم الأطفال، وحتى «قليلة الأدب» و «المنزل» و «الماعز»، ففصلنا خلقها عن الإنسان، وبحثنا ما إذا كان باستطاعة المرأة أن تستقل بطريقة خاصة بها في الحياة أم لا؟ واستدللنا على إنكار ذلك بأن من الممكن في هذه الحاله أن تكتب المرأة رسالة إلى رجل غريب، (إذاً كان من الأفضل بناءً على إستدلالنا هذا أن نفقدها بصرها، ونفقأ لها عينها، كي لايقع نظرها على رجل غريب، فيرتاح بال الرجل الغيور الذي

يفضح ضعف شخصيته بخشيته من خيانة زوجته).

هكذا حفظنا للمرأة تقواها وعفتها، بالجدران والسلاسل، لا باعتبارها إنساناً، مفكراً ذا إحساس وعاطفة و وعي، وكنا نراها كحيوان متوحش لايمكن ترويضه وتربيته، ولامكان لحفظه إلاّ القفص لئلا يفرّ في أول فرصة تسنح له.

كانت المرأة سجيناً لا سبيل له، لا إلى المدرسة ولا إلى المكتبة ولا إلى المجتمع، وكانت مكانتها في المجتمع كمكانة (الأقوام النجسة) او المنبوذين في مجتمع الهند ليست في عداد البشر.

هكذا كان الشعار: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، يتحدث فيه الكثيرون على المنابر وترتفع به اصواتهم طيلة شهر رمضان، ولكن على أرض الواقع، كان الرجل دائماً هو الذي له حق المدراسة، والمرأة ـ عدا بعض الميسورات اللاتي كان بأمكانهن استقدام المدرسين إلى البيت ـ كانت محرومة من هذا الحق، ولم يكن بامكانها أداء هذه «الفريضة الدينية».

لم يكن للمرأة مكان في كل المجالس الدينية، والنشاطات الإسلامية، وأعمال التبليغ ودروس القرآن والتفسير والحديث والفلسفة والعرفان والتاريخ. فما كان مسموحاً لها إلاّ بالجلوس في مجالس التعزية حيث لايقصدها الخطيب في حديثه ولايتوجه اليها إلاّ بامثال هذه العبارات، «اسكتي ياضعيفة» أو «أخرسي طفلك»، فكلامه وحديثه للرجل، وتأنيبه وتوبيخه للمرأة، و في النهاية، عندما يريد البدء بقراءة المراثي، يتوجه إليها باحترام مخاطباً جمعهن «بالسيدات»،

كي تبكي المرآة وتلطم على صدرها، وتضفي بذلك جواً ساخناً على مجلسه.

المرأة التي دورها في البيت ليس إلاّ إنتاج «الأطفال» وفي المجتمع، إنتاج «الدموع»، هذه المرأه هل من الممكن أن تكون قدوتها «فاطمة»؟ فاطمة التي كان إنتاجها بنتاً كزينب، شهدت قتل أخيها وإثنين من أبنائها البررة، ثم وقفت بعد أيام في مواجهة الطاغية الجلف ودكتاتور بني أمية الفظ ، في عاصمة الخوف والجريمة في ذلك العصر، كي تقول كلمتها بشجاعة وثبات: «شكراً للّه، الذي وهبنا كل هذا الفخر وهذه الرحمة» هل كل هذا الجلال وهذه العظمة هما مظهر للنساء اللاتي يخفن حتى من الفأرة؟

لقد حرموا المرأة كل شئ، حتى الإسلام، حتى الدين، حتى معرفة عقيدتها، وبما أنها كانت أمية، فكان، يجب أن تستغيب، واستغابت، وكان لابد أن تكتفي بالطبخ، واكتفت. عندما لم تكن لديها أية وسيلة أخرى للتسلية العلمية والفكرية.

وبما أنها لم يكن لها سبيل إلى المدرسة والكتاب والمجالس والمنابر، فما كانت تستطيع أن تنافس الرجل في مستواه العلمي، الرجل الذي يحضر في اليوم عدة مجالس وعدة حلقات درس. وهذا يعني تماماً كما لو أننا قطعنا يد شخص ما ثم قلنا بماأنه مبتور اليد، فعليه أن يكون محروماً من كل شيء. ومن المؤسف له أن عوامل كثيرة كخلق الخرافات والأساطير والعقد والجهل والتخلف والتقاليد القومية ومخلفات الأنظمة البدوية القديمة، والعبودية، وسيطرة الأب، والعقد

الجنسية والنفسية وغيرها، إتفقت جميعاً على تشكيل شبكة معقدة كبيت العنكبوت، ابتليت بها المرأة وسقطت بين طياتها، وبرربها «الجلوس خلف الستارة» باسم الإسلام وباسم التقليد وباسم التشبه بفاطمة! وحبست المرأة فيها باسم العفة، وعلى أساس أن وظيفتها الوحيدة هي تربية الأطفال.

ولست أدري كيف يمكن لشخصٍ ناقص، محروم من نعمة العلم والكتاب والدراسة والتربية والفكر والثقافة والحضارة والتربية الإجتماعية، كيف يمكن أن يكون مربياً لجيل الغد؟ يبدو أن قصدهم من التربية هو إشباعه وتسمينه فقط، إذ ماذا يستطيع كائن ضعيف، جليس البيت، لافكر عنده ولاثقافة، بحاجة إلى التربية أكثر من غيره، ماذا يستطيع هذا الكائن أن يفعل حيال إنضاج وتربية روح الطفل وافكاره العميقة الحساسة؟ هل غير أن يُعطيه الحليب، ويُلبسه ويُنظفه؟ وماذا سيكون تأديبه وتربيته لهذا الطفل غير الشتيمة والبكاء والخداع والصراخ واللعن، وإذا تمكن من ضربه، ضربه. وإذا لم تؤثر هذه الأشياء يخوّف بأخيه الأكبر أو أبيه، وإذا لم يغن هذا العلاج أيضاً، يطلب الاستمداد من الجن وعزرائيل والقبر، وإذا لم تفد كل هذه الأشياء في إخافة هذا الطفل «الشرير اللعين!»، يخلق موجودات غيبية أخرى يضفي عليها وجهاً مخيفاً، كالغول والعفريت، والظلام،... أجل، هذه هي وسائل التعليم والتربية الموجودة في نظام التربيه والتعليم لأمرأة تلخصت كل حياتها في كيفية إعداد نفسها وتربيتها، فتقصر بذلك في تربية الطفل، أي رسالتها الوحيده!

هكذا نرى المرأة في مجتمعنا التقليدي المنحط ـ الذي أضفوا عليه رداء الدين الكاذب ـ كيف «تفسد» في بيت أبيها كالفاكهة. وعندما تصل إلى سن البلوغ الجنسي تباع على مشترٍ. بمبلغ معين من المال، طبقاً لمعاملة تجري بين البائع(صاحبها السابق) والمشتري(مالكها الجديد وربها الثاني) وتنقل إلى بيته وهنا ـ حيث يعين دورها وسعرها في عقد مالكيتها ـ تصبح «خادمة محترمة» (كان الرجل المتزوج يسمى بناءً على ذلك بالمخدوم)، فتعمل في البيت، تطبخ الطعام، ترضع الطفل، وتحافظ عليه، وتدير البيت، فتشرف على تنظيفه وترتيبه. خادمة وممرضة، ولكن، وبما أنها خادمة بلا أجرة، وتخدم باسم الدين والشرع (ولاتستطيع أن تكون شيئاً آخر)، يسمونها «السيدة»، ولأن سيدها هو زوجها في نفس الوقت، تسمى «إمرأة»، ولأن الأطفال الذين ترعاهم هم أطفال زوجها، تسمى أماً، على أية حال، كان هذا عملاً مفيداً، وكانت المرأة عاملة، وإن كان عملها في مستوى عمل الخادمة والمرضعة فقط، ولكن، هكذا تربت، وهكذا تعلمت، ولم تحصل على شئ أكثر. هنا يجب أن أنبه إلى أنني أقصد في إعتراضي وعتبي الآباء الميسورين مالياً، الذين يحرمون بناتهم من الدراسة والعلم بجريرة أنهن نساء لاغير، وأحياناً باسم التدين، بالرغم من وجود كثرة من النساء في تاريخ الإسلام اللاتي وصلن إلى درجة الإجتهاد، وشكلن حلقات درس عديدة، وألفن كتباً علمية وأخلاقية مفيدة. أما الفتيات اللاتي حرمن من المدراسة بسبب الفقر، وانشغلن بالعمل في بيوت آبائهن وأزواجهن، فهن يستحقّن

كل إحترام وتخليد.

ولكن الأدعى بالسخرية من هذا الدور وهذا الوضع هو نوع آخر من النساء، يجب تسميته بـ «المرأة اللاشئ» وهي «سيدة البيت». ظاهرة رهيبة، وهي ليست المرأة البدوية والريفية في بلادنا، التي تعمل في رعي القطيع والاهتمام بالمزرعة مع الرجل، ولها دور في الإنتاج والدخل العائلي، بالإضافة إلى عمل البيت، تعجن، تعطي العلف، تحصد، وتقطف الفاكهة والعنب والقطن و...، تحلب البقر والماعز، وتصنع الزبدة، واللبن والجبن وأشياء أخرى كثيرة، إما أن تستفيد منها في بيتها أو تبيعها، تندف القطن والصوف، فتغزل الخيوط وتحوك، تخيط الملابس، وربما إنشغلت بعمل فني كالحياكة أو الأشغال اليدوية الأخرى.

إذن فهي زوجة ومرضعة، وأم وعاملة، وفنانة، وربة بيت، وممرضة، تعيش مع براعم حديقتها وتعشق طيور صحرائها، فتنجب الأطفال بكل إخلاص، كغزلان الصحراء. وتقوم بدور الأم، وتبقى وفية لشريكها كأنثى الحمام، واهبة حريتها إلى رفيقها وشريك حياتها مقابل الحب، (نعم، نهبها، لأنها تمتلكها، وهم لايسلبونها إياها، كي تهرب في أول فرصة). كما نراها أخيراً وقد نثرت البذور بأناملها في المزرعة، وهدهدت إبنها بنفس الأنامل في البيت، وأراحت زوجها في فراشه ليلاً. وفي السوق خلقت أجمل معجزات اللون والرسوم.

و«المرأة اللاشيء» ليست المرأة الأوربية أيضاً، المرأة التي تشارك في الحياة الزوجية «ذات الزوجين»(Monage)، ويكون فيها الرجل والمرأة

ندين متشابهين، يعمل كلاهما خارج البيت وفي داخله، إذا كانت فتاة فشأنها شأن الفتى، حرة، ترى كل شئ، وتتعرف على الحسن والسيء، الخيانة والخدمة، وكل ألوان وأسرار الحياة والمجتمع، وتدرس كالفتيان وتتنزه، وتمارس الرياضة، وتتعرف على الكتاب والقلم والفن والفكر ودروس الحياة، وتتخصص في عملٍ ما، وعندما تصل إلى الإستقلال الإقتصادي والإجتماعي، تختار رفيقاً لها «كزوج» و «شريك حياة». المرأة اللاشئ، ليست أيضاً ربة البيت، المرأة التي كبرت في بيت أبيها فقط وانشغلت بادارة المنزل في بيت زوجها، ترعى زوجها وأطفالها، وتطبخ وتدير كل الأمور. المرأة «اللاشيء» هي تلك المرأة الجالسة في بيتها، والتي لاتصلح إلاّ لإدارة البيت ورعاية الأطفال، لكنها وبسبب يسرها المالي تمتنع عن هذين العملين، فتستخدم خادمة وغلاماً ومرضعة، يقومون بهذه الاعمال عنها. وبما أنها ليست قروية فهي لاتنتج في المزرعة، وبما أنها ليست بدوية فهي لا تشارك زوجها التفكير بدوابه، وبما أنها ليست أوربية فهي لاتعمل خارج البيت، ولأنها أمية فهي لاتفكر، ولا تقرأ الكتب ولاتكتب، ولأنها لم تتعلم، فهي لاتعرف أي فن وأي صنعة، وبسبب وجود المرضعة، فهي لاترضع أطفالها، كما أنها لاتشتري لوازم البيت لوجود الغلام، ولاتقوم بأعمال المنزل لوجود الخادمة، وتتخلى عن رعاية إبنها وتمريضه لوجود المرضة، ولاتطبخ، فالطباخ موجود، ولاتفتح الباب لأن جهاز ال « F.F » الأتوماتيكي يغنيها عن ذلك. فأي كائن هذا؟ ماذا تعمل هذه المخلوقة؟ وما دورها في هذا العالم؟ لاشيء!

ولكن هل يمكن أن توجد إمرأة لايمكن تصنيفها مع أي صنفٍ من نساء الشرق و الغرب قديمه وحديثه؟ لاهي إمرأة مزرعة، ولا إمرأة صحراء، لا إمرأة وظيفة ودائرة، ولا إمرأة معمل، لا إمرأة مدرسة، ولا إمرأة مستشفى، لا إمرأة فن، ولا إمرأة علم وكتاب وقلم، ولا إمرأة بيت ورعاية أطفال، ولاهي حتى أكثر أنواع النساء إبتدالاً أي «إمرأة اليوم»!، أجل إنها «إمرأة ليلة الجمعة».

ياترى ما هو عمل نساء كهذه؟ هن «سيدات بيوت» وما هو شغلهن؟، الإستهلاك، والإستهلاك فقط.

كيف يقضين أوقاتهن؟ أوقاتهن؟! إنهن أكثر النساء انشغالاً، حتى أكثر من تلك المرأة القروية التي تقطر فناً وجهداً،! ولكن ما هو عملهن على سبيل المثال؟ الغيبة، الحسد، التظاهر، الزينة، التنافس، كيل التهم، التكبر، الإدعاءات الفارغة الزهو، التذمر، الدلع، الغمز، والكذب.

ودائماً كانت هذه المرأة مشغولة، وكان بامكانها بالإستفادة من أسلوب الحياة القديمة، أن تملأ هذا «الفراغ» الرهيب في حياتها، أين؟

كانت «حمامات النساء» سابقاً، قاعات مؤتمرات تشترك فيها كل النساء المحترمات والمخدرات، اللاتي جعلهن الترف، والبطالة، جميعاً على نفس المستوى ونفس الطبقة، وبنفس الحاجات، فيجلسن ساعات طويلة، معاً، يوماً كاملاً في الاسبوع، كي يبدأن بالحديث واحدة، واحدة، عن مغامراتهن طوال الأسبوع المنصرم، مغامراتهن التي ربما تكون من صنع خيالهن فقط، فيبدأ الزهو والغرور والتفاخر من أجل الهروب من العقد النفسية والإحساس بالنقص والفراغ الذي

يعانين منه! والعجيب أنهن جميعاً يعلمن بكذب حكايات بعضهن، ولكنهن ينصتن باعجاب وحماس. كي يضطررن الأخريات للإنصات إليهن بنفس الإعجاب عندما يأتي دورهن.

أما الآن فقد أغلقت هذه الحمامات الخاصة بنساء الطبقة المترفة، وجاءت الحضارة الحديثة بالحمامات المنزلية فحرمتهن من قاعات مؤتمراتهن، ولكنها فتحت بديلاً عنها، «إتحادات نسائية» متنوعة وباسماء مختلفة، فدعت النساء المحترمات العديمات الفائدة من بيوتهن إلى هذه الحمامات الباردة الخالية من الماء والبخار.

كما أن الإحتفالات الدينية وشبه الدينية القديمة قد بدأت تتوقف، ومجالس النذور والتعازي وحفلات ذبح العقيقة والأضحية، والولادة ونشاطات البحث عن عروس وإصطياد الأصهار ـ التي كان بامكان هذه المرأة فيها أن تخفى وحدتها وبطالتها تحت غطاءٍ من الدين والتقليد والعادة، وتعطيها إحساساً بايجابية وجودها، وشعوراً بالمسؤولية والأهمية، ومجالاً واسعاً لعرض الجمال والموضة والجواهر وإستعراض مفاخر عائلتها ـ قد بدأت ألوانها تبهت، فلا تشارك فيها الفتيات الأصغر سناً إلاّ بالاكراه، وللمجاملة، ويتخذن فيها وجهاً بارداً، مستغرباً، يهم بالفرار كل لحظة وفي أول فرصة.

إن بنت هذه المرأة ـ الخاصة بجيل وفصل آخر ـ تعيش في «عالم برزخ»، فعالم «السيدة الكبيرة» بالنسبة لها ليس إلاّ مجموعة من الحماقات الرسيمة والمجسمة، والشعوذات القبيحة الخانقة!

فالجلسات والحلقات والموائد تدعوها للبقاء في عصر التخلف،

وهي متجهة بكل وجودها للكتاب والترجمة والرواية والآثار الأدبية المعاصرة والفنون الجديدة، وقد أحست شيئاً ما، بروح ثقافة العالم، واستنشقت جو الدراسة والعالم والتطور في المدرسة، أما خطب الولائم ومجالس التعزية النسائية ـ والتي غالباً ما يديرها مداحون وقراء أميون ـ فلا تستطيع تحملها وبالذات ذيولها وتبعاتها المتعبة.

تريد أن تهرب، ولكن أين؟ فالصوت الذي يصلها من الجهة المقابلة يأتيها من المراقص والحفلات المختلطة والحانات والنوادي الليلية والمقاهي الملوثة، تنتظرها فيها، مجموعة لاتراها إلاّ «كصيد جنسي مجاني».

ولكنها تريد أن تبقى وفية لشخصيتها الإنسانية وإيمانها وأخلاقها، إلاّ أنها ترى ماتعرضه عليها أمها وأخلاقها وطباعها وخطيب حارتها سلسلة من «اللا» «لا تذهبي»، «لاتفعلي»، «لاتنظري»، «لاتقولي»، «لاتتعرفي»، «لاتكتبي»، «لاترغبي» و«لاتفهمي».

نلاحظ أن الأم تعيش في فراغ وعبث مترف، لاهدف لديها، لامسؤولية، لافلسفة لحياتها، ولا معنى لوجودها... لديها المال، ولكن ليس عندها أي إهتمام، ولاشيء يملؤ عليها فراغ عمرها، وليالي وأيام بيتها التي تتكرر، فتضطر للخروج من أجل الشراء، فتهرب من شعورها بالنقص بافراطها بالتزين والتحلي تحت عباءتها، وبالمشتريات الغالية التي تثيرها وتثير الآخرين معها.

ولكن هذه العجائب لاتثير إبنتها، لأنها تتنفس في جو آخر، وهي كدمية ابتليت بين يدي طفلين أحمقين، لايفهمان شيئاً، وكل واحد منهما يجرها نحوه بشدة، حتى تتفتت وتتحول إلى قطع

متناثرة... ولاشئ...!

ونشاهد أنها تفتتت وتتفتت!

قلبها الآن معلقٌ بالسماء الملونة الرومانسية لخيالات الشباب ومظاهر الفتوة والحرية والحب، ووساوس الجنس، وأزمات الفتوة والشباب، وتصاوير دنيا جديدة ـ تسير خلف جدرانها، وتسترق النظر إليها أحياناً من نوافذ وثغرات ضيقة أما جسدها فأسير كذبابة بين خيوط عنكبوتية معقدةمن أوامر ونواهي أمها وأبيها، تكرر عليها دائماً «لا، لا، لا» تشعر أنها وبجريرة كونها فتاة، ليست إلاّ «بضاعة مهرَّبة خطرة» يجب أن تخفى في ركن البيت تنتظر «المهرِّب الشرعي» كي يأتي إليها وينقلها إلى «بيت الحريم» الخاص به، وهناك لاتجد ساحةً لتحركها إلاّ المسافة بين المطبخ والفراش، لأن الذي يهبها فلسفتها الوجودية ورسالتها الإنسانية لاشئ إلاّ بطن الرجل، وأسفل بطنه! أما الرجل فلايشركها حتى في جلساته وعواطفه الدينيه، الدين، أيضاً، أصبح في هذا النظام، فكراً، مقسماً إلى قسمين رجالي ونسائي، فذكر المسائل الفقهية، والبكاء، والعويل واللطم والمائدة، هو دين النساء، والحوزة والمنبر والمدرسة والمكتبة والدورس والبحث والمحاضرات دين الرجال!

نداء الإستعمار:

كم هو واسع هذا المجال الذي يهيؤنه للإستعمار كي يقف فيه هاتفاً:

ـ لتتحرري!

ـ ممن؟ ومن أي شئ؟

ـ لاتسـألي من أي شئ، إنك تختنقين، لاشيء لديـك، محـرومة! تحرري! تحرري من كل شيء!

والراقد تحت أثقـل الأحمال والأوزان، يوشك أن يخـتنق، لايفكر إلاّ بنفس الخلاص والنهوض من تحت هذا الضغط، لابكـيفية الخلاص وكيفية النهوض؟

تتـحـرر المرأة، ولكن، لابالكتـاب والعلم وإيجـاد الثـقـافـة والوعي عندهـا، وإرتفـاع مـستـوى الإدراك، والرؤيـة، بل بالمقـص! بقص الحجاب، وخلعه!

وتصبح المرأة مثقفة دفعةً واحدة!

لقد باتت عُقد المرأة المسلمـة ـ والشرقية ـ أكبـر الحجج عند علماء النفس وعلماء الإجتماع ولخـدمة الإستعـمار والإقتـصاد الدولي، ومن أجل أن يعرفوا المرأة بهذا الشكل:

«المرأة حيوانٌ، يَشتري»!

فـيتـحـول التعـريف الذي أدلى به أرسطو عـن الانسان ـ الانسـان حيـوان ناطق ـ في المرأة إلى «الانسـان، حـيـوان يشـتـري». ولا تجـيـد غـيـر هذا شـيـئـاً، لا شـعـور لديهـا، ولا دور ولا مـعنى، ولا غـاية و... لا حتى أية قيمة.

كـتـبت إحدى المجـلات النسـوية الشـرقـيـة أن إستـهـلاك وسـائل الزينة قـد تضـاعف من عام ١٩٥٦، ٥٠٠مـرة، وكـذلك مـؤسسـات

التجميل.

هذا رقمٌ كبير جداً، أمرٌ خارق! لم يسبق له مثيل طوال تاريخ البشرية. إن إستهلاك السلع الإقتصادية يرتفع ٨٪، ٩٪، ١٠٪ أو ٢٠٪، لا ٥٠٠٠!! إنه رقم خيالي، ويعني أنه إذا كان إستهلاك مسحوق التبييض وأحمر الشفاه والرموش الإصطناعية، في طهران مئة ألف تومان، يجب أن يكون قد أرتفع الى ٥٠ مليون تومان و أذا كان عشرة ملايين تومان فلابد أن يكون قد أرتفع إلى خمسة مليارات!

وبالطبع إذا إستمر التصاعد مطرداً هكذا، من عام ١٩٦٦، إلى يومنا هذا،... لا، لا أستطيع التصور أبداً،

في كل مجتمع، عندما تتغير سلعة إستهلاكية تتبعها سلع أخرى، فمثلاً إذا تغيرت العباءة، وحلت محلها البدلة، فعليه، يجب أن يتغير النعال كي يصبح حذاءً، والقبعة المحلية كي تصبح قبعة أوربية، وفي البيت تحل الكنبة والكراسي مكان السجادة وتنهار البناية القديمة ويقام على حطامها بناءٌ جديد.

اذن، عندما يأتينا الأوربي ببضائع إستهلاكية جديدة، يفتح الباب، واسعاً لبضائع غيرها، تتبعها، وعندما تتغير نوعية الإستهلاك، يدل هذا على أن الإنسان ـ المستهلك ـ سيتغير أيضاً، لأن هنالك علاقة وثيقة وأساسية بين الإستهلاك الإقتصادي والمستهلك.

فمن أجل تغيير نوعية الإستهلاك، يجب في البداية، تدمير الأذواق و التقاليد التاريخية و الإجتماعية، و لهذا أحرقت الرأسمالية،

القيصرية، من أجل منديل!

والمرأة، في المجتمعات الإسلامية، يجب ألا تكون مستهلكة للسلع الواردة من أوربا وأمريكا فحسب، بل عليها أن تؤثر تأثيراً جذرياً عميقاً على العلاقات الإجتماعية، على جيل اليوم والغد، على شكل المجتمع، على أخلاقه، قيمه وأدبياته، فنه وعقيدته، وكل شئ.

إن إقتضاء العصر، الثقافة، الإمكانات الإجتماعية، الإقتصاد الجديد، التحول في العلاقات الإجتماعية، الفكر الجديد وكل شئ، في المجتمع الإسلامي، يؤثر تلقائياً على تغيير الأشكال والأنماط والتقاليد، فتضطر المرأة لتغيير روحها وقالبها وتقاليدها الظاهرية والباطنية، فظروف الماضي غير ممكنة وغير كافية لإمرأة اليوم!

الآن، وقد اقتضت الضرورة أن تتغير المرأة، في حين يعيش مفكرو ومثقفو المجتمع في غفلة، أليس من الأفضل أن أنشط أنا ـ الرأسمالي ـ واهيئ قوالبي، كي أدخلها فيها متى تحررت من قوالبها التقليدية القديمة، فأصنعها كيف أشاء، وعندها آمرها بتفكيك مجتمعها بدلاً من قيامي انا بذلك العمل وتكون حسب تعبير فرانكو المشهور «طابوراً خامساً» أي قوى أجنبية في الداخل!

ماذا يجب أن نفعل؟

ماذا علينا أن نفعل تجاه هذا التحول الفكري المفروض علينا؟ ومن الذي يستطيع أن يأخذ على عاتقه هذه المسؤولية العظيمة؟

إن التي تستطيع أن تقوم بعملٍ مفيد وتساهم في الإنقاذ

ليست هي المرأة التقليدية الراقدة في القوالب القديمة بهدوء وإنقياد، ولا هي المرأة الدمية الحديثة، التي اشبعت وغذيت في قوالب الأعداء،بل تلك المرأة التي تكسر التقاليد القديمة المتحجرة - التي تحكم على روح المجتمع وفكره وسلوكه باسم الدين ولكنها في الواقع ليست إلاّ تقاليد قومية ورجعية - وتستطيع أن تنتخب خصائص إنسانية جديدة، وهي تلك المرأة التي لا ترويها تلقينات القدامى، كنصائح وراثية ميتة، ولاتخدعها الشعارات المستوردة المخادعة، وترى بوضوح خلف اقنعة الحرية، وجوهاً كريهةً، لا إنسانية و لا أخلاقية تعمل ضد استقلال الإنسان ومعنوياته وحرمة المرأة.

إمرأة كهذه تعرف من أين يصب علينا البلاء ويفرض علينا كل هذا العناء؟ وأية أيدٍ تفعل ذلك؟ وأي سلع أرسلوا إلى الأسواق؟ دمى نظيفة وأنيقة و «لائقة»؟ وواضح لياقتها لأي شيء بلا إحساس، بلا إدراك، ولا إهتمام، ولا فهم، ولامسؤولية، وحتى بلا أي عاطفة إنسانية، ووعي بشري، واضحة المقاييس التي يعرضونها على المرأة عندنا، وواضح أيضاً، لأي سبب؟

وقضية «كيف يجب أن نصبح» تهم النساء اللواتي، لا يرغبن أن يبقين «كذلك» ولا يردن أن يصبحن «هكذا» ولا يستطعن، الإستسلام لكل ما كان ولكل ماهو موجود، بدون إرادة ولا إختيار.

إنهن ينشدن قدوة.

من؟

فاطمة.

فاطمة، هي رابع بنت لنبي الإسلام«ص» وصغراهن[1]، إنها آخر بنت لأسرة لم يبق لها أي صبي، وأيضاً في مجتمع يرى قيمة كل أب وكل عائلة بالمولود«الذكر».

لقد كان النظام القبلي العربي قد تجاوز عصر «سلطة الأم» وكان يعيش في أيام الجاهلية القريبة على «البعثة النبوية» في عصر «سلطة الأب» وكانت «الآلهة» قد أصبحت ذكوراً. والأصنام والملائكة اناثاً[2] (أي بنات الاله الأكبر ـ الله) وحكومة القبيلة، يتولاها (الشيخ). وحكومة العوائل والأقارب، (الجد)، و غالباً ما كان الدين عندهم، عادة آبائهم، وتقاليدهم، ومعيار صحة وسقم إيمانهم وعقيدتهم هم، أباؤهم.

لقد ثار كل الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم على هذا الدين «دين الآباء والأجداد»، فوقف كل منهم، بوجه «الثورة ضد عبادة الأجداد» و «التدين بأساطير الأولين»، حيث كان هذا الوقوف «رجعة تقليدية، وموروثة» تعتمد على أساس «عبادة الآباء» وكانت ثورة الأنبياء هي «بعثة ثورية، واعية وفكرية» على أساس

---

(١) بالترتيب: زينب ورقية(ذات الهجرتين، إلى الحبشة والمدينة) وأم كلثوم.

(٢) واتخذوا من الملائكة إناثاً... (الإسراء ٤٠)، «ثم يسمون أصنامهم بأسماء إناث زاعمين أنها بنات الله».

«عبادة الله»[1].

علاوة على هذا، كانت الحياة القبلية، بالذات في الصحراء القاسية، والحياة الصعبة، والعلاقات القبلية العدوانية، التي كانت مبنية على أساس «الدفاع والهجوم» والعهود والمواثيق، حياة كهذه، كانت تهب «الذكر» موقعاً متميزاً، كركيزة قتالية وإجتماعية، تعتمد على «الفائدة والحاجة»، ولكن وبناءً على قانون إجتماعي كلي، تتحول «المنفعة» إلى «قيمة»، فتصبح نفس ميزة «الذكورة» فضلاً له «قيماً» معنوية وشرفاً إجتماعياً وأخلاقياً وإنسانياً، ولنفس هذا السبب، وبنفس النسبة، «تحتقر» نفس «الأنوثة» ويتحول فيها «الضعف» إلى «ذلة» و «الذلة» إلى «أسر» و «الأسر» يضعف قيمتها الإنسانية فتصبح مخلوقة، «مملوكة» للرجل، عاراً على الأب، ألعوبة الشبق الجنسي للرجل. «ماعزاً»، «أو عبدة بيت الرجل»! وأخيراً، كائناً، يخشى «الرجل الغيور» دائماً أن «يأتيه بعار» فيقوم لأجل الإستراحة من شره، بوئده حياً منذ الطفولة، كي لا يلوث شرف أبيه وجده وأخيه العائلي! وكما يقول الشاعر العربي.

لكل أبٍ بنت يرجى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهرُ
فبيت يغطيها، وبعل يصونها وقبر يواريها، وخيرهم القبرُ

ويبدو أن هذا التعبير، الذي يسمي «القبر» صهراً، متداول عند

---

(١) تتكرر هذه القاعدة في بعثة الأنبياء كثيراً في القرآن الكريم، أي التضاد بين «عبادة الماضي الأبوي» و «عبادة الله الواعية». «وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون». «البقرة، ٧٠».

كثير من «الرجال الغيورين!» وكل أخ أو أب، يغار على شرف عائلته ويفهم «العار والشرف»!، ينتظر «الموت» حتى يأتي «خاطباً» لأخته أو إبنته، كي يضع يد العروس «بيد» هذا «العريس» الرهيب، منتخباً لها «أفضل الأزواج» حيث يذكر شاعر آخر، أحب أصهاره إليه قائلاً:

أحب أصهاري إليّ «القبر»!

لأن القانون الذي كان شائعاً آنذاك هو:

«دفن البنات من المكرمات».

ولهذا يذكر القرآن الكريم، رجالاً كهؤلاء بلهجة لوم وتأنيب: «وإذا بشر أحدهم. بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم».

لقد اكتشفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» الكاتبة الإسلامية المعاصرة[1] نقطة مهمة في القرآن الكريم، وهي أن لهذا التقليد

---

(١) الأستاذة في جامعة «عين شمس»، والكاتبة التي وهبتها «الحقيقة» شجاعة جعلتها تتحرر من التزمت الأحمق والتأثير المخادع، ووهبها «العلم» قدرة أمكنتها من التخلص من قيود التلقين الفرقي والتربية البيئوية المحيطة بها، فتلافت قصور وإهمال الشيعة، بالرغم من كونها سنية، في إحياء ما ندعي إحياء بالبكاء والنحيب، والكذب وإتهام الآخرين، وما نسميه زوراً إظهار المحبة لآل البيت، وما هو في الحقيقة ليس الا «التفرقة وخداع الناس وتحريك التزمت والعصبيات الفرقية والطائفية بين المسلمين». فخصّت قلمها المتميز بالروح العلمية وأسلوب التحقيق والسلاسة وفي نفس الوقت بالدقة الفكرية والرقة العاطفية، خصته بالتعريف بآل النبي (ص)، ومن آثارها: «أم النبي»، «نساء النبي»، «بنات النبي»

أساساً جذوراً إقتصادية وكان الخوف من الفقر هو الذي روج لها في المجتمع الجاهلي العربي، وهي تؤيد هذه الفكرة التي يعتقد بها أغلبية علماء الإجتماع المعاصرين، القائلة أن العقائد والعواطف والحساسيات الأخلاقية والمعنوية وبحث «القيم» المعنوية في قضية «المرأة والرجل» و«الصبي أو الصبية» من قبيل العار والحمية والغيرة والأفضلية والشرف وأرجحية الذكر، وذلة وإستكانة وضعف الأنثى، و وأد البنات خوفاً من مجيئهن بالعار في المستقبل، أو خوفاً من أسرهن في الحروب والغزوات، أو كما يقول ـ قيس بن عاصم ـ خشية زواجهن بأشخاص عديمي الكفاءة كلها أمور ثانوية والأصل هو العامل الأقتصادي، وكما أشرت سابقاً إلى أنه في النظام القبلي وبسبب فظاظة الحياة والإنتاج (بالأخص في صحراء الجزيرة العربية) والعداء الدائم بين القبائل، المحتاج بشدة إلى القوة وقدرة العضلات، يتحول «الصبي» تلقائياً إلى عاملٍ إقتصادي ودفاعي وإجتماعي ضروري للعائلة أو القبيلة، وهو الذي يأتي بالخبز، والبنت تأكل فقط، طبيعي، ان إختلاف الجنس يصبح ملاكاً إقتصادياً طبقياً، فيصنع الرجل الطبقة الحاكمة والمالكة وتصنع المرأة الطبقة المحكومة والمملوكة،

«الزهراء بنت النبي»، «سكينة بنت الحسين» و«زينب بطلة كربلاء».

تعرفت عليها صيف هذا العام صدفةً، فقالت: «لقد جعلني حبي لآل النبي، هذا الحب الذي نذرت له كل حياتي عملي وفكري، أتمنى هذه الأمنية بقوة، وتزداد يوماً بعد آخر وهي أن أتعرف على إيران وأتعلم اللغة الفارسية... كي أستفيد أكثر من بحوث وآثار علمائكم حول هذه الوجوه «الزهراء، زينب، وسكينة بنت الإمام الحسين (ع) وخديجة وفاطمة أم علي (ع)». بالطبع لم أجد لها جواباً.

وتصبح العلاقة بين المرأة والرجل علاقة والٍ ورعية، فتخلق هاتان القاعدتان الاقتصاديتان لكلا هذين «الجنسين» «قيمتين» إنسانيتين و معنويتين مختلفتين، كما تحمل الأملاك الإقتصادية في عائلة ما، بعد فترة معها، الشرف الوراثي والعرقي والقيم الأخلاقية والذاتية والفضائل والكرامات، على عكس الفقر الذي يذرو كل هذه الأشياء في الهواء!

لهذا يُصبح إنجاب البنات عاراً، وسبباً في الشعور بالحرج وفي خشية زواجها من رجل ليس كفؤاً للعائلة، وفي رأيي، فان هذا الخوف - والذي هو ظاهرة أخلاقية - ناشئ عن عامل إقتصادي وصريح، وهو حفظ الأملاك واستمرار تمركز الثروة في الجيل القادم للعائلة، ولهذا السبب كان الصبي الأكبر هو الوارث الوحيد لأبيه في عصر «سلطة الأب»، وارث كل شئ، وحتى نساء أبيه، ومن ضمنهن أمه. ولنفس السبب حرمت الفتاة من الإرث، كي لا تقسم ثروة الأب بعد وفاته، ولا تتبعثر مع بناته في عوائل أخرى، خارج عائلته، وهكذا نرى بعض عوائل الأشراف المحافظة القديمة تصر على الزواج في داخل العائلة وبين أبناء وبنات العم.

فلذلك كثرت التبريرات والتعليلات التي طرحها المؤرخون القدامى والمحققون المعاصرون لتاريخ الأديان، في باب «وأد البنات» في الجاهلية، من قبيل الخوف من العار وخشية التزوج بغير الكفء، أو حسب قول بعض المؤرخين. ذبحهن قرابين للآلهة.

ولكن القرآن، يقول كلمته، بصراحة ووضوح:

إن السبب هو الخوف من الفقر، أي العامل الإقتصادي، وبقية

الأحاديث ليست إلاّ كلاماً فارغاً، في رأي ان هذا التصريح الوارد في القرآن الكريم، لم يأت من أجل فضح وإحراج الذين يئدون بناتهم ويبررون ذلك بقضايا الشرف والعفة والعرض والغيرة، فيضفون على هذه القسوة الناشئة عن الخسة والدناءة والخوف من الفقر وعبادة المال والحاكية عن الجبن والضعف وجهّاً أخلاقياً غيوراً «ولاتقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم» (الانعام ١٥١)

«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً» (الاسراء ٣١).

ولكن، وفي نفس الوقت، وكما ذكرت سابقاً، فان القرآن الكريم ينشد من وراء تكراره «نحن نرزقكم وإياهم» «فلا تقتلوهم خشية أملاق» غايتين، أولهما بيان العلة البعيدة لهذه الفاجعة وكشفها للناس، والثانية هي إنكار ونفي الإدعاءات الكاذبة في تبرير هذا العمل، من قبيل الغيرة، والحمية، والحفاظ على الشرف، قائلاً بصراحة ان هذا العمل لايمت بأي صلة للشرف والأخلاق بل هو إقتصادي ١٠٠٪، ناشئ من الطمع والخوف. وإلاّ فان الرأي العام لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحقيقة إلاّ عند البعض وبالذات من الطبقة الفقيرة، فكان الجميع يعتبرها مفخرةً وشرفاً ودليلاً على الغيرة والشهامة، إذ أن ضمير المجتمع القبلي العربي، يهب «الذكر» كل المزايا والفضائل الإنسانية، ويحسب «الأنثى» فاقدة لكل فضل وأصالة إنسانية «فالولد» ليس عامل كسب وثروة فقط أو ساعداً للأب، وحامي القبيلة في الغزوات، بل وارث كل مفاخر الآباء ولأجداد وحامل كل القيم

العرقية والاستمرار الأكيد لوجود العائلة الإجتماعي والمعنوي وحافظ الإسم واللقب بعد موت الأب، أما البنت فهي «مُعالة»، أثاث حي في بيت الأب، تنصهر شخصيتها بعد الزواج في عائلة غريبة، أثاث بيت غريب، لاتستطيع فيه حتى الإحتفاظ بلقبها، أبناؤها يخصون عائلة أخرى، لهذا كان «الولد» قدرة مادية، ورأسمال اقتصادياً، وساعداً إجتماعياً وعوناً مقاتلاً لأبيه، وأيضاً، زينة حياته، وإحترامه، وشهرته، وإعتباره الإجتماعي، ومقامه المعنوي، وظهير أصالة الأسرة، وضامن بقائها وإقتدارها في المستقبل، أما «البنت» فلا شيء!، «عورةٌ» ضعيفة إلى درجة يجب دائماً أن يدافع عنها، ومعيقاً للمحاربين في القتال، وفي الدفاع، هنالك دائماً هاجس وقوعها أسيرة بيد العدو، وربما تسبيبها لفضيحة أو وصمة عار تبقى دائماً على جبين شباب القبيلة، وبعد كل هذا التعب والمصارف والخوف والهواجس، تصبح صيداً سهلاً لشخص آخر، ومزرعة يزرع فيها الغريب ويحصد!

فلهذا كانوا يفضلون ـ بطبيعة الحال ـ قتلها متى ما ولدت، وزفافها للصهر الصامت الرهيب. القبر !

والرجل الذي لا «صبي» عنده. أبتر، عقيم، بلا إمتداد، ولا إستمرار و«الكوثر» تعني الإمتلاد، والكثرة والخير والبركة، وكثرة الذرية التي بشربها اللّه جل وعلا نبيه الحبيب، رداً على نعت الكفار له بالأبتر.

في جو كهذا وعصر كهذا، كان التقدير وراء ستار الغيب، يعمل حثيثاً، من أجل خلط كل شئ، وانهيار كل شئ، وخفية، يخطط

لثورة تقتلع الجذور، وعاصفة تثير كل شئ في هذا المستنقع الراكد العفن. وفجأة، كشف عن خطة رائعة، ولكن صعبة، انتُخِبَ لتنفيذها وجهان، أبٌ وإبنته.

على محمد أن يتحمل العبء الأكبر فيها(الأب)، وعلى فاطمة أن تبرز في شخصيتها خلق قيم ثورية جديدة(البنت).

كيف؟

قريش، أكبر قبيلة عربية، حافلة بالمفاخر الدينية والدنيوية ووجه شرف القوم وعزتهم، عهدت بكل مفاخرها لأسرتين، بني أمية وبني هاشم، كان بنو أمية أكثر ثروة، ولكن بني هاشم كانوا أكثر مقاماً وإحتراماً، وعزة، إذ أن سدانة الكعبة كانت من نصيب هذه العائلة، وشيخ قريش عبدالمطلب، منهم، أما وقد مات عبدالمطلب، فان أبا طالب لايملك نفس نفوذ أبيه وقدرته، خسر في التجارة أيضاً، فقسم أولاده بين أقاربه لشدة فقره.

كانت هنالك منافسة عنيفة قائمة بين هاتين الأسرتين، وكان بنو أمية يحاولون جهدهم، إمتلاك كل شيء، كل مفاخر ومناصب قريش، وكذلك، يهزمون بني هاشم معنوياً ونفسياً، أما الأسرة الوحيدة من بني هاشم التي كانت قد بدأ يحيطها أعتبار و مكانة جديدة، فهي عائلة محمد، حفيد عبد المطلب، الذي قويٌّ مركزه الإجتماعي بزواجه من خديجة سيدة مكة الشهيرة والثرية.

كما أن رزانة شخصيته وقوتها وأمانته، والمكانة التي حصل عليها محمد بين الناس، وبالأخص بين بني هاشم ورجال قريش، لفتت

الأنظار إليه وجعلتهم يرون به مرآة مفاخر عبدمناف، وحارس عزة بني هاشم، وبالأخص محيي إعتبار عبدالمطلب، فحمزة شاب بطولي، متهور، وأبولهب رجل لاقيمة له، والعباس ثري بلاشخصية، وأبوطالب رجل ذو شخصية ولكنه فقير، ومحمد هو الوحيد الذي كان ذا شخصية نافذة هو وزوجته، مع شبابه، وصاحب ثروة لايستهان بها، فعلى شجرة بني هاشم أن تورق وتتفرع من هذه الأسرة، وتلقي بظلالها على كل مكة. الكل ينتظر أن يولد في هذا البيت «فتية أشاوس» يهبون آل عبدالمطلب. وعائلة محمد، القدرة والإعتبار، والقوة.

وكان المولود الأول بنتاً! زينب.

ولكن العائلة تنتظر صبياً.

المولود الثاني بنتٌ أيضاً: رقية.

اشتدت لهفة الإنتظار وازدادت الحاجة.

الثالث: أم كلثوم.

وفجأة صبيان، القاسم وعبدالله، كانت تلك بشارة كبيرة، ولكنهما أفلا قبل أن يلتمع نجمهما في سماء العائلة، ولم يبق في هذه الأسرة إلا ثلاثة أطفال، كلهم بنات.

كبرت الأم، وتخطى عمرها الستين، والأب، وإن كان يعتز ببناته، ولكنه يشارك قومه عواطفهم وحاجتهم وإنتظارهم.

هل ستأتي خديجة التي قارب عمرها على النهاية، بطفل؟ كان الأمل ضعيفاً جداً أجل! إلتهب الحماس والأمل في هذا البيت، وتأجج إلى آخر حد، هذه أخر فرصة لعائلة عبدالمطلب، وآخر أمل، ولكن...

إنها بنت، مرة أخرى!

سميت البنت«فاطمة».

إنتقل الأمل والحماس، الى بني أمية وانتشرت الهمسات الشماتة والاستهزاء في وسط العدو المتربص. و سُمي محمد «بالأبتر»، الرجل الذي كان أخر حلقة في سلسلة أسرته، يملك عائلة «بأربع بنات» فقط!

وعجباً للقدر، كيف يلعب لعبة رائعة وجميلة، وعجيبة، تمضي الحياة، فيغرق محمد في السيل الذي أثارته رسالته ويصبح نبياً، ومحرراً لمكة، وتصبح قريش كلها أسيرة بيده فيحررها، ويسمي الذين يحررهم «بالطلقاء»، وترضخ كل القبائل لطاعته، فتمتد ظلاله الوارفة على كل شبه الجزيرة، ويخدش سيفه وجوه كل إمبراطوريات الدنيا، ويطير اسمه في الأرض والسماء حاملاً القدرة بيد، وباليد الأخرى النبوة، حافلة بالامجاد والنصر الذي ما كان يخطر على بال أحد من بني أمية أو بني هاشم. والآن، ذلك هو محمد، نبيٌّ، في المدينة. في ذروة الجلال والقدرة والعظمة التي يمكن لإنسان أن يتصورها. شجرة، نبتت، لامن عبدمناف وهاشم وعبدالمطلب، بل من النور. في أعماق الجبل، في حراء، وكل الصحراء، ماذا أقول؟ بل كل آفاق الدنيا...! وحتى كل سعة الزمن، تحتوي كل المستقبل حتى نهاية التاريخ، وستحتويه وهذا الرجل، لديه أربع بنات.

ولكن لا، فثلاث منهن توفين قبل وفاته.

والآن، لابنت عنده إلاّ واحدة، وهي صغراهن.

فاطمة.

وارثة كل مفاخر أسرتها، وريثة نُبلٍ جديد لا ينشأ عن الأرض والدم والمال. بل ظاهرة وحي، صنيع الإيمان والجهاد والثورة والفكر والإنسانية و...، نسيج جميل، من كل قيم الروح المتعالية. ومحمد لم يرتبط بعبد المطلب وعبدمناف، قريش والعرب، فقط، بل كل تاريخ البشر ووارث إبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وفاطمة، هي وارثه الوحيد. «إنّا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر»

عدوك، أبتر، بما عنده من أولاد عشرة. ونحن أعطياك الكوثر، فاطمة، هكذا تظهر «الثورة» في صميم ضمير الزمن!

الآن، تصبح «بنت» ملاك مبادئ أبيها، وريثة كل مفاخر أسرتها، وإمتداداً لسلسلة كبيرة، تبدأ من آدم و تمر على كل قادة الحرية واليقظة في تاريخ البشرية فتصل إلى إبراهيم العظيم، وتُلحق بها موسى وعيسى، متجهه نحو محمد(ص) كي تنتهي بآخر حلقة في «سلسلة العدل الإلهي» هذه، سلسلة الحقيقة الصحيحة،: فاطمة.

آخر بنت لعائلة طالما انتظرت المولود الذكر.

ومحمد يعرف ماذا تفعل به يد القدر.

وفاطمة تعرف من تكون!

أجل، هكذا، يثورون، في هذا الدين.

في هذا الدين، هكذا يحررون المرأة.

آفليس هو دين إبراهيم وهم وارثوه؟

ليس من حق أحد أن يدفن أي جثة في المسجد، و «المسجد الحرام» هو أعظم مساجد العالم. والكعبة. هذا البيت، الذي هو حرم اللّه، وحريمه، قبلة كل الساجدين البيت الذي بني بأمر ابراهيم الكبير وعلى يده، والبيت الذي كان فخر نبي الإسلام و«رسالته» هي تطهير وتحرير هذا «البيت الحر» والطواف حوله والسجود نحوه. كل الأنبياء العظام في التاريخ كانوا خدمة هذا البيت، ولكن، لم يكن من حق أيٌّ منهم أن يدفن هناك.

بناه إبراهيم ولم يدفن فيه، وحرره محمد ولم يدفن فيه.

وبقي هذا الشرف، حتى تمتع به شخصٌ واحد، في كل تاريخ البشرية، لقد إختار رب الإسلام شخصاً من النوع البشري، كي يدفن في بيته الخاص، في الكعبة، من؟ إمرأة، جارية، هاجر.

إن اللّه يأمر إبراهيم أن يبني أكبر معبد للإنسان. إبنِ بيتي إلى جانب بيت هذه المرأة. وعلى البشر دائماً، أن يطوفوا حول بيت هاجر.

فرب إبراهيم، يختار، جنديه المجهول من بين هذه الأمة الكبيرة، إمرأة، أم، وجارية. أي الكائن المحروم من أي مقام في الأنظمة البشرية.

أجل، هكذا يثورون في هذا الدين.

في هذا الدين، هكذا يحررون المرأة.

فهذا تكريم لمنزلة المرأة.

والآن، مرة أخرى، اختار رب إبراهيم، فاطمة.

تصبح فاطمة «الأنثى» وارثة لكل مفاخر أهلها، وصاحبة مبادئ أسلافها، وإمتداد شجرة نسبها، وإعتبار أبيها، بديلاً عن «الذكر».

في المجتمع الذي لم يكن يرى غسل عار البنت إلاّ بوأدها حيةً، وأفضل الأصهار الذي يتمناه كل أب هو «القبر».

كان محمد يعلم ماذا تفعل به يد القدر.

وفاطمة تعرف من تكون.

لهذا، وقف التاريخ مدهوشاً أمام تعامل محمد مع إبنته الصغيرة، وراكعاً، أمام مديحه غير العادي لها.

بيت محمد وبيت فاطمة متجاوران. وفاطمة هي الشخص الوحيد مع زوجها علي التي تشارك النبي السكن في مسجده. تفصل بين هذين البيتين المتجاورين مسافة مترين، ونافذتان متقابلتان، كل صباح، يفتح الأب نافذته ويحيي إبنته الصغيرة.

كلما سافر طرق باب فاطمة وودعها، فتكون هي دائماً آخر من يودع، وكلما عاد من سفر، كان بيت فاطمة هو أول بيتٍ يزوره، يطرق بابها ويسأل عن صحتها.

حيث يُنقل في بعض النصوص التاريخية أن «النبي(ص)» كان يقبل وجه فاطمة ويديها. معاملة كهذه، تعني شيئاً أكثر من التدليل والحب الأبوي الذي يمكن أن يفيض به قلب أب على إبنته. «أب يقبل يد إبنته». و«إبنته الصغيرة». هذا التصرف يعتبر ضربة ثورية إنهالت على العوائل والعلاقات غير الإنسانية للبيئة هناك. «نبي الإسلام يقبل يد فاطمة».

هذا التصرف يبين بوضوح لأعين كبار الصحابة، وسياسيّي المسلمين وعامتهم عظمة فاطمة الكبيرة. وأخيراً يعلم هذا التصرف كل الناس، والناس دائماً، كيف يتحررون من العادات والأوهام التاريخة والتقليدية، ويعلم الرجل أن ينزل من عرش جبروته وتجبره الفظ، وتفرعنه أمام المرأة، مشيراً إلى المرأة أن ترتفع عن ذلتها وحقارتها القديمة والجديدة في كونها ألعوبة في الحياة، إلى قمة الجلال والعظمة والعفة الإنسانية!

وهكذا، كان النبي يكبر من شأن فاطمة، لا علامة على حبه الأبوي لها فقط، بل «كواجب»، «كمهمة خطيرة»، قائلاً:

- أفضل نساء العالم أربع: مريم، آسية، خديجة، وفاطمة(ع).

- إن اللّه يرضى لرضاك،ويغضب لغضبكِ.

- رضا فاطمة من رضاي، وغضبها من غضبي، من أحب إبنتي فاطمة فقد أحبني ومن أرضاها فقد أرضاني، ومن أغضبها فقد اغضبني.

- فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللّه... لماذا كل هذا التكرار؟ لماذا يصر النبي(ص) على مدح ابنته الصغيرة بهذا الشكل؟ ولماذا يصر على الثناء عليها أمام الناس، وإطلاعهم على حبه الخاص لها؟ وأخيراً لماذا يؤكد دائماً على «غضبها» و«رضاها» ويكرر بهذه الصورة كلمة «أذيتها»؟ إن جواب «لماذا» هذه. وإن كان خطراً وحاداً جداً، إلاّ أنه واضح، فقد أجاب التاريخ على كل شئ، والمستقبل، عمر فاطمة القصير بعد وفاة أبيها

كشف لنا عن سر قلق أبيها.

أم أبيها.

إن التاريخ، دائماً، لا يقصر حديثه على «العظماء» فقط بل حتى أنه يهتم «بكبار السن» فقط، وينسى «الأطفال» دوماً.

كانت فاطمة أصغر أطفال البيت، وإنقضت طفولتها في خضم العواصف والمحن، والمؤرخون يختلفون في تحديد سنة ولادتها، حيث يتفق الطبري وإبن إسحق، وابن هشام على أنها كانت في السنة الخامسة قبل البعثة، بينما يقول المسعودي في مروج الذهب أنها كانت في السنة الخامسة بعد البعثة، أما اليعقوبي فلايذكر التاريخ بدقة، بل يقول إنها كانت «بعد نزول الوحي»، لهذا كان إختلاف الروايات سبباً في إتخاذ أهل السنَّة الخامسة بعد البعثة تاريخاً لذلك.

ولكنني أترك هذه البحوث للمحققين، فأنا تهمني نفس فاطمة، سواء ولدت قبل البعثة أم بعدها.

من المؤكد أن فاطمة بقيت وحيدة في مكة، مات أخواها في الصغر، و زينب، أكبر أخواتها التي كانت بمثابة أم صغيرة لها، أنتقلت إلى بيت أبي العاص فذاقت فاطمة مرارة غيابها، ثم جاء دور رقية و أم كلثوم حيث تزوجتا إبني أبي لهب، وبقيت فاطمة لوحدها، هذا إذا قبلنا بأنها ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة، وفي الحالة الثانية، يجب أن تكون أساساً، قد ولدت وحيدة، على أية حال اتفقت بداية عمرها مع بداية الرسالة الخطيرة وإشتداد القتال، والصعاب والآلام

التي خيمت على بيت النبي(ص)، يحمل الأب على عاتقه رسالة إيقاظ الناس وتوعيتهم، ويتحمل عداوتهم، والأم مريضة تتابع زوجها المحبوب، فكانت فاطمة ومنذ نعومة أظفارها، وفي اول تجارب طفولتها، تعرف طعم الألم والحزن وخشونة الحياة، وبما أنها كانت صغيرة جداً، فقد كان بامكانها الذهاب بحرية خارج البيت، مستفيدة بذلك من هذا الإمكان، في مرافقة أبيها، وهي تعلم أنه لاوقت لديه ولافرصة، كي يأخذ بيدها بنعومة ويلاعبها في أزقة المدينة وأسواقها. بل يذهب دائماً لوحده، سابحاً بين أمواج العداوة والخصومة في المدينة، يلاحقهُ الخطر أينما ذهب، وكانت الصغيرة التي تعرف ماضيه ومصيره لاتفارق يده.

وكم مرة شاهدته يقف بالناس يتحدث فيهم كأب رؤوف رحيم، يدعوهم برقة وعطف، وهم يعدونه عنهم بعنف ولايجيبونه إلاّبالسباب والشتيمة فيعود وحيداً فريداً، ولكن هادئاً وصبوراً، راعياً جمعاً آخر ومسترسلاً في حديثه، وفي النهاية، يرجع كبقية الآباء إلى بيته، ليرتاح قليلاً، ثم يعاود عمله مرة أخرى.

يذكر التاريخ، أن فاطمة كانت تقف قَريبة من أبيها، عندما إنهالوا عليه يوماً بالضرب والشتم في المسجد الحرام، وقد عادت معه بعد ذلك إلى البيت.

وكذلك، في اليوم الذي كان فيه النبي ساجداً، وجاء أحد أعدائه ورمى رأسه بكرشه شاة، أوصلت فاطمة نفسها فجأة إلى أبيها وأزاحتها، ثم قامت بمسح وجهه وشعره بيديها الصغيرتين الحميمتين حتى

عادا معاً إلى البيت.

وعندما شاهد الناس، هذه البنت الصغيرة النحيفة، كيف تقف إلى جانب أبيها البطل الوحيد، وكيف يمكن لطفلٍ ما أن يرعى أباه، ويلاطفه ويواسيه في المصاعب بكل وجوده، بكلمات وتصرفات بريئة حنونة، عندما شاهدوا كل هذه الروعة، اطلقوا عليها إسم:

أم أبيها.

بدأت السنين السوداء والعجاف، سنين الجوع والعطش، في شعب أبي طالب، سجن فيها كل أفراد بني هاشم وعبدالمطلب، نساءً ورجالاً، كباراً وصغاراً، كانت المعاهدة قد كتبت بيد أبي جهل ممثلاً لكل أشراف قريش،. وعلقت على جدار الكعبة.

على الجميع ألا يتصلوا ببني هاشم وبني عبدالمطلب.

إقطعوا كل علاقاتكم بهم، لا تشتروا شيئاً منهم، ولاتبيعوهم شيئاً، لا تتزوجوا منهم، ولاتزوجوهم و...

يجب على بني هاشم أن يبقوا في هذا السجن الصخري، حتى يسلمهم الفقر والجوع وخشونة الحياة، إما إلى الأصنام أو إلى الموت. عليهم جميعاً أن يتحملوا هذا العذاب، سواءً أولئك «الصابئون» أو أولئك الذين لم يميلوا بعد إلى الدين الجديد ولكنهم «أحرار»، وبالرغم من إختلافهم الفكري مع محمد ولكنهم يدافعون عنه أمام جبهة أعدائه الموحدة، فاذا ما كانوا يعرفون محمداً ويؤمنون بطهارته وعظمته وإعتقاده بما يقول، وعبادته للحقيقة، وإخلاصه، وآماله من أجل إنقاذ الناس. وهم أكرم بكثير من الواعين الأذلاء، الجبناء، أمثال

علي بن آمية؟ الذين كانوا يعارضون التخلف والرجعية، وتوصلوا إلى ايديولوجية متطورة وثورية جديدة، وحللوا عبثية أوهام قريش وسوء النظام الإجتماعي الأشرافي والطبقي للعرب، بادراك و وعي إسلامي، ولكنهم في نفس الوقت بقوا إلى جانب أبي جهل وأبي لهب، وتفرجوا على تعذيب أصحابهم في الرأي كبلال وعمار وياسر وسمية... ولم يعترضوا علي أي شيء، تاركين أخوتهم في العقيدة والفكر يواجهون الحصار وحدهم، وانشغلوا هم في المدينة والسوق والبيت بحياتهم، وحتى أنهم كانوا ينسقون مع أعوان الكفر والجريمة، وأحياناً يتعاونون! كل هذا من أجل ألا يخسروا ثروتهم وشرفهم العائلي ومركزهم الإجتماعي وسلامتهم البدنية، وأمن حياتهم، وقد تركوا بتصرفهم هذا سنة وفتحوا طريقة ومسلكاً، كان أتباعه فيما بعد أكثر من أتباع النبي وعلي وأبي ذر وعمار وفاطمة والحسين وزينب وكل المجاهدين والمهاجرين والأنصار في الأسلام!

فكانوا أول المسلمين الذين التزموا «التقية»«كقانون مفيد» إلى آخر يوم في حياتهم حتى بعد أن أعلن النبي(ص) إنتهاء فترة هذا القانون.

ويا له من كائنٍ عجيب هذا الانسان!

فعندما تشتعل نار إيمان جديدة في الأرواح، وتبدأ حركة خطيرة في المجتمع، وفي محك الاختيار والتجربة حيث يضطر كل شخصٍ لإمتحان نفسه وتعيين واجبه نحوها بقطعية، عندها تتضح عجائب هذا الانسان الخاصة به، سموه وإنحطاطه، وقدرته وذلته الكامنة في أعماقه.

وفي هذه المحاصرة الرهيبة، التي خيم الصمت والصبر فيها على ثلاث سنوات من الجوع والوحدة والمصاعب والحيرة، وُجد أشخاصٌ لم يكونوا مسلمين ولكنهم شاركوا في هذه الثورة الإلهية الإنسانية العظيمة، وانضموا إلى صفوف محمد وعلي وأصحابهما المهاجرين في أكثر لحظات تاريخ الإسلام حسماً. في حين شوهدت في مدينة الشراب والراحة والسرور، التي ظللتها غيوم الجهل والرجعية، واللامسؤولية، وجوه، مسلمة، ترعى «بأذيال ملوثة» و«أيدٍ قذرة»[1]

---

(١) هنالك كتاب لسارتر (les mains sales) حول مثقفين من هذا القبيل. وأيضاً جملة لدستويفسكي يقول فيها (يكررها سارتر باعجابٍ وحماس): متى ما أريق دم في أي بقعة من الأرض فان أيدي كل الناس في العالم ملطخة به.

بينما نرى هذا النوع من الفكر الإجتماعي والحقوقي عن الجريمة والمجتمع في ثقافتنا الإسلامية ليس «جملة» أو «حديثاً» لأحد الكبار فحسب، بل على صورة أصل أساسي وبديهي إعتقادي، فالقرآن الكريم عندما يذكر هلاك قوم ما، فانه يضع مرتكبي الجريمة مع الذين رضوا بها أو الذين لم يمنعوا وقوعها في مكان واحد. يقول أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ما معناه أن ناقة صالح عقرها شخصٌ واحد، ولكن الله أسند هذا العمل للجميع، فقال «فعقروها فأصبحوا نادمين». ونحن عندما نلعن في الزيارات قاتلي الشهداء فاننا نلعن معهم أيضاً الذين سمعوا بذلك ورضوا به، وسيرضون عنه، فنقول: «ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به».

إذن لم يكن كل الناس الذين هلكوا من أجل جريمة وعقاب مشاركين فعلاً بهذه الجريمة، بل إن اكثرهم لم تكن لهم يدٌ في هذا العمل وكانوا محايدين، ولكنهم مساهمون بسكوتهم وانزوائهم وخوفهم على أنفسهم، في ظهور الظلم والانحراف في المجتمع، لأنهم لم يسعوا من أجل منعه والدفاع عن الحق والحقيقة. وقد قال تعالى لشعيب ما معناه: أنني أهلكت مئة ألف من قومك، أربعين ألفاً من الطالحين وستين ألفاً من الصالحين، فسأله شعيب بدهشة: ولكن لماذا الصالحون. فقال الله: إنهم شاهدوا الشر ولم يفعلوا شيئاً. والقرآن يعتبر

الذين لا يقاتلون ضد «الشر» كفاراً، وأيضاً يقول أبو ذر: إنني أعجب لمن لا يجد خبزاً في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه؟ ألا ترون إنه يقول، عليه أن يثور»، يقول أعجب كيف لا يثور؟ إنه لا يقول: «ضد المستغلين والرأسماليين والمحتكرين والطبقة الحاكمة والعوائل المتخمة أو الذين سرقوا خبزي» بل يقول: ضد الناس:، أي إذا كنت أنا جائعاً في هذا المجتمع فان كل الناس مسؤولون عن جوعي، كل المتخمين لهم دور في جوعي. ذلك الذي سرق رغيفي، وذلك الذي «تمسك برغيفه» وترك الآخر يسرق رغيفي. انظروا إلى هذا الكلام، وكلام سارتر ودستويفسكي.

وهكذا نستطيع أن نعرف كم إن بعض كتاب أهل السنة الذين يتحدثون عن «كفر أبي طالب» (وربما بسبب بغضهم لعلي) كم هم بعيدون عن الإسلام برغم كل طهارة روحه، إخلاصه وجهاده في الدفاع عن النبي (ص)، وتحمل أصعب سنين المقاومة وإستقبال أعظم الضربات التي كانت توجه من قِبل العدو الخطِر في أيام ضعف الاسلام، فوقف في مواجهة كل الأخطار، عشر سنوات، بكل وجوده وحياته وحتى إعتباره الإجتماعي، واستقبل ذلك السجن الاسود باختياره، كي يبقى وفياً للنبي (ص) وصحابته. وبالرغم من كونه شيخ قريش واكثر شخصيات مكة هيبة وجلالاً فقد تبع إبن أخيه الشاب ودافع عنه ... أو أننا نرى ايضاً وبرغم كل هذا. كيف يريد بعض المحققين العلماء من الشيعة إثبات «دين أبي طالب» (وربما يفعل هؤلاء ذلك حباً بعلي) فيبحثون عن قرائن عقلية ونقلية كثيرة. فهل «الدين» شيء غير الذي أظهره أبو طالب في هذه السنوات العشر وعمل به وقاله؟ الإسلام هو العمل. سيقولون وإن ما فعله أبو طالب كان نابعاً من حريته وإخلاصه وحبه الطاهر وحميته وغيرته الإنسانية وأخلاقه وعظمة روحه وتعالي فكره وفكرة الدفاع عن الحق ومواساة المظلوم والعداء للشر والنذالة والظلم والقسوة والجاهلية.

لا أدري، أفليست هذه هي من ضمن «أصول الدين»؟ وألم يأت الإسلام من أجل هذه الأشياء؟ أولئك الذين يقولون: فلانٌ عمله حسن، أفكاره رفيعة، خدماته جليلة،

في مراتع آمنهـا وإستقـرارها، تتفرج عـلى الكارثة أو تشارك فيـها. وإن ادعى اصـحـابهـا أنهم «متـدينون» في «بـاطنهم السـابع!»، ويحـبـون «المتـدينين»، لـقـد إنقطع بنو هاشـم وبنو عـبـدالمطلب فـي هذه السنين الصعبة عن المدينة و الحياة والناس والحرية وحـتى الخبز. فيحدث أحياناً أن ينزل أحـد رجالهم خـفيـة عند منتـصف الليل ليـحصل على طعـام للجياع والمنتظرين، بعيداً عن أعين قريش وجواسيسها، أو يوصل إليهم صـديق أو قريب خـبزاً وطعـاماً، بعـيـداً عن الأنظار ومن باب الرحمـة والعطف. كان الجـوع يصل أحيـانًا إلى درجة يتخـذ فيهـا «وجه الموت الأسود ولكن الذين أعـدو أنفسهم لإستـقبال «الموت الأحمـر» ما كان يهمهم ذلك.

يذكر سعد بن أبي وقاص الذي كان محاصراً أيضاً، أن الجوع قد أمض به حتى كان ليلة، يسير لوحده في الظلام فر كل شيئاً طرياً تحت قدمه فألقاه في فمه من حيث لايشعر وابتلعه، وبعد مضي عامـين على هذه الحادثة فقد كان ما يزال جاهلاً لما أكل، أي شيءٍ كان؟

في ظروفٍ كهذه، يمكن بسهولة معـرفة ما كان يجري على أسرة النبي(ص)، وإن لم ينقل التاريخ شيئاً.

كل هذه الأسر، تحملت الآلام والجوع والـوحده والفقر، من أجل هذه الأسـره فقط. والنـبي(ص) كان هو المسـؤول عن الجـميع، وكـان

وأوقف كل حياته في سبيل الإيمان والعـقيدة والحق، ولكنه لا إيمان لديه في قلبه. انما قـولهم تنبؤات كـاذبة مَرَضـية. فـهل هؤلاء. يُمَلَكُون أشعـة(X) أم أنهـم ينظرون إلى الإيمان بأجهزة خاصة تخبرهم عن الباطن.

كل شيء يحدث، يعصر قلبه الرقيق الحساس، كل طفل يصرخ من الجوع، كل مريض يعاني نقص العلاج والطعام، كل عجوز، يضيق بالمصاعب والضغط، وكل وجه تحمّل ثلاث سنين من الجوع و العذاب النفسي والحياة في هذا الوادي الصخري الصلب، فبهت لونه، ونحل عوده، ومع ذلك حاول ألا يظهر هذا أمام محمد(ص) فيظهر الصلابة والإخلاص في الوفاء والحب. كان كل هذا يؤثر في قلبه الرقيق.

لا شك أنه لم يكن نصيب إبنته وزوجته من أي طعام يصل في الظلام إلاّ أقل شيء، ولاريب أنه ما كان ليختصهما بشيء لولا خشيته على حياتهما.

كانت أسرة محمد(ص) في هذا الحصار، تتكون من زوجته وإبنته الصغيرة فاطمة، وأختها أم كلثوم، التي أمر أبو لهب ولديه بتطليقها هي وأختها رقية بعد بعثة النبي(ص)، أما رقية فقد تزوجها عثمان الشاب الجميل الثري وهاجرت معه إلي الحبشة، و أما أم كلثوم فقد ضحت بسعادتها من أجل مبادئها، مفضلة بذلك، الحصار و الجوع و الوفاء لأبيها البطل العظيم في سبيل الدين والحرية، على الرفاه والراحة والسعادة والترف في بيت أبي لهب، وإلى جانب عتيبة زوجها المتخلف.

تمر الأيام بصعوبة في هذا السجن، فتخيم الليالي وتلقى بظلالها الداكنة على رؤوس ساكني الجبل المنعزل، وتتقدم الأسابيع والأشهر والسنوات بصعوبةوبطء على أجساد وأواح أصحاب النبي، التعبة، ولكن البطله، وتمضي.

أما أسرة النبي، فقد كان وضعها يختلف عن الجميع. فرب الأسرة، يحمل على عاتقه المصير المر للجميع، إبنته أم كلثوم إنهارت حياتها الزوجية، فعادت إلى بيت أبيها، وإبنته الثانية، فاطمة، طفلة صغيرة بعامين أو ثلاثة، أو إثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر، وبمزاجٍ متأثر وروح حساسة عاطفية، وزوجته خديجة عجوز شارفت على السبعين، والتي أنهكتها، وإن لم تفقدها صبرها، عشر سنين من صنوف الأذى الذي حلّ بزوجها، وموت إبنيها، وماجرى على بناتها، فتراءى الموت لها في لحظة.

وفي وضع كهذا، كان الجوع، أحياناً، يضطر خديجة العجوز المريضة ـ التي أمضت كل حياتها في الثروة والنعيم ـ لأن تبلّ قطعة جلدٍ وتضعها بين أسنانها. كانت فاطمة الصغيرة الحسّاسة، قلقة على أمها، والأم قلقة عليها، آخر أبنائها صغيرتها الضعيفة والتي كان يضرب المثل بحبها لأمها وأبيها.

في أحد الأيام الأخيرة للحصار، كانت خديجة ـ التي أحست باقتراب اجلها ـ راقدة على فراشها، تجلس إلى جانبها أم كلثوم وفاطمة، وكان الأب خارجاً يقسّم الطعام بين الناس.

أحست خديجة، بالضعف والإنهاك في جسدها المريض، فقالت بحسرة: ـ ليت الأجل، يمهلني لحظة، حتى تنتهي هذه الأيام المظلمة فأموت سعيدة، آملة أجابتها أم كلثوم بلوعة:

ـ أماه ليس هذا مهماً، لاتقلقي.

ـ نعم واللّه، لايهمني أنا ولا أخشى على نفسي شيئاً، فيا إبنتي

لم تذق آية إمرآة من قريش ما ذقته آنا من النعيم، بل لم تصل آية إمرآة في كل الدنيا، إلى ما وصلت إليه أنا من الشرف، وحسبي من الماضي في هذه الحياة أن زوجي الحبيب هو نبي اللّه ومصطفاه وحسبي من عاقبتي في الآخرة، أنني أول المؤمنين به، وأم المؤمنين به.

ثم أردفت هامسة:

ـ رباه! لايمكنني إحصاء نعمك وألطافك، إلهي، إنني لست ضائقة بلقائك، ولكنني أطمع أكثر في أن أكون مستحقة للنعمة التي تهبها لي.

بينما كان الموت والصمت والحزن الثقيل مخيماً على رؤوس خديجة وأم كلثوم وفاطمة في البيت، فجأة دخل النبي(ص)، بوجه مشرق أملاً وإيماناً وقدرةً و توفيقاً، كأن سنين الوحده والجوع والعذاب الثلاث، قد زادته صلابة وشجاعة وإيماناً.

لقد إنتهت سنين الحصار المظلمة، فرأت خديجة أمام عينيها، خلاص المسلمين وحرية زوجها الحبيب وبناتها العظيمات الوفيات. وذاق النبي طعم أول نصر له على قريش. ولكن القدر الذي أعدّ هذا الرجل من أجل تغيير التاريخ، لا يريد للراحة والدعة ان تجد طريقها اليه، فوجه إليه، فوراً، ضربتين قوتيين.

مات أبوطالب وخديجة بفارق زمني قليل عن بعضهما، وفي وقت ليس بعيداً عن يوم الحرية والخلاص.

أبوطالب هو الذي ربىّ محمداً اليتيم ورعاه، فعوضه بحنوه عليه وحبه اياه عن حنان أبيه وأمه وجده العطوف عبدالمطلب، فهو الذي

ناصر محمداً(ص) الشاب ودافع عنه، ووجد له عملاً عند خديجة، وهو الذي ساهم كالأب في زواج إبنه محمد(ص) من خديجة، وهو الذي كان كالدرع لمحمد النبي(ص)، فحماه بكل نفوذه وشخصيته ومكانته الإجتماعية، وحتى أنه تحمل ثلاث سنوات من الحصار إلى جنبه. ومن أجله هو لم يتعرض محمد«ص» للقتل والتعذب الذي نال أتباعه من الناس العاديين. والآن، ها هو يفقده، فقد أبا طالب، أكبر حماته، ماذا أقول؟ بل حاميه القوي والعطوف الوحيد، امام خطر مكة وعداوة أهلها.

وخديجة، المرأة التي وهبها القدر لمحمد عوضاً عن كل الحرمان الذي لاقاه في حياته الشخصية تعرف محمد(ص) ذو الخامسة والعشرين عاماً الى جانبها بعد فترة يتمه ورعيه للغنم والفقر والصعاب، تعرف على حب الزوجة، وحنانها، وعرف فيها إيمان الصديق والرفيق، ولجأ إليها من صعوبة الفقر والحياة، وتمتع معها بحب الصديق، وعوضته بحبها ورعايتها عن حنان الأم.

وعندما بدأت البعثة، وسنوات المصاعب والخوف والخطر والوحدة والحقد والعداوة والخيانات، كانت خديجة، هي التي رافقته، خطوةً خطوة، من أول لحظات علاقته بالوحي وحتى الموت، ووهبته كل حياتها وحبها وإيمانها وتضحيتها وثروتها، في أيامٍ، كان فيها، أكثر من أي وقتٍ آخر، في حاجة ماسةٍ إليها.

والآن، فقد محمد، حاميته، رفيقته ومؤنسته، أول المؤمنين به، وأكبر مواسيه، وأخيراً أم «فاطمته»، وفقدت فاطمة أمها.

إزدادت الصعاب شدةً، رحل أبوطالب، وترك محمداً(ص) وحيداً بلا مدافع، في مواجهة العداوة والبغضاء، وتزداد الخصومة تجذراً وقسوةً كلما ازداد ثبات وإيمان محمد(ص) وأتباعه، كان النبي(ص) قد بقي وحيداً، وحيداً إلى آخر حد. عندما خلت المدينة من أبي طالب، والبيت من خديجة. أما فاطمة، فيبدو أنها أحست اليوم - أكثر من أي وقتٍ آخر - بمعنى ومسؤوليه كنيتها «أم أبيها». فعندما ألفت نفسها وحيدة بعد ذهاب أخواتها إلى بيوت أزواجهن، تعلقت بأمها قائلة:

- أماه أنا لا أحب أبداً أن أختار بيتاً غير هذا البيت، أماه! إنني لن أفارقكم أبداً.

فأجابتها خديجة بابتسامة تقطر إعجاباً:

- إن الجميع، يقول هذا، وقد قلناه نحن قبلك يا إبنتي، دعي موعده يصل بنفسه.

فتقول فاطمة مصرة:

- كلا! إنني لن أترك أبي أبداً، فلن يستطيع أي أحدٍ فصلي عنه.

فصمتت الأم.

والآن، وبعد وفاة أمها، تشعر فاطمة بأن رسالتها هي هذه، وعهدها الذي لم يكن إلاّ رغبة طفولية. إزداد إيمانها برسالتها عندما سمعت أباها يخاطب قريشاً هكذا.

- يا مجمع قريش، عودوا إلى أنفسكم، فلست بمغنٍ عنكم شيئاً أمام اللّه.

ـ يا أبناء عبدمناف، لست بمغنٍ عنكم شيئاً أمام اللّه.

ـ يا عباس بن عبدالمطلب، إنني...

ـ ياصفية إبنة عبدالمطلب...

يا فاطمة لك من ثروتي ما تشائين، ولكني لست بمغنٍ عنك شيئاً أمام اللّه، فتجيبه فاطمة بشوقٍ وثبات:

ـ بلى، بلى، يا أغلى أبٍ، وأفضل داعية.

عجباً له! يخاطبها باسمها، أمام كبار قريش، وشخصيات بني هاشم وبني عبدمناف؟ هي؟ طفلة صغيرة؟ ويختارها، هي من دون كل أفراد عائلته. فيتبدل الإحساس الطفولي والحب الواله لهذه البُنية ـ والتي كانت قد كررت كثيراً أنها لن تتزوج ولن تترك أباها ـ يتحول تدريجياً إلى عهدٍ واعٍ، ويتخذ لوناً من المسؤولية والرسالة.

وافقت سنين عمرها الأولى، أول سنين البعثة والمصاعب والآلام، فكانت فاطمة أنسب من كل أبناء محمد(ص)، ومن كل الأبناء عامة، لتحمل أصعب المصائب، وعناء أثقل أحمال الرسالة التي حملها أبوها على كتفه، عالمة بمصيرها هي وأبيها وأمها. إتجهت نحوها خديجة في أحد أيامها الأخيرة بقلق وقالت.

ـ كم من الأشياء التي ستمر عليك يا بنيتي من بعدي. إنني سوف أنهي أيامي في هذه الدنيا اليوم أو غداً، ورقية وأم كلثوم تعيشان بسلام مع زوجيهما، وسن أم كلثوم وتجربتها يطمئنا ني على مصيرها، ولكنك أنت يا فاطمة، ستغرقك المصائب، وأمواج الآلام المتتابعة يوماً بعد آخر.

فأجابت فاطمة كمن أخذت على عاتقها حصة من حمل أبيها الثقيل:

- إطمئني، ولا تحزني من أجلي يا أماه. إن وثنية قريش سوف تزيدهم طغياناً إلى آخر حد، وتزيدهم قسوة في تعذيب وإيذاء المسلمين إلى الحد الذي يستطيعون فتقرعين المسلمين بقبول هذا «العذاب الجليل» وفاطمة أحق في تذوق هذا العذاب، بقدر ما أنعم اللّه عليها في كونها «بنت النبي» وما إختصها من حبه وإعتزازه بها.

كانت العداوة والبغضاء قد وصلت إلى أوجها، بعد موت أبي طالب، فهاجرت مجموعة من أنصار النبي(ص) وأقاربه إلى الحبشة، في حين تقضي مجموعة أخرى تحت شدة العذاب، واشتدت المصاعب والوحده والفقر وأذى قريش، ومحمد الذي إنقضت خمسون عاماً من عمره، وأصبحت حياته سندان كل الضربات الموجعة، يعيش وحيداً مع فاطمة إبنته الحزينة.

ولكن لا... فالقدر قد جاء بولدٍ إلى هذا البيت، مع وجود أبيه، ولا أحد يعلم ماذا يحدث خلف ستار الغيب!

علي.

فعلي، يجب ألا يعيش في بيت أبيه، ينمو هناك، بل يجب أن يكون إلى جانب فاطمة منذ الطفولة، ويُصنع في بيت والد «فاطمة»، فمصير هذا الصبي مرتبطٌ إرتباطاً عجيباً بمصير هذا الأب وابنته.

إن التاريخ يلعب لعبته، ففي هدوء وصمت يلفّه الغموض، يعد في ذهنه مشروعاً للإطاحة بأصنام الحجر، وحراس العزة والقومية

والإستبداد والتضاد والتمييز العنصري، ولإطفاء نيران خداع الوعاظ في معابد النار في فارس، وهدم مجمع القصور في المدائن، ورمي إمبراطورية الشهوة والدم والأسر في روما إلى البحر، وأكبر من كل هذا وأعظم، إزالة صدأ التقاليد والعادات، وقذارة الخرافات و الأساطير البالية، والتحيزات والعواطف والعقائد العفنة، وغسلها، وإثارة امواج من الحرية والمساواة والعدل والجهاد والوعي في البحر الملوث بالأساطير العرقية، ومفاخر الاشراف وغرور القوة، وملاحم القسوة والغزو وعبادة التراب والدم والصنم وكل شئ، وأيضاً، دفع الجماهير المجهولة والمعدومة للثورة على آلهة الأرض، كاتباً بذلك تاريخاً من الدم والحياة والتحرك بدل تاريخ العظام النخرة ولوحات القبور المنهدمة وملوك السيف والذهب، فيبدأ بذلك سلسلة، من وارثي هذا «الراعي المبعوث»، يرتدي كل واحد فيها بردة من «الشهادة» وتاجاً من «الفقر» ممضياً عمره إما في ساحات القتال أو تعليم الناس أو سجن الظلم، وفاطمة هي البداية الأولى في هذه الرسالة الخطرة، والتاريخ بحاجة إلى «علي» من أجل هذه المهمة.

لهذا قادت يد الفقر الرحيمة، صغير أبي طالب، إلى بيت إبن عمه بالرغم من وجود أبيه، كي لاتتلوث روحه بأدران الجاهلية، حتى يصل الوحي. فقد كان حاضراً منذ البلاغ الأول، لكي يكون في صميم الحوادث من اللحظة التي تبدأ فيها البعثة، حتى يصقل في قرن الآلام والمنازعات والأفكار، حتى يعي بدوره الخطير في الهجرة، حتى يضمن نصر ثورة الإسلام في ساحات بدر وأحد وخيبر والفتح وحنين... و...

حتى يترعرع إلى جانب فاطمة، وأخيراً، حتى يوجد مع فاطمة «الأسرة المثالية» للانسانية، ويبدأ تاريخاً جديداً في مواصلة درب إبراهيم.

الهجرة.

إنتهت ثلاثة عشر عاماً من الصعاب والنضال والحصار في مكة، شاركت فيها فاطمة منذ الطفولة، خطوةً، خطوةً، مع أبيها، في المدينة، في البيت، وفي الحصار، وتحملت بروحها المرهفة، ضربات الحقد الموجهة، وصعاب النضال والجهاد في جو الجاهلية المتوحش، ورعت أباها البطل الوحيد، كأمٍ، بيديها الصغيرتين. بدأت الهجرة، انتقل المسلمون إلى المدينة، وفي النهاية، ترك النبي(ص) مكة خفيةً برفقة أبي بكر. فخرجت فاطمة وأم كلثوم من مكة، وفجأة، أوصل أحد أشرار قريش نفسه إليهما وأنزلهما بحدة وعنف عن هودجهما. فعانت فاطمة التي كانت ضعيفة البنية اصلاً، بالإضافة إلى تأثير سنين الحصار على صحتها، عانت آلاما مبرحةً جراء هذه الحادثة طوال الطريق إلى المدينة، فأثرت هذه الدناءة من جانب «الحويرث بن نقيذ» بشدة على المسلمين وخصوصاً النبي(ص) والإمام علي(ع)، إلى درجة لم ينسوها، بعد ثمان سنوات، فقد ذكر النبي(ص) إسمه في فتح مكة ضمن الأشخاص المهدور دمهم والواجب قتلهم وإن تعلقوا بأستارالكعبة، بالرغم من تجنبه(ص) إراقة الدماء وليس من قبيل الصدف أن يكون عليٌّ هو منفذ هذا الحكم.

الآن، هم في المدينة وقد أتم النبي بناء مسجده، وإلى جانبه بيته

من الطين. وسعف النخيل.

ثم أعلن «مراسيم الأخوة والتآخي» فتآخى المسلمون في اللّه، إثنين، إثنين. اتخذ جعفر بن أبي طالب من «معاذ بن جبل» غيابياً أخاً له، وأبوبكر من خارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب من عتبان بن مالك، وعثمان أخاً لأوس بن ثابت و...

ـ «أنا، هذا أخي».

محمد أخاً لعلي.

مرة أخرى، ومن بين كل الوجوه، يقف عليّ إلى جانب محمد، ويقترب خطوة أخرى نحو محمد، ففاطمة أم علي، هي التي رعت محمداً(ص)، وكان أبوطالب أبو علي(ع) حامياً لمحمد(ص)، ومحمد(ص)، ترعرع في بيت علي(ع) وعلي(ع) في بيت محمد(ص) وإلى جانب فاطمة بنت محمد(ص)، وفي حضن خديجة، أم فاطمة، وهو ابن عم محمد(ص)، والآن هو أخ لمحمد(ص).

لم تبق إلاّ خطوة واحدة، كي يصل علي إلى آخر منزلة قدرت له في تاريخ محمد(ص) وفي رفقة الاسلام.

لاتزال فاطمة وفية لعهدها، ولم تترك حضن الزهد والوحدة في بيت أبيها، والكل يعلم بهذا، وبالذات، عندما رفض النبي خطبة عمر وأبي بكر لها بشدة، عرف جميع الصحابة أن لفاطمة مصيراً خاصاً **ويقّنوا أن النبي (ص) لا يجيب خاطباً إلاّ بعد إستشارتها**.

فاطمة، ترعرت مع علي، رأته أخاً عزيزاً لها، وفَرَاشَة محبّة ترفرف

حول أبيها، والقدر، كان قد ربط مصير هذين الإثنين بصورة خاصة منذ الطفولة، فكلاهما لا صلة لهما بالجاهلية، وكلاهما كبرا ودرجا في عاصفة البعثة منذ سنين عمرهم الأولى، وترعرعا تحت نور الوحي.

ماذا كان إحساس فاطمة نحو علي؟ وعلي، أي صورة علقها عن فاطمة، على جدار قلبه الكبير الشجاع والمملوء عاطفة؟

من الممكن لخيالنا ان يحلق و يتصور، ولكن الكلمات ستعجز عن الوصف. فكيف يمكن وصف عاطفة متشابكة تركبت من الإيمان، الحب، الإحترام، الإعجاب، الحب الأخوي، الإشتراك في المصير، قرابة الروحين، الاشتراك في تحمل آلام ومصاعب المستقبل، وأخيراً، الإشتراك في السفر، خطوة خطوة، لحظةً، لحظة، طوال طريق الحياة، والتمتع بنفس منبع الحب والإلهام والإيمان؟

إذن لماذا يصمت علي؟ خمساً وعشرين سنة مضت من عمره، وفاطمة، حان موعدها، تسعة أعوام، أوتسعة عشر عاماً؟

في رأيي، إنّ ما كان يمنع عليّاً واضح. ففاطمة أوقفت نفسها في خدمة أبيها، تعتبر نفسها أماً لأبيها، إذن كيف يستطيع عليّ أن يأخذ فتاة تعلقت بأبيها إلى درجة يبدو معها أنه لا إمكان في فصلها عنه؟ أيطلبها من محمد؟ ولكنه يشارك الزهراء إحساسها.

فجأةً تغير الحال، فقد جاءت عائشة إلى بيت النبي(ص) وحصل محمد(ص)،لأول مرة في عمره، وآخر مرة، على زوجة شابة تطفح بالحماس واللهفة للحياة الجديدة.

وتشعر فاطمة، بالتدريج، بأن هذه الزوجة الشابة، ستكون خليفةً

لخديجة، وخليفةَ لها، لا في قلب أبيها، ولكن ـ بلا ريب ـ في بيته.

ويشعر عليّ أيضاً، بوصول اللحظة التي قررها له القدر. ولكنه لايملك شيئاً.

فالصبي الذي ترعرع صغيراً في بيت محمد، وأمضى كل شبابه في طريق الجهاد و العقيدة، ولم يجد فرصة لإدخار شيء ما. أو الحصول على شيءٍ ما. هذا الفتى، لا يملك من دنياه شيئاً سوى التضحيات التي بذلها في سبيل محمد(ص) وإيمان محمد(ص). رأسمال؟ كلا! بل حتى أثاث بيتٍ بسيط. أثاث حياة فقيرة. لاشيء.

ولكننا نراه، برغم ذلك، يُقبل نحو النبي(ص)، ويجلس إلى جانبه، خافضاً رأسه، يتحدث بخجل وحياءٍ جميل.

ـ ماذا وراءك يا إبن أبي طالب؟

يذكر إسم فاطمة، بلحن ناعم، لطيف، هاديء من فرط الحياء.

يجيب النبي(ص) مرحباً وأهلاً.

ثم يسأله غداً في المسجد

ـ هل تملك شيئاً؟

ـ لاشيء يارسول اللّه.

ـ أين الدرع الذي أعطيتكه في بدر؟

ـ هو عندي، يا رسول اللّه!

ـ يكفي، هاته!

أسرع عليّ، وجاء بالدرع إلى النبي(ص)، فأمره ببيعه في السوق، وتأسيس حياة جديدة بثمنه.

اشترى عثمان الدرع بسبعة واربعين درهماً ثم دعا النبي أصحابه وقرأ صيغه العقد: «... فاطمة بنت النبي، بأربعمئة مثقالٍ من الفضة...»

ثم دعا لهما بالذرية الصالحة، عندها جاءوا بأطباق التمر، وكان هذا هو حفل الزفاف، أما جهاز فاطمة فهو:

رحى صغيرة، إناء خشبي، فراش.

وفي غرة محرم الحرام، في العام الثاني للهجرة، عثر عليّ على بيت خارج المدينة، جنب مسجد قبا، وأخذ الزهراء إليه.

لحمزة، عم النبي وعلي، سيد الشهداء، وبطل المجاهدين العظيم، ذبح ناقتين، ودعا كل أهل المدينة.

طلب النبي(ص) من أم سلمة مرافقة العروس حتى بيت زوجها، ثم أذّن بلال لصلاة العشاء، وذهب النبي(ص) بعد صلاة العشاء إلى بيت علي(ع)، طلب وعاء ماءٍ، وبينما كان يقرأ عليه آيات من القرآن، أمر العروسين بالشرب منه، ثم توضأ هو به، ورش على رأسيهما منه. أراد أن يعود فبكت فاطمة بشدة، إنها تفارق أباها لأول مرة.

هدأها النبي قائلاً:

- لقد أوكلتك لأقوى الناس إيماناً وأكثرهم علماً وأفضلهم أخلاقاً وأسماهم روحاً.

***

«الفصل الثاني»

تبدأ «وديعة محمد» الفصل الثاني من حياتها. والقدر، يهدي أعز «الودائع» آلاماً ومصاعب جديدة.

فزينب في بيت أبي العاص، تاجر مكة، رقية وأم كلثوم عاشتا من قبل في النعيم والرفاه في بيت أبي لهب، ثم إنتقلتا واحدة بعد الأخرى إلى بيت عثمان الصحابي الثري، وأما فاطمة، التي ولدت ونمت منذ بداية الفقر والصعاب في بيت أبيها، ها هي الآن تنتقل إلى بيت علي، البيت الذي لايحتوي من الأثاث والزينة سوى الحب والفقر.

بدأت صعوبة الحياة في بيت علي أشد من أي وقتٍ آخر، وكانت فاطمة تواجه نفس مسؤوليتها الدائمة، ولكن تجاه علي هذه المرة.

الشاب الذي كان ينظر إليها بالأمس، بعين الأخت، واليوم بعين الزوجة، وفاطمة تعرف جيداً أن حياة علي ستبقى دائماً هكذا، تدري أن زوجها لا يفكر إلاّ بالجهاد والله والناس، وأبداً، لن يعود يوماً

الى بيته، إلاّ بيـدين خاليتين، وفاطمـة، ترى مسؤوليتهـا أثقل وزناً عنها في بيت أبيها، أن تكون مسؤولة عن زوجها، هذا الرجل الفقير، الأهم حتى من السعادة والأعظم من الحياة نفسها.

فـاطمـة تطحن بـالرحى، تخبـز الخبـز، تـعمـل في البـيت، وشاهـدوها لمرات وهي تجلب الماء مـن الخـارج... وعلي الذي يـعرف جلال فـاطمة وعظمـتهـا، بالاضافة الى انّه، يحـبهـا لأكثـر من سبب، ويعلم كم أن مـصاعب الحياة والآلام التي أحـاطت بها منذ الطفـولة، قد أضعـفتها وأثرت عليـها، يتألم بشدة لكل هذه المعـاناه وهذا الجهد الذي تبذله.

يقول لها يوماً بلهجة مشفقة عطوفة:

«لو أتيت أباك فـسألتيـه خادمـاً يكفيـك حرّ مـا أنت فيـه من هذا العـمل، فأتـت النبي(ص) فأستـحيـت وانصرفت... وقـالت لعلي أنهـا استحيت أن تطلب شيئـاً من النبي(ص)، إنفـعل عليّ جـداً، فأعـان فـاطمـة ورافـقـهـا إلى النبي(ص)، ثـم سـأله هو بدلاً عنهـا، فـأجـابه النبي(ص) جواباً حاسماً:

ـ لا واللّه، لا أهبكم أسير الحرب، وأترك بطون أهل الصفة خاوية، ولا أجد شيئاً أعطيه إياهم، ولكنى أبيعه، وأهب ماله لأهل الصّفة.

شكره علـيّ وفـاطمـة، وعــادا صـفـر الـيـدين، حلّ الليل، ورقـد الزوجان في بيتهما الخالي صامتين، يفكران بما طلباه من النبي(ص).

أمـا النبي فـقـد كـان هو الآخـر يفكر بـالجواب الذي أجـاب به أعزّ أقربائه.

فجأةَ فتح الباب، ودخل النبي(ص).

وحيداً من بين ظلام الليل، الليل البارد الذي كان يرجف عليّاً وفاطمة في فراشهما. لاحظ أنهما غطيا أنفسهما بلفاع شفاف عندما يسحبانه على وجهيهما تظهر أقدامهما وعندما يغطيان أقدامهما به ينكشف وجهيهما أمرهما بعطف: لاتتحركا!

ثم قال(ص)، أفلا أعلمكما ماهو خير من الخادم؟ إذا أخذتما منامكما، فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبّرا أربعاً وثلاثين، فأخرجت عليها السلام رأسها، فقالت: رضيت عن اللّه ورسوله ثلاث دفعات. ١

هكذا، مرة أخرى، تتعلم فاطمة الدرس، بضربة دقيقة، وصلت إلى عمق وجودها، تعلمها أنها فاطمة!

كان هذا درساً، تعرفه منذ الطفولة، ولكن دروساً كهذه تحتاج دائماً إلى تعليم مستمر وتذكير دائم، فهو ليس درس «علم» بل درس «صيرورة وتحول»، فأن هذه هي مسؤوليات فاطمة ومكانتها، ولكن قيمة فاطمة نفسها ـ أي كونها فاطمة ـ إضطرت النبي(ص) للتشدد في تعليم « هذه التلميذة الخاصة والصحابية الفريدة»، فلا يجب أن تعيقها لحظة إستقرار في الحياة عن «السير والتحول» فالألم والحرمان هما غذاء هذه الشجرة التي يجب أن تنمو في نور الوعي، وتثمر من أجل الحرية والعدل، لتكون بداية تلك «الشجرة الطيبة» الموكول إليها، بتحمل «النار الإلهية» من السماء إلى الأرض وإيصالها للإنسان، وعليها، حقاً، أن تحمل حمل كل

الأرض الثقيل، و«تقاوم»!

لهذا كان على فاطمة أن تتعلم دائماً، التعلُّم الذي لا ينتهي كالضوء والهواء والغذاء «للشجرة» المتكرر والمستمر

الكلمة، بديلاً عن الخادم. إنهما الزوجان الوحيدان الذان، يمكنهما إدراك أنه بالإستطاعة العيش «بالكلمة» ونيل السعادة بها وشربها، وأكلها، والإرتواء بها! وهذه الكلمات، هي كالمطر الذي يجب أن يهطل باستمرار، فيشربه هذان البرعمان العطشانان الآتية بذورهما من أكرم بذور «الإنسانية» وكان نداء محمد(ص) المفاجىء، في قلب الليل والظلام المليء بالمعاني، هو صوت قطرت هذا الماء.

ومَن أكثر عطشاً وأكثر حباً، من هذين الإثنين على الأرض؟

وليس عبثاً أن يسمعوا علياً رجل العمل والجهاد والسعي، بعد خمس وعشرين سنة مضت على هذه الحادثة يقول:

ـ واللّه، لم أترك هذا الدرس منذ علّمنيه.

فيسألون بدهشة:

ـ : تى ليلة صفّين؟

فيجيب مؤكداً: «وحتى ليلة صفّين»

فاطمة أيضاً، عاشت مع هذا الدرس، حتى ماتت، فخلدت هذه التسبيحات باسمها.

الكلمات السماوية التي كانت تمدها في الحياة بديلاً عن «الخادم». الكلمات التي أُهديت لها «كهدية الزواج» جاء بنفسه

وأعطاها، ثم عاد.

كان النبي(ص) يتشدد كثيراً على فاطمة إبنته الحبيبة. لقد تعلم هذه المعاملة من ربه، ففي القرآن الكريم، لم يعاتب، أي نبي بقدر ما عوتب محمد(ص)، حيث لم يكن أي نبي حبيباً عندالله بقدر ما كان محمد، أو مسؤولاً عن الناس بحجم مسؤوليته.

وكما يقول شاندل: «الحب والإيمان، في أوج إرتفاعهما، يتجاوزان مستوى الثناء والمديح، فيغرق المحبوب في أوج صعوده في عين محبه بالتأنيب والعتاب واللوم، ويحدث هذا في الوقت الذي يفقد فيه المحبوب إستحقاق العفو عنه في عين المحب».

مرةً ككل الأيام: يدخل النبي(ص) إلى بيت فاطمة، فجأةً يقع نظره على ستارة مزينة، منقوشة، يقطب حاجبيه فوراً، ويعود من حيث أتى دون أن ينبس ببنت شفة.

تشعر فاطمة بذلك، فتعرف ذنبها، وتعرف كيف تتوب؟ بسرعة، ترفع الستارة عن الحجرة، وترسلها إلى أبيها كي يبيعها وينفق ثمنها على فقراء المدينة. لماذا كل هذا التشدد والخشونة؟ فهذه زينب غارقة في النعيم والثراء في بيت أبي العاص، وأخواتها كن دائماً في بيوت الثروة والرخاء، سواء في بيت عثمان، سليل الأشراف، أو في بيت أولاد أبي لهب سابقاً، ولكن فاطمة، لم تسمع أبداً أن أونبت أخواتها اللاتي يكبرنها بكثير من أجل الثروة والزينة.

ويبدو واضحاً، من طريقة وأسلوب تعامل النبي(ص) مع فاطمة ولهجته في ذلك، أن فاطمة شيء، وبناته الأخريات شيءٌ آخر.

«يافاطمة إعملي، فاني لستَ بمغنٍ عنك شيئاً غداً»

لاحظوا الفارق والفاصلة بين هذا الإسلام، والإسلام الذي يقول: «قطرة دمع على الحسين، تطفيء نار جهنم، وتغفر الذنوب وإن كانت بعدد قيعان البحار ورمال الصحراء ونجوم السماء، وحب علي(ع) يبدل نفس الذنوب يوم القيامة إلى حسنات»! والاكثرمدعاة للالم، هو القول المنسوب للّه سبحانه وتعالى! الذي يقول، «محبّ عليّ في الجنة وإن عصاني، وعدوه في النار وإن أطاعني».

لن يكون ـ هناك في يوم الحساب ـ نظاما جزاء وحساب وعقاب نظام اللّه و نظام علي فعلي، واللّه سبحانه وتعالى، لم يختلفا في الحساب، والقضية جادة وخطرة للغاية، حتى النبي(ص) لا أمل لديه في نصرة فاطمة أمام العدل الحاكم على العالم، وأمام حاكم العالم. ففاطمة يجب أن تصبح نفسها. هناك لن ينفعها كونها إبنة محمد. هنا فقط تستطيع أن تفيد من ذلك، وذلك من أجل أن «تصبح فاطمة» لاغير، فإن لم تصبح فهي خاسرة، و«الشفاعة» تعني هذا، لا الغش في إمتحان يُسيطر عليه اللهو والعبث والقرابة وإحتساب الأهل و الأصدقا ء،في حساب الحق و العدل الإلهي، أو التدخل في «كتاب الأعمال» وإدخال الأقارب من جدران أو أبواب الجنة السرية.

وفاطمة تعرف كل هذا، علمها النبي ذلك، هي والجميع، «فالشفاعة» التي تنقض أساس الحساب والكتاب والمسؤوليات التي جاءت كل الأديان من أجل إقرارها، هي وثنية جاهلية، فهم كانوا

يحسبون الأصنام ويعتبرونها «شفعاءنا عند الله».

يرتكبون الجرائم، ويمارسون آلاف الأعمال القذرة، والسيئات، ثم يذبحون جملاً أو أسداً في حضرة اللات والعزى، وبقية أصنامهم الصغيرة والكبيرة، ويطلبون «الشفاعة» منهم بكلمات التملق والتوسل والتضرع وإظهار العواطف والحب والإخلاص.

أنا لستُ معتقداً بشفاعة «النبي» فقط، بل حتى بشفاعة الإمام والمعصوم، وحتى شفاعة الصالحين والمجاهدين الكبار و... ماذا أقول؟ بل حتى أنني أعتقد أن زيارة «تراب الحسين» تغفر للمسئ ذنبه. ولكن من حيث أن هذه الأعمال، وهذه الشخصيات تؤثر تأثيراً تغييرياً وثورياً، في روح الإنسان وفكره الإنسان الذي يفكر ويعتقد بهذه الشخصيات الإنسانية العظيمة، تغيره، تهدم فيه الضعف والخوف والشر وعبادة الأصنام وعبادة الشخصيات والعبودية للذهب والسيف، وتلهمه روح الجهاد والثبات والإخلاص وعظمة المعنويات وتهبه مبادئ جديدة وتقوي فيه القيم الإنسانية، وتقتل في عمق ضميره أمراض الإرادة المشلولة. والعادة، أي عوامل الخطيئة والشر وتصنع منه إنساناً كبيراً، فطبيعي إذن ومنطقي جداً أن تبقى أخطاء الماضي للماضي، وينتهي «هو» الذي كان في الماضي، ولاوجود له الآن، ولن يكون بعد الآن.

فهذا الحر، بطل كربلاء، تخلص من جهنم مجرمي نظام الظلم والإرهاب والشر، بشفاعة الحسين، فأوصل نفسه، بعدة خطوات، إلى ذروة أبطال الحرية والحقيقة والانسانية. وفاطمة لم تصبح فاطمة،

إلاّ بشفاعة محمد(ص)، إذ أن الشفاعة في الإسلام هي عامل الحصول على «إستحقاق وأهلية الخلاص» لاوسيلة «لخلاص غير المستحق» فالشخص هو الذي يجب أن يأخذ شفاعته من الشفيع فيغير بذلك مصيره، أي يغير سريرته بحيث يصبح أهلاً لتغيير مصيره، أجل، فالشخص هو الذي يأخذها من الشفيع، لا أن يعطيها الشفيع له، إن أي عنصر مذنب وملوث، لاقيم عنده ولا مبادئ، ليس من الممكن أن يمر على «الصراط» بأي حيلة ووسيلة، إلاّ أن يكون قد تعلم فن «إجتيازه» في هذا العالم، «عالم الحياة والكدح والعمل والخدمة والخيانة»، والشفيع هو أحد هؤلاء المعلمين.

إن الحسين يصبح شفيعاً للإنسان الذي يربيه حب الحسين والإيمان به وذكراه وقصته، على أن يكون مجاهداً فينقذه بذلك من الضلال ويقوده نحو الطريق الذي يكون فيه إماماً.

وإلاّ فان الدموع لن يكون لها أي أثرٍ كيميائي على ذنوب الإنسان، إذا لم تؤثر على وعيه ومعرفته وسريرته.

ـ يا فاطمة إعملي، فإني لست بمغن عنك شيئاً غداً!

فاطمة كانت «مثال» محمد(ص). ومحمد أيضاً لم يستثنَ في نظام العدل الإلهي وقانون الإسلام، فهو مسؤول أيضاً، عليه أن يجيب عن كل خطوة يخطوها، وكل كلام يقوله، مرة، قامت إحدى نساء قريش ـ والتي كانت قد أسلمت ـ بسرقة، سمع النبي بذلك، يجب قطع يدها. كثير من الناس أشفقوا عليها، واعتبرت الأسر الكبيرة في قريش هذا العمل وصمة عارٍ لا تمحى.

جاءوا إليه يطلبون الشفاعة، سألوه أن «يشفع» عندالله لهذه المرآة، فلم يرض، توسلوا «بأسامة بن زيد»، أسامة هو إبن زيد، إبن النبي(ص) بالتبني، والذي كان النبي(ص) يحبه هو وابنه أسامة حباً جماً، فسأله أسامة، برصيد الحب والقرب الخاص الذي كان يتمتع به عند النبي، وماضي الوفاء والتضحية لديه ولدى أبيه، غلام خديجة مولى الرسول(ص)، سأله أن يغفر لهذه المرأة القرشية الشقية زلتها. أجابه النبي(ص):

ـ لاتكلمني يا أسامة، فطالما القانون بيدي، لن تجد لها مفراً، فلو سرقت فاطمة بنت محمد، لقطعت يدها.

لماذا إختار «إبنة محمد» من بين كل أقربائه؟ ولماذا باسمها: فاطمة؟ الجواب على هذه الأسئلة واضح، أفلم يختر فاطمة الصغيرة من بين كل أقاربه، من بين كل أفراد عائلته، ومن بين كل بناته، عندما جهر بدعوته، وجعلها مخاطبة دعوة الإسلام الكبيرة؟

وفاطمة، حسب تصريح له هو «ص»، هي إحدى أربع وجوه نسائية ممتازة في تاريخ الإنسان، **مريم، آسية، خديجة، وأخيراً: فاطمة**.

لماذا في النهاية؟

أكمل حلقة في سلسلة التكامل، في كل الكائنات، على مدى العصور وفي كل فترات التاريخ، هي الأخيرة، وكذلك في الأنبياء، الأخيرة، وفاطمة، من بين كل نساء العالم، النموذجيات، الأخيرة.

كرامة مريم، بعيسى الذي ولدته وربته، كرامة آسية(زوجة فروعون)، بموسى الذي ربته، ورعته، وكرامة خديجة بمحمد(ص)

الذي نصرته وبفاطمة التي ولدتها وربتها.

وكرامة فاطمة؟

كيف أقول؟ وماذا أقول؟

بخديجة! بمحمد(ص)! بعلي(ع)! بالحسين! بزينب! بنفسها!!

الآن يعيش عليّ وفاطمة، في بيت خارج المدينة، بعيداً عن الحياة، والمدينة والناس، في قرية «قباء»[1] على مسافه ثمانية كيلومترات جنوب المدينة، جنب مسجد «قباء» وهو نفس المكان الذي أقام فيه النبي(ص) في بداية هجرته للمدينة أسبوعاً كاملاً، ووصل إليه علي الذي بقي في مكة ثلاثة أيام بعد رحيل النبي(ص) عنها، ثم دخل النبي لأول مرة إلى المدينة من هناك، فأسس أساس الإسلام الحر في هذه المدينة، وبنى مسجده، بيت اللّه والناس، وبدأ التاريخ.

وأي صدفة عجيبة هذه.. أن يذهب عليٌ وفاطمة إلى قباء، مرة أخرى، ويبنون أول بيت لهم جوار مسجد قباء، أول مسجد بُني في الإسلام، ويبقيان لفترة هناك، مؤسسين بذلك «بيت العترة» في ذلك

---

(١) هذا حدسٌ أقرب إلى اليقين مني، يقول التاريخ: ان علياً وفاطمة عاشا في بداية حياتهما في بيت غير هذا البيت المشهور الآن، وقد أشاروا لي في السفر الذي قمت به صيف هذا العام من أجل التحقيق في آثار حياة النبي وآثار عصره في مكة والمدينة وباقي أراضي شبه الجزيرة العربية، إلى مكانٍ باسم «دار فاطمة» جوار مسجد قباء، قرب بئر «الخاتم» وقد بقي منه قطعة حجرية في ركن منزوٍ واضح أن هذا البيت لايمكن أن يكون غير تلك الدار، فالقول باحتمال إمتلاك فاطمة لبيت شخصي هناك قولٌ لا أساس له وغير وارد.

المكان، فينشأ التاريخ الذي يبتدئ بعلي وفاطمة من هناك.. من نفس المكان الذي بدأ فيه تاريخ الإسلام، ثم يدخلان المدينة، ويسكنان بيتاً مقابل بيت النبي(ص) وجنب مسجده.

إن التشابه بين هاتين «البدايتين» وتطابق هاتين الحادثتين، ليهز مشاعر كل من يعرف الإسلام والتشيع الحقيقي، ويعرف قصة «مسجد النبي» و«بيت النبي» وإذا لم يثر المنطق، فانه ولاشك سيثير العاطفة.

ولكن، صعب «على النبي(ص)» ألا يرى عليّاً وفاطمة إلى جنبه، وفراق علي صعب عليه كفراق فاطمة، فعلي قد عاش مع النبي(ص) في بيته، منذ نعومة أظفاره.

والآن، يعيش هذان الإثنان ـ وهما روح بيت محمد(ص) ـ بعيدين عنه وخارج المدينة، في بيت توافق فيه الفقر والمشقة مع الحب والإيمان توافقاً عجيباً، وعظيماً، وعلي الذي درج مع الفقر والوحدة والمشقة، ثم المنازعات والبغضاء والجهاد وترويض النفس والثبات وتحمل الحياة العابسة في مكة، ولم يمض شبابه وحتى طفولته إلاّ في منازعات الدين والجهاد، عليٌّ هذا، روحه جادة جداً، زاهدة، لايفكر بالبيت والحياة واللذة والثروة والترف، فمٌ لا يرتوي الاّ بالمرارة، معتادٌ على التفكير والعمل والجهاد، فاطمة أيضاً هي عصارة الألم والزهد والفقر، وقد أثرت على روحها الشفافة، الآلام والمصاعب التي لاقاها أبوها، وأمها وأخواتها، هي وأخوها علي، في السنوات التي كانو فيها بمكة.

جسمٌ نحيل، وعاطفة رقيقة، وقلب حساس، تعصره الآلام والمصاعب والفقر في بيت علي(ع)، فلا علي، هو رجلٌ يهتم بمشاغل الحياة اليومية وملاهيها وعبثها العائلي، ولافاطمة هي تلك المرأة التي يهمها ضجيج ولهفة أيام الزواج الأولى، كي تنزل بعلي من سمائه إلى الأرض.

إن النبي(ص) هو الشخص الوحيد الذي يثير أمواجاً من التحرك في هذا البيت، برعايته وحنوه وحدبه، وحبه وكلماته التي كانت كالشهد والحلاوة.

والنبي(ص) يأتي بعلي وفاطمة إلى جواره بإدراكه لحاجة هذه الأسرة العزيزة التي تعيش وتحيا «بالحب».

فيكون بيتهم مثل بيته تماماً، داراً من الطين وسعف النخيل، بابها على المسجد، تجاوره جداراً بجدار، بنافذتين متقابلتين واحدة من بيت علي والأخرى من بيت محمد(ص).

إن هاتين النافذتين المتقابلتين، ترجمة حية لقلبيهما المتقابلين، قلب أب وقلب بنت، تفتحان كل صباح لبعضهما.

ومن هذه النافذة، كان النبي(ص) يلقي التحية على فاطمة كل صباح، إلاّ في أيام سفره، كما يقول المؤرخون.

لماذا كان على بيت فاطمة فقط، من بين كل الصحابة والأقارب، وحتى بناته، أن يكون في المسجد ومجاوراً لبيته هو؟ كما لو أنهما بيت واحد؟ وقد كانا هكذا في الواقع. فبيت محمد(ص) هو بيت فاطمة. وأسرة محمد(ص)، هي الأسرة التي كان فيها علي هو الأب،

فاطمة، الأم، الحسين الإبن، وزينب البنت!

إن «العترة» و«أهل البيت» الذين أكد عليهما كثيراً في القرآن والسنة مطهرين من الرجس، ومحفوظين بالعصمة، ويشكلان مع القرآن ثقلين تركا للناس في كل العصور والأجيال، هما هذا البيت وهذه الأسرة، وكل من يعرف هذا البيت، لن يكون بحاجة إلى الإستدلالات العقلية والبحوث الكلامية فان لم تكن أية رواية ونقل، سيعترف بها العقل.

والآن، بُني في المدينة، بجوار جدار عائشة، هذا البيت، فتفتحت أزهار هذا الإرتباط، الكبيرة والنادرة، متتابعة:

الحسن، الحسين، زينب، أم كلثوم.

بدأ تاريخ آخر، وظهرت آفاق جديدة بطلوع هذه النجوم:

لمحمد(ص) معنى الحياة، للإسلام: الحجة في الدعوى، للبشرية: كل شيء.

في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد عام من الزواج، ولد الحسن فاحتفلت المدينة، بأثمار إنتظار محمد(ص)، وتذوق محمد(ص) لأول مرة بعد ستة عشر عاماً، لم يسمع فيها إلاّ السباب والاذى والحقد والعداوة والشر والخيانة وأخبار تعذيب وقتل أعزائه، تذوق لأول مرة طعم الحياة الحلو.

يدخل سعيداً، مسروراً إلى بيت فاطمة، يحتضن أول ثمار إرتباط علي بفاطمة يؤذن في أذنه، وأخيراً، ينفق بمقدار وزن شعره فضةً على فقراء المدينة. يمر عام، فيأتي الحسين.

ولد الآن، صبيان للنبي(ص).

هكذا أراد القدر، مات ولده القاسم والطاهر، كي يكون أولاده من فاطمة. كان يجب أن يكون إستمرار نسل النبي في إبنته، فاطمة! فاطمة.

وعلي، ما كان يجب أن يبقى بعيداً عن السلسلة التي تبدأ من محمد(ص)، أفليس علي هو إمتداد محمد(ص) في المعنى، ووارثه في الروح؟

إذن، كان يجب أن يكون إستمراراً لمحمد(ص) في النسل أيضاً. كي ترتبط هاتان الروحان ببعضهما، في تتابع الأجيال، وأن يكون عليٌ حاضراً في ذرية محمد(ص)، وأن يكون محمد(ص)، يرى الثلاثة في وجهيهما، علياً، فاطمة، ونفسه! يشكر القدر أن وهبه بديلاً عن إبنيه، هذين الولدين، ثمرتي إرتباط علي بفاطمة.

فاطمة أم أبيها ـ وكل الصحابة يعلمون بذلك ويرددونه ـ «أصغر بناته وأعزهن» وأحب إليه من علي.

وعلي؟

إبنه، ربيبه، اخوه، وأعز عليه من فاطمة.

فخيوط الحب التي تربط علياً بمحمد(ص) كثيرة لاتحصى، كلاهما يعودان إلى عبدالمطلب، وأم علي، رعت محمداً(ص) مذ كان في الثامنة، وأبوه أبوطالب كذلك، فقد درج محمد(ص) من الثامنة من عمره حتى الخامسة والعشرين في بيت علي، وعلي أيضاً، عاش في بيت محمد، من الطفولة وحتى الخامسة والعشرين، رعته

خديجة كأم ورعاه النبي(ص) كأب.

أية روابط قريبة متقابلة هذه، قرابات متشابهة.

فعلي هو أول المصدقين بالإسلام، وأول يد بايعت النبي(ص) في غربته ووحدته ومنذ ذلك الحين، وقف دائماً بوجه الأخطار، وعاش في قلب الأحداث والمصاعب حتى... الموت.

قبل البعثة، عندما كان صغيراً، طفلاً في السادسة أو السابعة، كان يأخذه معه وحيداً إلى غار حراء، يرافقه في خلوته وتأملاته العميقة، ومناجاته العجيبة، في ليالي وأيام العزلة تلك.

لقد كان قمر شبه الجزيرة يرى دائماً، على جبل النور و غار حراء، في صمت ليالي رمضان يرى رجلاً وحيداً يقف على سفح الجبل، أو يجلس أو يخطو بهدوء، يغرق أحياناً في بحر الالهام، في أحاسيسه الخفية الغامضة، و يرفع أحياناً أخرى رأسه إلى السماء، كمن ينظر إلى شئ معين في أماقها المجهولة، ينتظر شيئًا معيناً، أو يرى شيأ معيناً لم يسبق له معرفته. وفي كل هذه الحالات كان هنالك دائماً صبي، يرافقه كالظل، أحياناً على كتفه و أُخرى إلى جانبه.

وأيضاً، كان علي طفلاً صغيراً، بثمان أو عشر سنوات، عندما دخل مرة إلى حجرة أبيه وأمه: محمد(ص) وخديجة!

شاهدهما يركعان ويسجدان، يجلسان وينهضان، ويهمسان بأشياء خاصة سويةً، دون أن يهتما به أو ينتبها له، بقي مدهوشاً، متحيراً، ولكنه سأل في النهاية: ماذا تفعلان؟

أجابه النبي(ص):

ـ اننا نصلي، أمرت أن أبلغ الناس دعوة الاسلام و أدعوهم لتوحيد الله ورسالته. يا علي، إنني أدعوك أنت أيضاً.

وعلي، وإن كان مايزال طفلاً صغيراً ويعيش في بيت محمد، وإن كان غارقاً في حبه وعطفه ورعايته، ولكنه علي.

إنه، لايقول نعم، بدون تفكير. فيجب أن يمر إيمانه عبر عقله، كي يجد طريقاً إلى قلبه بعد ذلك، ولكن وعلى أية حال فلسانه ناطق عن سنه وعمره:

ـ إسمح لي أن أصارح أبي، أباطالب، بذلك، واستشيره في الأمر، ثم أقرر. ثم خرج من فوره، كي ينام في حجرته.

ولكن هذه الدعوة ليست أمراً عادياً أو دعوةً عادية، تترك علياً ينام هانئاً، هادئاً لقد بقي مستيقظاً جفاه النوم حتى وقتٍ متأخر.

إن أحداً لايعلم ماذا كان يجري في بال وذهن هذا الطفل الكبير تلك الليلة، ولكن الصباح، كان يبشر بالخير، فها هو صوت أقدامه الصغيرة يأتي عن ثبات في الرأي وتصميمٍ قاطع، ووصل إلى حجرة أبيه ـ إبن عمه ـ وقال بلحن طفولي عذب وبمنطق علي الرائع المحكم:

ـ لقد فكرت مع نفسي الليلة الماضية، فوجدت أن الله لم يستشر أبي أباطالب في خلقي، والان، لماذا عليّ أن أستشيره في عبادته؟ أعرض عليّ الاسلام.

فأخبره النبي، وقبله علي. ومنذ ذلك الحين نذر كل لحظات عمره من أجل هذا الايمان وهذا العهد، فأصبح آية عظيمة في عبادة الله

والوفاء لمحمد وحب العباد، وعظمة الروح، واتصل بمئات الخيوط الخفية والظاهرة بروح وفكر وقلب محمد(ص).

وكان الجميع يعلمون ذلك والنبي أكثر من الآخرين، حيث كان يحس بالاف الأشعة الخفية للحب تشرق على علي من روحه. ولهذا أراد عليّ بعد أن أحس بحب النبي(ص) بروحه أن يسمع ذلك من لسانه، فسأله قائلاً:

أيُّ الاثنين احب الى رسول الله من صاحبه: إبنته الزهراء، أم زوجها علي؟

أحس النبي(ص) أنه وضع أمام سؤال محرج، ولكنه إبتسم وقد عثر على جواب شعر أنه بيان عما يحس به قلبه وقال بصوت ملئ بالثقة:

ـ فاطمة، أحب إليّ منك، وأنت، أعز عليّ من فاطمة.

والان، جاء الحسن والحسين، أحفاده، ثمرة وجود وحياة «أحب أعزائه». و«أعز أحبائه» في كل الدنيا.

النبي الذي تحدث عنه التاريخ بكل هذا الحجم، عن إرادته وحزمه وقدرته، وخافه الأكاسرة والقياصرة وجبابرة العالم كل هذا الخوف، كان في نفس الوقت، رجلاً عاطفياً مرهفاً، بقلب ينبض بالحب، وروح تثيرها الأيادي الحميمة الصادقة.

ففي حرب حنين الرهيبة التي إتحد فيها أعداؤه كجسد واحد من أجل إبادته وقتله، والتي أسر فيها النبي آلاف الأسرى، وغنم فيها المسلمون أربعين ألف بعير وآلافاً من رؤوس الغنم والشياه. جاءه رجل

من العدو المهزوم وقال:

«يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك! ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل مانزلت به، رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين!

ثم جاءوا بامرأة تصيح:

«تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة» فسألها النبي(ص): « وما علامة ذلك؟» فقالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك».

أثير النبي(ص) بشدة، وتذكر حنان وحب مرضعته وبناتها، وتذكر أيام حياته في الصحراء بين هذه القبيلة، حتى إغرورقت عيناه بالدموع، فبسط لها رداءه، ثم قال: هاهنا، فأجلسها عليه، وخيرها، وقال: إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت امتعك، وترجعي إلى قومك، قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله(ص) وردها إلى قومها [1]

وهكذا كان أيضاً في بيته وعائلته، في الخارج، رجل الحرب والسياسة والقيادة والقدرة، وفي البيت،أب عطوف وزوج حلو الطباع ومحب إلى درجة، كانت فيها نساؤه اللاتي لم يكن يسمعن في ذلك الوقت غير لغة الضرب في المجتمع والتي ماكان النبي

---

(١) تاريخ الطبري، مج٢، ص١٧١. المترجمة.

يعـرف شيئـاً عنهـا، يتـجـرأن عليـه ويؤذنيه ومـع ذلك فلم يمد يده الى أية واحـدة منهـن طوال عـمـره، والمرة الوحـيـدة التي وبـخـهن فـيـهـا كانت عـندما بدأن يضـيقن الخناق عليـه ويشكين من أنهن لايتحـملن كل هذا الفقر في بيـته، فلم يفعل شيئاً غـير أنه، هجر هن، فلم يذهـب إليـهن للبـيتـوتة معهن بل نام شـهـراً كامـلاً في مـخزن البيت، حـتى هدأت نسـاؤه ـ والـلائي كن يحـبـبنه ويـؤمن به في نفـس الوقت ـ وخـجلن من تـصـرفـهن، فـاسـتـسلمن له، عنـدها خـيـرهن بين الطلاق والدنيـا أو نفـسـه والفقـر، فـاخـترن جـمـيـعاً ـ إلا واحـدة ـ [1] الرسول والفقر.

إن الرسول(ص) مـا كان يحـاول إظهار نفسـه على أنه إنسان غـير عادي، وغامض، تحيط شخصه الرموز، بل على العكس من ذلك كان يتظاهر بالبـساطة، ويردد دائمـاً أنه لايعلم من الغيب شيئـاً إلاّ مايوحى إليه، بالاضافة إلى مايقـوله عنه القرآن، «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ»، فكان يتـصرف تصرفـاً يظهره كـأي إنسان عـادي آخر، وكـان يحاول أن يبعد الخوف والرهبة منه عن قلوب الناس.

جـاءته عـجـوز يومـاً تسـأله عـن بعض الاشـيـاء، ولكنـهـا مـا إن وصلت إليه حتى اخذت ترتجف وبدأت فـرائصها بالارتعـاد تاثراً بكل ماسمـعته عنه من الاخـبار والعظمة، و عند مايشـعر النبي(ص) بذلك، ويعلم أن شخـصيتـه وجلاله أثرا عليـها، يقتـرب منها بتـواضع وبساطة

---

(١) باعته بالدنيا، فلم تشترها الدنيا، وماتت فقيره.

ثم يضع يده على كتفها برقة قائلاَ:

ـ ماذاجرى يا أماه؟ إنني إبن تلك المرأة القرشية التي كانت تحلب الماعز.

أية عاطفة عميقة هذه؟ أية رقة رائعة، وأي قلب حنون، ذلك الذي يمتلكه هذا الرجل، إنها العظمة!

اما في البيت فقد كان يتواضع إلى درجة يستطيع فهم إحساس عائشة ذات التسع سنوات واللحاق به، يقبل يد فاطمة، أما تعابيره في الحب، فلها خاصية فريدة: «علي مني وأنا من علي، فاطمة بضعة مني...»

والان الحسن والحسين.

يالروعة مايفعله معها!

إنه من النوع الذي يحب الأبناء، بالذات لأنه كان يتمنى الولد، في نفس الوقت الذي كان يحترم فيه بناته و يحبهن إلى درجة لايستوعبها إدراك الرجل المعاصر، ولكن القدر، أبقى له بنتاً واحدة، وقد جاءته إبنته الوحيدة بصبيان، فمن الطبيعى إذن أن يحبها بشدة، تثير دهشة الجميع:

ـ دخل يوماً إلى بيت فاطمة، ككل يوم، وككل ساعة ولحظة منذ مجيء الأطفال! دخل، رأى فاطمة وعلياً نائمين، بينما الحسن يبكي جائعا، ولكنه لم يستطع إيقاظ أعز أحبائه وأحب أعزائه، فأسرع هو، وحلب نعجةً كانت في البيت، ثم أطعم الطفل الجائع حتى هدأ.

ومر، يوما، مستعجلاً امام بيت فاطمة، فجأة سمع صوت بكاء الحسين، عاد، ودلف إلى البيت قائلاً لفاطمة بعتاب:

ـ أما تدرين أن بكاءه يؤذيني؟

كان أطفال علي وفاطمة، يرون في وجه النبي(ص)، سمات الجد، الأب، الصديق، وقريب العائلة، والراعي، ورفيق اللعب، وكانوا أحراراً معه أكثر منهم مع أبيهم وأمهم. مرةً تأخر النبي(ص) في السجود. فأثار ذلك الدهشة عند الجميع، الذين كانوا قد سمعوا عن النبي توصيته بمراعاة أضعف الناس، وكان يسرع في الصلاة، فظنوا أما أن تكون حادثة قد وقعت، وأما أن الوحي قد نزل الساعة، سألوه بعد الصلاة عن السبب، قال، قفز الحسين على ظهري فهو معتاد على هذا دائماً في البيت، والآن وبمجرد و اَن رآني اسجد، ركب على ظهري، لم احبّ ان اضعه أنا، فانتظرت حتى تركني هو، لذلك تأخرت في السجود.

ألم يكن النبي(ص) عامداً في إظهار كل هذا الحب لهذين الطفلين الحسن و الحسين و أمهما و أبيهما، أمام الناس و بالذات صحابته؟

وإلاّ فلماذا يكرم فاطمة كل هذا التكريم أمام الجميع؟ يقبل يدها ووجهها؟ يمدحها ويثني عليها بهذا الشكل في المسجد؟ ويعلن عن حبه وعلاقته غير العادية بهذه الأسره على المنبر؟ وبالذات إلحاقه لهذا الرجاء في نهاية كل مديح للحسن والحسين، لفاطمة وعلي:

اللهم أحبه أنت أيضاً، أو أحبهم أنت أيضاً، من أرضاها فقد

أرضاني، أو من أرضاهم فقد أرضاني، ومن أرضاني فقد أرضاك. اللهم من آذاها، من آذاهم، فقد آذانى، ومن آذاني فقد آذاك.

هذه الشروط؟ كل هذا الحب وكل هذا التعبير عن عاطفته الخاصة تجاه أفراد عائلته... لماذا؟

الغد، يجيب عن كل هذه الاسئلة، فمصير الأسرة، فرداً فرداً، جواب لهذه الأسئلة.

فما أن يرحل النبي(ص)

أول الضحايا، فاطمة، ثم علي، ثم الحسن، ثم الحسين، أخيراً.... زينب.

السنة الخامسة، سنة بعد الحسين، ولدت بنت لهذه الأسرة، كان يجب أن تولد زينب مباشرةً بعد الحسين، ثم بعد عامين بنت أخرى: أم كلثوم.

زينب وأم كلثوم، أسماء بنات النبي(ص).

وفاطمة تصبح «كل شئ» لمحمد و «شيئه الوحيد». تموت إبنته زينب، ورقية وأم كلثوم أيضاً، في السنة الثامنة، يرزقه الله صبياً، إبراهيم، ولكنه يستردّه منه بعد عام.

وآلان، هاهوذا محمد(ص)، والابنة الوحيدة التي تبقى لديه. فاطمة وأبناؤها. هؤلاءهم «أهل بيت النبي».

وحب النبي(ص) للحسن والحسين، يزداد يوماً بعد آخر، وقد أصبحا كل حياة محمد(ص) فكلما خرج من البيت، وأينما ذهب، في الازقة، في شوارع المدينة وأسواقها، هنالك دائماً من يرافقه منهما

محمولاً على كتفه.

كان يتحدث على المنبر، والجمع ينصت ساكتاً، فجأةً يدخل سبطاه إلى ساحة المسجد، والتي هي في الواقع ساحة منزلهم أيضاً، بقميصين أحمرين يتعثران بمشيتهما إنتبه النبي(ص) إليهما، فلم يستطع غض النظر، ظل يتابعهما برهة، ولكنه أخيراً لم يطق صبراً، فنزل من على المنبر واتجه نحوها، ثم حملهما وجاء بهما، وعاد إلى منبره، وخاطب المجمع المندهش من كل هذا الحب، وهو يضعهما برقة أمامه.

ـ صدق الله العظيم «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» قد وقع نظري على هذين الطفلين فرأيتهما يمشيان ويتعثران، لم أطق صبراً، حتى قطعت كلامي وحملتهما.

ولكن يبدو أن مداعبته للحسين، لها وضع آخر، فقوة الحب تتعدى حدها، يمسك بكتفيه، يلاعبه، يتمدد، ويضع قدميه على صدره، يقول له: «إفتح فمك» فيفتح الطفل فمه، عندها يلثمه من شفتيه بحب وحنان لايوصف قائلاً:

«اللهم أحبه، فانني أحبه».

كان مرة يسير مع بعض أصحابه مدعواً الى مكان، فرأى الحسين يلعب مع أقرانه في الزقاق، فلم يستطع الصبر والتحمل، إقترب منه وناداه، ولكن الحسين فرمن بين يديه، فأخذ يتبعه ويطارده حتى أمسك به ضاحكاً، وضع إحدى يديه خلف رأس الحسين والاخرى تحت ذقنه وقبله بحب وحنان قائلاً:

«حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحبّ الحسين».

دهش مرافقو النبي(ص) من هذا التصرف، والتفت أحدهم إلى الاخرين قائلاً:

- إنظروا إلى النبي كيف يفعل مع حفيده، عندي صبي والله لم أقبله يوماً. فقال النبي(ص) الذي إنزعج من هذه القسوة:

- من لايرحم لايُرحم.

كانت الأيام والليالي تأتي وتمضي، وفاطمة تتذوق أحلى أيام حياتها فتنسى بالتدريج مرارة الأيام الصعبة الماضية.

وقعت حرب خيبر، وأعطى اليهود أرض فدك للبني، فوهبها هو إلى فاطمة ذات الأربعة أطفال والتي تخلصت الان بفضل فدك من بعض فقرها.

ثم فتحت مكة، وعادت فاطمة برفقة أبيها المنتصر وزوجها البطل حامل الراية، إلى مكة المكرمة، فشهدت أعظم نصر للاسلام، وجددت ذكرياتها في مسقط رأسها: المسجد الحرام، وتلك الحوادث، بيت أبيها، حياتها بجوار أخواتها اللاتي لم يعدن موجودات الان، «مولد فاطمة»، شعب أبي طالب، قبر أبي طالب، قبر أمها خديجة.

هاهي ذي تعود، تنضح نصراً وسعادة، غارقة في الفخر والسرور. أبوها يرتاح رويداً رويداً من أحقاد العدو، وتخيم ظلاله الوارفة الخضراء على كل شبه الجزيرة، وزوجها، وجه ضربات إلى العدو في بدر وأحد والخندق وخيبر وفتح مكة وحنين واليمن، إحداهن

«أفضل من عبادة الثقلين»

وبرفقة أبنائها، الثمار الوحيدة لحياة كلها تعب وألم، ولعلاقه كلها حب وإيمان، وإستمرار ذرية أبيها، وهي، قلب العترة، محور بيت واسرة النبي الطاهرة.

أجل، يبدو أن فاطمة، قد استلمت ثواب كل آلامها ومرارتها، وفضائلها.

أما أكثر مايروي ظمأها فهو ماتراه من سعادة مشرقة عند أبيها بولديها، أبيها الحبيب الذي حرم من الأبناء الذكور وحتى كل الأبناء، فبناته توفين في شبابهن جميعاً، ولم يبق إلاّ هي، كما أنه لم يحصل على أي طفل من بقية نسائه اللاتي تجاوز عددهن الثلاث عشرة إمرأة بعد خديجة باستثناء إبراهيم، من الجارية المصرية والذي توفي في طفولته، هاهي ترى نفسها الان وقد جبرت قلبه بحسنها وحسينها وزينبها وأم كلثومها، وعرفته بلقائهم على حلاوة الحياة التي لم يذق فيها إلاّ المرارة بالذات وقد تجاوز عمر أبيها الان الستين، فهو بأمس الحاجة إلى هؤلاء الأبناء أكثر من أي وقت مضى.

ها قد بدأت الحياة تعطف وترق، فترسم إبتسامة جميله على وجه فاطمة، وتحيط بيتها بهالة من السعادة والافتخار والعزة. وفاطمة تتمتع بحب أبيها الذي لا يوصف، وعظمة زوجها والحماس الذي يثيره أبناؤها في حياتها، تجلس في هودج من السعادة، والكمال وتحقق الأحلام والامال.

ولكن، كل هذه الأشياء، هي سكون ماقبل العاصفة، وجاءت

العاصفة. سوداء، هوجاء، رهيبة، دمرت بيتها.

رقد النبي في الفراش.

ولم.يستطع أن ينهض مرة أخرى.

تغيرت الوجوه فجأة في عينيها، المدينة النظيفة الطيبة، إمتلأت بالحقد والبغضاء فالسياسة، قد سلبت مدينة محمد(ص) الايمان والاخلاص، تفككت الروابط الأخوية، وعادت الروابط القبلية تتنفس من جديد.

إذ لم يعد النبي(ص) هو الذي يدير المقود.

يرسل في طلب علي، فتخبر عائشة وحفصة أبويهما.

بالأمس، سمعت صوت عمر يصلي في محراب أبيها، و اليوم صوت أبي بكر.

جيش أسامة، يتوقف في الجرف ولايتحرك، برغم إصرار ابيها على تحركه، إذ يرتفع صوت الاعتراض على إختيار أسامة قائداً للجيش، بالرغم من انّ من اعطاه الراية هو النبي نفسه(ص).

واليوم هو «الخميس» وياله من خميس، تغرورق عينا أبيها بالدموع، أمر أن «إئتوني بلوح وقلم كي أكتب لكم شيئاً لن تضلوا بعدي أبداً.أثاروا ضجة، لم يدعوه يفعل ذلك، قالوا إنه ليهجر، قالوا كتاب الله موجود، ليس هنالك حاجة للكتابة.

وها هوذا أبي صامت في بيت عائشة، مجاوراً لجدار بيتي، رأسه في حضن علي، فشفتاه لاتنطقان، يتكلم معي بعينه أكثر:

إنني لاطاقة لي على كل هذا الضيم ـ وهو أبي ـ وأنا كنت أمه.

كيف له أن يتركني وحيدة مع هؤلاء؟

ولكنه لايرفع نظره عني، قلق عليّ أكثر من أي شخص آخر، قرأ في وجهي ما أعانيه من ألم. رق قلبه عليّ. فاطمة، إبنته، أصغر بناته وأحبهن إليه.

أشار إليّ بعينه، أحنيت رأسي على وجهه، قال في أذني أن هذا المرض هو السام، إنني راحل.

رفعت رأسي، هجم عليّ الشقاء والمصيبة حتى أعجزانني، فمصيبة بقائي بعد أبي، كادت تمزق قلبي.

لما ذا يخبرني أنا فقط بهذا؟ أنا التي هي أكثر الجميع عجزاً عن تحمل ذلك. ولكنه لازال ينظر إليّ، رق قلبه على حيرة وإضطراب صغيرته المحتاجة إليه كطفل صغير أشار مرة أخرى، كأنما يريد الاستمرار في كلامه، قال:

ـ ولكن أنت يا إبنتي، ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي، ثم أضاف:

ـ أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين؟

يا له من عزاء عظيم. أية بشرى غير هذه تطفئ نار هذه المصيبة؟ رائع أنت يا أبتاه. تعرف كيف تسلي فاطمة وتواسيها، وتعرف لماذا عليّ أنا من بين كل هؤلاء أن أسمع هذا الخبر، والان، بامكاني أن أبكي، وأن أنوح:

وأبيضُ يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى، عصمة للأرامل

فجأةً فتح النبي(ص) عينيه، قال لها:

- فاطمة، هذا شعر أبي طالب في مدحي. لا تقرأي الشعر، إقرئي القرآن، إقرئي: «وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» ثم قال:

- لعن الله قوماً صنعوا من قبر نبيهم معبداً لهم.

لم يدعه السياسيون يكتب شيئاً، سألوه أن يقول مايريد كتابته بلسانه. نظر إليهم متألماً وقال:

- إن الذي أنا فيه، خير مما تدعونني إليه.

ثم أوصاهم، إذ إستمروا يلحون عليه في ماذا أردت أن تكتب، بثلاثة أشياء هي أولها طرد المشركين من جزيرة العرب، وثانيها إستقبال وفود القبائل العربية كما كان يستقبلها هو، وثالثها:...!

صمت!

تحولت الأنظار فجأةً إلى علي، وعلي، كان غارقا في تفكيره، ملتزماً الصمت مع حزنه، سكت أبي، وطال سكوته، تعلقت عيناه بمكان ما، واستقرت نظراته الفادقة بالدموع على نقطة في باله،...

إنصرف الجميع.

صرخت من فرط ألمي، ما أعظم مصيبتك عليّ يا أبتاه!

ولكنه قال في جوابي، بصوت قرأت فيه كل معاني الراحة والخلاص:

«لاهم لأبيك بعد اليوم».

وأطبقت شفتا أبي.

الشفتان الناطقتان بالوحي، الشفتان اللتان كانتا تقبلان إبنته وأبناءها. نظر إلينا برهة، ثم إنطفأت نظراته، وسال الدم من فمه.

كان رأسه على صدر علي، وكان علي صامتاً، صمتاً رهيباً وثقيلاً، كأنه ميت قبل النبي(ص)، إنحنت عائشة على أبي وكذلك بقية نسائه.

أجل، أجل!

مرت لحظات الرهبة والهول، في صمت الموت.

فجأةً، سقطت يداه اللتان وضعهما على رأس أسامة داعياً، وتحركت شفتاه.

إلى الرفيق الأعلى.

وانتهى كل شيء.

أبتاه. يا أبتاه!

أجاب رباً دعاه،

إلى جبريل تنعاه.

إرتفع الضجيج في الخارج. كانت المدينة تبكي بخوف وشك وجاءني صوت عمر يقول: ما مات رسول الله، ولايموت حتى يظهر دينه على الدين كله، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ممن أرجف بموته، لا أسمع رجلاً يقول: مات رسول الله إلا ضربته بسيفي.

إنصرمت عدة ساعات، هدأ الوضع فيها، رأيت أبابكر وعمر يدخلان، رفع أبوبكر الغطاء عن وجه أبي، بكى ثم ذهب، هو أيضاً

إنصرف، وعلي إنشغل بغسل النبي(ص) وتكفينه[1].

كـان زوجي أبوالحـسن، يغـسل جـسـد أبي الطاهـر وهو يبكي، يسكب الماء على جسـده، والنار على روحه هو، إذ، فَقَدَ الناسُ نبيهم، والمساكين ملجأهم، والصحابة قائدهم الرحيم، وأَما، أنا وعلي، فـقدنا كل شئ، فـجأة شـعرت أننا عـدنا غـريبين في هذه المدينة، وفي هذا العالم.

تغيـر كـل شئ دفـعـة واحـدة، الوجـوه، تقـطر غـربة، والأبواب، الشـبابيك، والجـدران تقطر خـوفاً، و نـصـبت «السـيـاسـة» خـليـفـةً «للصداقة».

إبتعدت الأيادي التي كانت تتصافح بعهد «المؤاخاة» عن بعضها، وإقتربت أيادي الأقارب والأهل، فعادت الطبقية إلى الحياة، إلى جانب جسد أبي الذي فقد الحياة.

أَما أنا وعلي، فقـد كانت الفاجعة أكبـر علينا من أن نفكر في غير وفـاة النبـي(ص) فــفي الحين الذي كــانـت المدينة تُمـلأُ بـالمشــاريع والمؤامرات والمنازعات، كان العالم يبدو فارغاً في أعيننا.

جـاءنا العـبـاس، عمـنا الكبـير وقـال مـخـاطبـاً عليـاً، بينمـا القلق والخوف مرتسم على وجهه:

ـ هات يدك لابايعك، كـي يقولـوا أن عم رسول الـله بايع إبن عم

---

(١) صرحت بذلك كل من الـكتب التالية: طبـقات إبن سعـد، سيرة إبن هشـام ومسند أحمد بن حنبل.

رسـول الله، فـيبـايعك أبناء عـشـيرتك، وعـنـد ما يحـصـل هذا الأمـر، لن يعود...

ـ ماذا؟ فهل يطمع آخر في هذا الأمر؟

ـ ستعلم ذلك غداً.

أحس عليّ بالخطر، ولكن هذا الاحساس لم يكن إلاّ كـبرقٍ إلتمع في صدره وإختفى.

فباطنه مشغول. بحزن آخـر. محمد كان قريب علي وأباه، ووليه، معلمه، أخاه، صـديقه، نبيه، وكل مايدعو عليـاً للفخر، ورأس مالٍ له، وإيمانه وعـاطفتـه ووجـوده، وعلي مـا كان قـادراً على التـفكيـر بغـيـر مـايجـري في داخل هذا البـيـت، فقـد كـان يـحس بروحـه تحت يديه البـاردتين المرتعـشين، حين كـان يغـسل النبي(ص) كـان هو مـشـغـولاً بتغسيل النبي(ص)، وكنت أنا بأبنائه... أبنائي.

الحـسن ذو السنوات السـبع، الحـسين ذو السـت، وزينب ذات الخـمس وأم كـلثـوم ذات الثلاث سـنوات، هؤلاء هم الصـغـار الذين لم يهبهم القدر من بعدهِ سوى الحقد والألم.

وفي خـارج المدينة في «السـقيـفة» كـان أصـحاب النبي المدنيـون (الأنصار) مجتـمعين لاختيار خليفة النبي(ص) من بينهم، فـقد أحسوا أن المهاجرين المكيين (القرشين) قـد خططوا لأنفسهـم شيئـاً ما، ولكن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة يوصلون أنفسهم بسرعة، ويقنعونهم بأن النبي قـال «الخلافـة في قـريش» فـاسـتـدلوا من ذلك، على أن الخليـفـة يجب أن يكون من أقارب النبي(ص)، وانتخبوا أبابكر.

لاقلب يدري، أي شئ يفعله الألم بقلب فاطمة الحساس اليقظ.

فحب فاطمة لأبيها أعظم وأقوى بكثير من حب أي فتاة تهيم بأبيها، هذه البنت هي أم أبيها أيضاً، ورفيقة غربته ووحدته، المزيحة همومه وأحزانه، والمجاهدة معه، المشاركة له في حصاره وآخر بناته، البنت الصغيرة للنصف الثاني من عمر أبيها، أصغر البنات، والابن الوحيد له في هذه السنين الأخيرة، وتركته الوحيدة بعد الموت، **مصباح عترتِه الوحيد، عماد أمله الفريد، وأخيراً، الأم الوحيدة لأبنائه،** ذريته، زوجة عليّه، فاطمته.

لقد عاشت فاطمة وابتدأت حياتها في حضن أمها وأبيها عند ما لم يكن هنا لك أثر لثروة أمها، وخلو بال أبيها، ومرح أخواتها الطفولي، كانت الأم قد تجاوزت الخامسة والستين(١)، وتبدل حالها من الثروة والجاه والغنى، إلى الفقر والعجز والشيوخة وحقد وعداوة المحيطين بها، وخديجة، قبل أن تكون أماً لفاطمة وزوجةً لمحمد، هي المرأة التي كانت أكبر مرافقي الرجل الذي تحمل عبأ الرسالة بسهولة على عاتقه، رسالة تنوير الجاهلية السوداء، وإهداء الدفء الالهى إلى ضحايا شتاء الظلام وإنقاذ الأسرى في قيود النظام الاقتصادي القائم

---

(١) كانت خديجة في الأربعين من عمرها عندما تزوجها النبي(ص)، أو٤٥ عاماً حسب رواية أخرى، وولدت فاطمة في السنة الخامسة قبل البعثة، فاذا قبلنا بالرواية الأخيرة، التي يعتقد بها مؤرخو الشيعة فان فاطمة الصغيرة، عاشت مع امها في أيام كانت فيها الأم بين الستين والسبيعن عاماً، وهي السنين التي لم تعد فيها خديجة، هي خديجة الثرية، بل الفقيرة، المتألمة والعجوز.

على الرق، وسجن الوثنية. وها هي أم فاطمة مشغولة بمحمد(ص)، المثارة في داخله عاصفة عجيبة من الأحقاد والالام وبغضاء عبودية المادة والخصومة، أم فاطمة مشغولة بآلام وثورات محمد(ص)، ومحمد بآلامه وثوراته، بربه ودعوته وناسه، فتشعر فاطمة تماماً في نفس السنين المحتاجة فيها إلى عطف ورعاية الأم والاب، أنهم بحاجة إلى عطفها ورعايتها أكثر.

وهكذا أحبت فاطمة أباها حباً ليس كحب أي فتاة لأبيها، فالاخلاص والعاطفة التي تحسها نحوه والعلاقة التي لاتنهار، ولاتوصف، التي تربطها به، هي وليدة سنين حافلة بالمصاعب والأحقاد والخوف والعذاب التي كان أبوها البطل ضحيتها، كان فيها غريباً في وطنه وبين أقاربه، محارباً من كل الجبهات ومجابها بالجهل والوثنية، حاملاً رسالة إلهية ثقيلة، وحيداً في طريقه الطويل من الأسر إلى الحرية، فريداً في صعوده من مستنقع الضلال في مكة إلى قمة جبل النور، متألماً من الأحقاد والخيانة والجمود في الفكر، وإنحراف الناس، جراحه تسعر في القلب، وتوّذي جسده، بُعث إلى قوم هم أكثر الناس إيذاءً له، وأقاربه الذين هم أقرب إليه من الجميع، يوّذونه أكثر من غيرهم ويبتعدون عنه ويتركونه وحيداً، غريباً، وهو روح متألمة وحيدة، يتحمل من جهة عداوة الأعداء، وبلاهة الناس، ومن جهة ثانية وحدته، وغربته، وحمل عبءَ تلك «الأمانة» التي «عُرضت على السماوات والأرض فأشفقن من حملها» والكلمات التي تواتيه متتالية من الغيب، تلك الكلمات التي

إذا أنزلت على جبل خرّ خاشعاً متصدعاً من خشية الله، تصهر الحديد وتذيبه، ولكنه بالرغم من كل هذه الالام، تقوده كل صباح، النار المشتعلة في داخله، في أعماقه كي يتحدث إلى قومه، يصعد على تلّ «الصفا» ويدعو الناس ويحذرهم من الخطر، مبلغا رسالته في صحن المسجد الحرام، إلى جانب «دار الندوة» وأمام أعين أكثر من ثلاثمائة وثلاثين صنماً أخرس لا إدراك لها ولا روح - يعبدها الناس - ينادي بالحرية، ويدعو لليقظة، وفي نهاية اليوم يعود منهكاً تعباً، بجسد مجروح وقلب طافح بالألم ويدين فارغتين، إلى البيت، خلفه ضوضاء الشتيمة والاستهزاء، وأمامه بيت صامت وعجوز ممتلئة حباً تنتظره على أحر من الجمر.

وكانت فاطمة، طفلة صغيرة، ضعيفة، ترافق أباها، في أزقة المدينة الحاقدة، في المسجد الحرام، الناضح سباباً واستهزاءً وأذىً ترافقه، كحمامة يخرج فرخها من العش فتواجهه انياب وأسنان الطيور المتوحشة والحيوانات المفترسة، تظلل أباها لوحدها، وتحميه بكل وجودها، تحتضن البطل الفريد، بيديها الطريتين الصغيرتين، تمسح الدم عن جسده بأناملها اللطيفة وتداوي جراحه بكلماتها الطفولية البريئة، فتعود بهذا المتالم الكبير إلى البيت، وتثير بين أمها الحزينة وابيها المتألم مشاعر الحب والحنان، وعندما يعود أبوها من الطائف، دامياً وحيداً، تخفّ لاستقباله، وتنسيه كل آلامه وتشرده بمحاولاتها الطفولية، فتسلي عن قلبه بشوقها الشديد، ثم تشاركه حصار الأعداء له

ثلاث سنين متوالية، جوار آمها المريضة، الحزينة، وآبيها المشغول، وتتحمل الجوع والحزن والوحدة والمصاعب التي لاتحصى، وتملأ الثغرة التي تحدث في حياة أبيها بعد موت أمها وعمها، ابوها الذي عاد وحيداً في بيته، خارج بيته، ترعاه رعاية الأم لابنها، وتروي حسه الأبوي، بحبها، فتوقف كل حياتها له، وتهبه القوة والفخر بتقواها وإيمانها برسالة أبيها، وها هي ذي تعيد له الأمل بذهابها إلى بيت علي، وإختيارها لفقره وشرفه، فتهدي أباها المحروم من الأبناء والمصاب بفقد ثلاث من بناته، الحسن والحسين وزينب، أحلى وأعز ثمار حياتها المليئة بالالام، هذه هي الأشياء التي خلقت في روح وضمير فاطمة طوال ثمانية عشر عاماً أو ثمانية وعشرين عاماً، علائق أكثر صميمية من علاقة الأبوة والنبوة، وأشد من الحب، أكثر إخلاصاً من العزيمة والايمان، وأغنى من المحبة.

وها هي الان، ترى كل هذه الخيوط يقطعها الموت، وعليها أن تكون وتعيش، بدونه!

ما أقسى هذه الضربة الموجعة على قلب فاطمة الرقيق وجسدها الضعيف! هذه الفتاة التي عاشت بحب أبيها، بإيمانها بإيمان ابيها، ومن أجل أبيها.

ولم يكن صدفةً، إهتمام النبي(ص) بمواساتها هي من دون الاخرين، على فراش الاحتضار، كي يهبها القوة التي تتحمل بها صدمة موته، وماكانت هذه القوة إلاّ بشرى وفاتها القريبة من بعده، فكان لها هذا الحظ، وهذا القرب الخاص الذي أهلها لأن تكون أول

من يلحق به.

فمن أجل أن تنتـهي فاطمـة(ع)، بأعنف صدمة تسـتطيع الطبيـعة أن توجهها لها، فتمـوت فجأة بافجع شكل، كـان يكفي لذلك موت أبيها، ولكـن القدر لم يكتف بذلك، فجاءتها الصدمة التالية، الصدمة التي إن لم تكن «شديدة» كـالأولى، فلاشك انها كانت عـميقة مثلها ولربما أعمق. لم تتـمهل يد القدر، جـاءت الصدمة التـالية مباشـرة بعد الأولى، بفارق عدة ساعات فقط.

إختيـر شـخص آخر خليـفـة للنبي(ص). ولايفـرق من يكون هذا الشخص، أبابكر، أم غيره، المهم أنه لم يكن علياً.

هنا إتضح كل شيء!

لماذا توقف النبي(ص) عند غـدير خم، بعد حجـة الوداع، وعرّف علياً، على أنه خليـفته، أمـام الجـميع، ثم أخـذ إعـترافـهم بأن ولايتـه مرادفة لولاية علي.

ولماذا، وفي نفس هذه الرحلة تنصب مجمـوعة كميناً للنبي(ص)، في إحدى منعطفات طريق جبلي، قبل الدخول للمدينة، كي تغتاله هو ـ وربما عليـا ـ واضح أن هذه المـؤامـرة لهـا عـلاقـة بحـادثة غـدير خم، إذ لاحادثة تمر في أيام الانتخابات على سبيل الصدف.

ولما ذا، لايفش إسم أي واحـد من هذه المجـموعـة، التي يعلم بهـا النبي(ص) قبل أن يحـدث أي شئ، فيأمـر بازالتها عن الطريق، بينـمـا هي ليـست حـادثة عـادية. خصـوصـاً وان التـاريخ ينقل أقل الحـوادث أهميه واكثرها تفاهة في حياة النبي، لشدة تعلق أصحابه به وإهتمامهم

بتفاصيل حياته.(١)

ولماذا يذهب النبي(ص) الكبير في السن، في آخر حرب له (غزوة تبوك)، مع بقية صحابته الذين كانوا رجال سياسة أكثر منهم رجال سيف وقتال، للحرب مع الروم المحاربين الأشداء في الشمال متحملاً بذلك خطر الموت ولكنه يستثني علياً، ويستخلفه على المدينة، بالرغم من رغبة عليّ الباطنية، وشماتة اليهود وإستهزائهم به، فيقول له: «إنما خلفتك لما ورائي، إن المدينة لاتصلح إلاّ بي أوبك فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الاّ أنه لانبي بعدي» بينما هو رجل السيف، بطل الحروب الكثيرة، وحامل الراية، في غزوات النبي(ص)، الشهيرة؟

ولماذا يرسل جيشاً إلى الروم، وهو على فراش الموت، ومن أجل حرب ثأرية، لاإضطرارية أو دفاعية؟

ولماذا يرسل معه أبابكر وعمر، وباقي الكبار والسياسين ذوي النفوذ القوي؟ ولماذا ينصب بيده لقيادة جيش كهذا، يحوي كبار القوم، جندياً شاباً ـ في التاسعة عشرة من عمره ـ، ويغضب لإنتقادهم

---

(١) بالذات في ذلك الوقت، فالنبي(ص) كان في ذروة قدرته السياسية، ونهاية عمره، و لم يكن قد بقي وله عدو في كل شبه الجزيرة العربية، خصوصاً الحجاز، وبالذات في المدينة، فمن يقوم بمؤامرة كهذه ضده ويستفيد منها؟ وحدها القدرات الداخلية هي التي يمكن أن تخلف النبي في هذه الأيام، فتستفيد بالطبع من قتله لذلك، لا الأعداء الخارجيين.

ومعارضتهم قائداً كهذا برغم صغر سنه ويعلن أمامهم جميعاً آن ملاك الرئاسة والقيادة ليس السن بل الأهلية لذلك، والكفاءة؟

ولماذا يصر بهــذا الشكل وهو على فراش الموت، ويعيد ويكرر ويؤكد، على حركة الجيش بسرعة وتحرك اولئك «الشيوخ» معه، باستثناء علي؟

ولماذا أثاروا كل تلك الضجة عندما طلب دواة وقلماً ليكتب لهم شيئاً لايضلوا من بعده أبداً؟ وحتى انهم أهانوه وأهانوا نساءه اللواتي كن ينادين من وراء حجاب باعطائه الدواة والقلم، إنه يريد أن يوصي فثار عليهم وقال أن هؤلاء النسوة أفضل منكم، ثم أمرهم جميعاً بالانصراف؟

ولماذا أوصاهم في آخر لحظات عمره ثلاث وصايا، ذكر منها إثنتين، وسكت عن الثالثة؟

ولما أرسل(ص) على علي(ع)، عندمـــا نادى بلال لـلصــــلاة ولم يستطع هو ان ينهض من فراشه، وفجأة، حضر الاثنان بعد إخبارهما من جانب إبنتيهما، وحين رأى الثلاثة أمامه، سكت، وصرفهم دون أن يقول شيئاً.

لماذا...، ولماذا...، ولماذا...؟

ولماذا تكلم النبي(ص) في آخر أيام عمره بكل هذا القلق والخوف بالرغم من قوته وإقتداره ونفوذه، بعد أن كان يتكلم بثقة وأمل في أصعب أيام الحروب، وأشد أيام الوحدة والضعف وقوة الأعداء في السابق؟

ولماذا ذهب في أول ليلة زاره مرض الموت، مع خادمه أبي مويهبه إلى المقبرة، وتحدث مع القبور الصامتة المظلمة قائلاً:

«السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه، ممافيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها...(١)».

أجل، ها هي الأيام، تجيب على كل هذه التساؤلات، قطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، وعلي، أكمل دفن النبي(ص) بينما كان الصحابة الكبار يكملون دفن حقه!

خرجوا من «السقيفة» إلى المسجد كي يلقي الخليفة خطبة وتوليه الأمر...و خرج علي من بيت النبي(ص) الفارغ، عائداً إلى بيت فاطمة كي يبدأ خمساً وعشرين عاماً من الوحدة والعزلة المؤلمة السوداء.

وفاطمة،هي التي كان عليها أن تتحمل عبء وفظاعة هذه الضربات الموجعة القاسية على روحها الرقيقة.

فقد رحل عنها أبوها، معتمدها، وأحب أعزائها، وإعتزل عليّ، أخوها، زوجها، صديقها، وقريبها الوحيد الباقي، إعتزل الحياة، وجلس في البيت وحيداً مثلها. كأن الجميع أصبحوا غرباء عنهم، في غضون ساعة واحدة، ولم تعد المدينة تعرفهم.

والإسلام؟ هذ الإيمان الذي جاهدت من أجل إرساء دعائمه منذ نعومة أظفارها، خطوة، خطوة مع أبيها، وعبدت طريقه بالتضحية والصبر والتحمل والحصار للمالكين الملاحقين، وسعت، بكل قواها

---

(١) أخرجه النسائي وأبوداود وإبن ماجة، وأحمد بن حنبل في مسنده.

وإيمانها و وجـودها، من أجل تثبيت دعوة أبيـها عند الناس، ومن أجل إحكام أسس العـدل والحقيـقة والحرية والتـقوى والأخـوة والمؤاخاة بين الناس، ومن أجل أن تسير هذه الأمة الفتية العاجزة القليلة الوعي ـ التي تخفي في باطنها جـرثومة الأمراض الإجتماعيـة السابقة ـ على الطريق الذي يقودها فيه «الرسول الأمي«ص» في موكب العلم والوعي والعدل والعصمة والأنسانية.

ولكن، يبـدو أن كل شيء إنهار أمـام عيني فـاطمة، كل الجـدران والأسس والأبراج والقـلاع التي أرسـيت قـواعـدها بـكل تلك الآلام والمكابدات، ها هي تسقط الآن، فجأةً.

يُعين مصيـر الإسلام ومستقـبله في السقيفة، بغـياب عليّ وسلمان وأبي ذر والمقداد وعـمار، وعدة أخرى كـهؤلاء، وهاهم مجتـمعين في بيت فاطمة، غاضبين، وحزينين، لماذا بقي هؤلاء أوفياء لعلي(ع)؟ ذلك لأنهم ليسوا من سـادة الأوس والخزرج كي يكون لهم إسم وعنوان في المدينة، ولاهم من الأسـر القريشـية الأصيلة، التي تتـمتع بمقـام ومكان رفـيع في المجتـمع، حـصلت عليـه، بنـاءً على حس التـفـاخـر القـبلي، والإحـترام الـطبقي كـي يخالفـوا النبي(ص) و«تجـمع» على إنتـخـابهم الطبقـة التي تهتم للشرف والسـيادة العرقيـة، ويرتبطوا بعلاقات عـائلية وإلتزامات طبـقية وضرورة الدم أو المال، فتجـرهم إلى إحدى الأجنحة السياسـية والفِرق الإجتماعيـة المقتدرة. فهم إما رجال غـرباء كسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري القادم من الصـحراء، وعمار ـ الذي كانت أمـه جـارية سـوداء إفـريقـيـة ـ وأبوه يمني بدوي، أو أشـخـاص لامكانة

إجتماعية لهم ولامقام ولا مال، رجال بسطاء معدمون، مساكين، كميثم التمار!

كان النبي(ص) يحبهم ويعتز بهم، والآن، وقد ذهب هو، عادوا إلى مسكنتهم، قد تغيرت القيم مرة أخرى.

لاملجأ لهم إلاّ علي. وعلي، في المدينة، في نظام القيم القديمة التي تجددت اليوم: شابٌ في الثلاثين وأكثر(مقابل الشيوخ)، معدم، فقير، بلا حزب ولاتحزب سياسي أو قبلي. قيمه التقوى، العلم، الشجاعة، والثبات، في سبيل الأفكار البعيدة، الوعي، الإقتدار الفريد في البلاغة و السيف، ورأس ماله: الأخطار التي إستقبلها في الوفاء للنبي(ص). والضربات التي وجهها بسيفه في الحروب، ودماء الكثير من أعداء الأمس الحاقدين ـ الأصدقاء المستسلمين اليوم ـ التي أراقها بأمر من النبي(ص).

هذه القيم، أثارت حسد الأصدقاء وغيرتهم من حيث يشعرون، ومن حيث لايشعرون، وهذه التضحيات والشجاعة، زادت من حدة حقد الأعداء، فاتحد الفريقان لذلك، في الهجوم على علي، والتنديد به، وكيل التهم إليه، ومحاولات الحطّ من شأنه، وحرمانه من حقوقه، وتركه وحيداً فريداً.

عندما تسمو روحٌ ما أعلى من مستوى العصر الذي تعيش فيه، وتنضج بصورة أكثر مما يتحملها الناس، ستصبح «وحيدة»، فـ «وجودها» الثقيل الممتلئ والجميل والغني، سيحتقر تلقائياً «الوجودات» الجوفاء، الخفيفة، البشعة والمعدمة: ـ وإن تواضعت في

سلوكها الظاهري -، وعندها سيتحد عدوها وصديقها، - من حيث يشعرون ولايشعرون - في إنكار شخصيتها الكبيرة أو سحق حقها الصريح الواضح، فالمنافع مشتركة، وعندئذٍ سيحاول الصديق والرفيق أيضاً - والذي تفضح عظمة وجودها حقارته وخواءه الروحي - أن يقربها منه، بانكار أو مسخ فضائلها أو تحقير شخصيتها، كي يزيل الفارق المؤلم بينهما بهذه الصورة، لايستطيع هو أن يصل إليها، إذن، يجرها إلى الخلف، نحوه، حتى تصل إليه، وفي هذا الطريق سيتحد مع العدو ويشتركان في المصلحة والمنافع، فيحتاج إلى العدو من إجل تسقيطها فيضطر لأن يصبح ألعوبة بيد العدو، ومأموراً مجانياً، وخادماً للظلمة.

لهذا كان يجب التقليل من شأن علي.

ولهذا نرى بني أمية - أعداء المهاجرين والأنصار، وخصوم علي وعمر - يعلنون في كل مكان: ان علياً هو «أبو تراب»، عليّ لايؤدي الصلاة، «كتّاب الوحي. جامعوا القرآن، أخوال وأقارب النبي، هم بنو أمية، أم المؤمنين هي بنت أبي سفيان، وبيت أبي سفيان - الذي هو كبيت الله في مكة حسب رأي النبي - مكان آمن عام، وحرام وأمن لكل من لجأ إليه... تقولون إن علياً قتل في محراب المسجد؟ أي قصة هذه؟ فماذا كان يفعل علي في المسجد؟ ماله والمحراب؟ فهل كان علي يؤدي الصلاة؟

واضحٌ أن هذه الأحقاد هي آثار ضربات بطولية في بدر والخندق، تعفنت الآن، وظهرت أثارها.

ولكن الصديق، الصديق الذي كان في بدر والخندق مع علي(ع)، ضد بني أمية، يصبح الآن صدىً لبني أمية في كل ما يقولون... لماذا؟

لأن هؤلاء «كبار الصحابة المشهورين» هم الذين كانوا **مطأطئين** رؤوسهم في الخندق، بينما وجّه علي الشاب ذو السابعة والعشرين عاماً، ضربةً للعدو، أخافته، وأذهلته، فارتفع هتاف التكبير عالياً من قلوب المسلمين، وقال النبي(ص) في ذلك: «ضربة عليّ في الخندق تعادل عبادة الثقلين»، ولكن هذه الضربة، تحقر أولئك الذين كبروا من قلوبهم، وأولئك الذين أثيرت مشاعرهم وعواطفهم بهذه الضربة، و إستفادوا منها، ونجوا، وافتخروا، ففي عقلهم الباطن تبذر بذور الحسد، لايرونها ولايراها أحد، ثم تنمو هذه البذور، وتورق وتثمر، حتى بدون شعورهم، فتغطي كل روحهم وفكرهم، وتظللها، وتتجذر في صميم عظا مهم.

في معركة خيبر، يأخذ أبوبكر الراية، ويذهب لفتح الحصن، ولكنه يعود مهزوماً بعد مساعي حثيثة يبذلها، ثم يذهب عمر ويعود مهزوماً كذلك، عندها يقول النبي(ص): «واللّه لأعطين الراية غداً رجلاً يحب اللّه ورسوله، ويحبه اللّه ورسوله».

فيعطيها لعلي(ع)، فيفتح علي الحصون، الواحد تلو الآخر بشجاعة فائقه، نادرة المثيل.

في بدر، في أحد، حيث فر ـ الصحابة الكبار الذين يعتبرون أنفسهم أكبر سناً من علي(ع) وارفع منه مقاماً إجتماعياً ـ أوجلسوا في

زاوية: بخوف ويأس، كان علي(ع) كالبرق الصاعق، وكالرياح الشديدة، يطوي ساحة القتال، بفرسه، ويشكل جبهة جديدة، في وسط الحيرة والخسارة الحتمية.

وفي فتح مكة، كان حامل الراية، وفي صفين، عندما كان الرجال ذوو النفوذ والإعتبار يهربون من مضيق حنين إلى درجة قال لهم أبو سفيان ضاحكاً باستهزاء:

«لاتنتهي هزيمتهم حتى البحر»، كان علي(ع) كصخرة عظيمة، يسد فوهة المضيق، وهكذا كانت هذه السيوف، تخلق العداوة عند العدو المواجه، والحسد والشعور بالحقارة والتضاؤل عند الصديق.

ولذلك يتحد العدو والصديق في جبهة واحدة عندما تطرح شخصية وفضيلة علي(ع)، ويحتاج عندها العدو للصديق، والصديق للعدو، ولهذا كان عليهم أن يتهربوا من حقارتهم التي فضحتها عظمة علي(ع)، بالتقليل من شأنه عليه السلام. كيف؟

بغض النظر عن فضائله الأكيدة، وعدم طرحها، وفي حالة أسوأ تشويهها وتبريرها، وكذلك إكالة التهم إليه، وإذا لم تصل حقارتهم ودناءتهم لهذا الحد، فالسكوت عن القيم والمبادئ، أو المبالغة في ما يمكن تسميته نقطة ضعف، أما إذا كان الإنصاف في مستوى عمر وأبي بكر فالإعتراف بحق علي، ولكن، ومن أجل إغتصاب حقه وسحق حقيقته، فالتذرع بحجة المصلحة العامة، أو بصغر سنه، أو بالادعاء بأنه رجل سيف وزهد وعلم، لايعرف شيئاً عن السياسة، وشجاع، ولكنه لايجيد فنون الحرب! أو بسبب أن له أعداء كثيرين،

فهو قد قتل الكثير من آفراد الأسر الكبيرة، وذات النفوذ، في حروب النبي(ص)، ولاتزال تلك الأحقاد ساخنة، إذن فليس من مصلحة الإسلام أن ينصب هو!.

علي؟ إنه يمدح نفسه كثيراً! (لاحظوا عقد الحقارة تتضح هنا أكثر من أي مكانٍ آخر).

علي؟ نعم ولكن «للّه أنت لولا دعابة فيك، أما واللّه لو وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء».

والنتيجة؟ يداس حق علي، على يد بني أمية، وعلى يد عمر عدو بني أمية أيضاً، ورفيق علي في الحروب، وينتصر عثمان على أيد بني أمية أقربائه، وعلى يد عمر عدو بني أمية.

وفاطمة، تعرف كل هذا، تعلمه جيداً، فهي ليست قعيدة بيتٍ جاهلة، ففاطمة عرفت طريق الجهاد ومارست التبليغ والإرشاد، وهي التي أمضت طفولتها في عاصفة الثورة، ونضج شبابها فوق نار سياسة زمانها، وهي إمرأة مسلمة، المرأة التي لاتعفيها العفة الأخلاقية من مسؤوليتها الإجتماعية.

هاقد مضت عدة ساعات على دفن النبي(ص)، إجتمع علي مع عدة أشخاص من بني هاشم ومجموعة من أصحاب النبي الأوفياء إعتراضاً على ماجرى في السقيفة وامتناعاً عن البيعة التي دُعي الجميع إليها، وفي المسجد، كان الخليفة قد أتم القاء خطبته، وأخذ البيعة من الناس.

وأما عمر، السياسي المحنك، فقد بذل كل جهده من أجل

إزالة كل العوائق الأخرى عن طريق الحكم.

سعدبن عبادة، أمير الخزرج، رجل ذو نفوذ وقدرة، ومرشح الأنصار في السقيفة لم يرض بمبايعة أبي بكر، فترك المدينة ومهاجراً نحو الشام اعرابا عن معارضته، وفجأةً ورد خبر أنه أُغتيل في الطريق وأن الجن هم الذين أصابوه بسهم.

كان وضع القبائل ما يزال غامضاً، وإن كان هناك إحتمال عدم قبول البعض لخلافة أبي بكر، ولكن بؤرة الخطر، هو بيت فاطمة، أجل، ومنذ ذلك اليوم، أصبح بيت فاطمة دائماً منطلق الخطر على الحكومات.

والتاريخ الآن، يفكر بثلاث نقاط في المدينة، بتأمل كبير:

المسجد، بيت فاطمة، وما يجاوره، بيت النبي(ص) الذي صمت الآن، والعجب في أن هؤلاء الثلاثة متجاورون، جداراً، بجدار. أجل، ليس هنالك بينهما إلاّ مسافة قصيرة.

إن عمر غاضب على نقطة المقاومة الوحيدة هذه ضد الحكومة الجديدة و هو الذي بذل جهوداً كبيرة من أجل إستقرار السلطة بيد أبي بكر، لايمكنه تحمل وجود فئه معارضة إجتمعت في هذا البيت، البيت القائم في المسجد، الذي هو «مجلس برلمان» و «مقر حكومة» الخليفة، وفي ركن إسمه بيت فاطمة، والوجوه المجتمعة ليست إلاّ أعز وأحب الوجوه التي كانت تحيط بالنبي(ص) بالأمس.

وفاطمة، المحصورة كحمامة جريحة بين فاجعتين موجعتين.

وفاة أبيها، وسلب حق علي، غائصة في أحزانها السوداء، تفكر

بالماضي، وبأبيها، وما كان أشد قلقها على الغد، والمستقبل، أين سيؤول مستقبل دين «العدل والقيادة»؟ كانت ذكريات الماضي، الحلوة والمرة، قد إنهالت عليها، فسمت بروحها، كطائر فرمن الفقص، نحو الأعالي، مع روح أبيها، في آفاق الماضي والأمس، فأنستها ولو للحظات فظاعة الكارثة، وسكنت من آلامها، وإن قليلاً. ولكن فجأةً، تصاعد الضجيج من المسجد، فأنصتت فاطمة، وإذا به صوت عمر يأتي رهيباً واضحاً بين بقية الأصوات، مهدداً بحرق بيت علي على اهله.

وفاطمة سمعت ذلك، واضحاً. وكان الصوت قد إقترب تماماً. باب بيت فاطمة يفتح على المسجد، فسمعت أصواتاً تقول باستنكار: في الدار فاطمة! فيجيبهم بنفس الصوت:

- وان... وها هو غلام عمرممسكاً بالنار في يده.

إذن فالنار أمام بيت فاطمة.

والضجيج والضوضاء، ومن بينها صراخ عمر المرعب:

- يا علي، اخرج إلينا.

كان بيت فاطمة يهتز بشدة، وكان لهب النار واضحاً، من ثغرات الباب وصوت عمر الهجومي يحتد لحظةً بعد أخرى..

فجأةً إرتفع صوت فاطمة، من خلف الباب، صوت حمل كل حزن العالم:

- يا أبتاه. يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وإبن أبي قحافة. تراجع مرافقوا عمر عدة خطوات. فهذا صوت بكاء

وغضب إبنة رسول الله الحبيبة.

لم يستطع البعض السيطرة على نفسه، فانتحب، وبهت البعض الآخر، ينظر إلى بيت فاطمة وبيت، النبي(ص).

كان الجميع قد شلت حركتهم، فقد أعادهم الحياء والحرج رويداً، رويداً إلى أنفسهم. ولكن عمر الذي كان قد أصبح وحيداً، وقف متردداً برهة دون أن يلوي على شيء. ثم رجع إلى أبي بكر. كان الجميع يحيطون بأبي بكر، يتحدثون عما حدث مع فاطمة، وما قالت، وما كان البعض يتكلم كأنه يستمع إلى فاجعة.

عاد إبن أبي قحافة وابن الخطاب، إلي بيت فاطمة، ولكن هذه المرة أكثر رقةً وأكثر، رفقاً.

كانت فاطمة التي إعتادت على الظلم، ودرجت في أحضان الجهاد، تقف إلى جانب الباب كحارس ومدافع عن هذا البيت، وكأنما تريد أن تحمي علياً ـ الوحيد ـ، محاولة عدم الإنهيار والصبر على المصيبة، وإن كانت هذه المرة أشد من أي وقت آخر، وهي ترى نفسها أكثر عجزاً وضعفاً.

تركوا عليا لوحده، بعد أن أصبح فقيراً معدماً وتفرقت عنه المجموعة التي كانت حوله عن رضىً أو إكراه. إذ لاخطر من عدم بيعته لهم، وهم يعلمون جيداً أن من المستحيل مبايعة علي لهم، ما دامت فاطمة على قيد الحياة، ففاطمة لاتبدي اي إنعطاف ومرونة نحو السلطة التي تراها مغتصبة. وقد استمرت في سخطها وعدم رضاها ممن إغتصبوا الحق من أهله، حتى وافاها الاجل(ع).

فـالنبي(ص) قـد مـات، وعلي إعـتـزل الحـيـاة، وصــودر إرث فاطـمة الذي كـان المصدر الوحـيد لعـيشهـا وعيش زوجـها، وأبنائـها، ووصلت السلطة إلى أبي بكر وعمر، وأودع مصـير الاسلام والناس بيد السياسة، وأصبح عبدالرحمن بن عوف الذي لايفكر إلاّ بالمال، وعثمان بن عـفان الأسـرافى، وخالد بن الوليـد المتسـاهل اللا أبالي، وسعـد بن ابي وقاص الفظ الذي لايتورع، هم عما د خلافة رسول اللّه الأصليين، وجلس عـلي في بيـتـه، منشـغـلاً بتـدوين وجـمـع القـرآن. قلقـاً على المســتـقـبل، وترك بلال المدينة وانـزوى في إحـدى مـدن الـشـام ثم صمت إلى الأبد، أما سلمان فقد عاد إلى إيران حزيناً يائساً واعتزل في المدائن، وظـل أبوذر أنيس النبي، وعـمـار بن يـاسـر عـزيـز النبي، لاعمل لهما.

ولكن فـاطمـة لم تهدأ. وواصـلـت حملتـهـا على السلطة الجـديدة والخليـفـة الذي لاتعـده أهلاً لهـا، ولم تتـوقف عن السـعـي من أجل إسـتعـادة فـدك، وكان كل هذا الـسعي هجـومـاً وإنتقـاداً، تحـاول فيـه أن تثبت لـلجميع أن قـصد الخليـفة في إغتـصابه فـدكاً، هو الثـأر منها وتوجيه ضربة إقتصادية لعلي(ع).

فدك بستـانٌ صغير، عند فاطمـة وهو أصغر من أن تنازع من أجله ولكن أهمـيـة فـدك كـانت تكمن في أنهـا دليل على إغـتـصـاب الحق والجور عند الحكومة الجـديدة، وكانت فاطمة تسـعى للتنديد بالحكومة من خلال طرحـهـا قـضـيـة فـدك كي تثبت لـلناس كـيف ان هؤلاء يحـرّفـون الحـقـائـق من أجل مـصـالحـهـم أو ينكرونـهـا، وكـيف أنهم

لايتورعون حتى عن وضع حديث أو قول للنبي أو مسخ وتشويه لكلامه، وكي تفهم الرأي العام، أن هؤلاء الذين جعلوا «سنة الرسول(ص)» شعاراً لهم، كيف يظلمون آل الرسول، فينكرون حق كل أب وكل إبن في الإسلام، على النبي وإبنته، ويدعون أن النبي يخلف ذرية ولكنه لايترك إرثاً. وكانت فدك قد أصبحت قضية سياسية بالنسبة لفاطمة، ووسيلة للجهاد، وكان إصرار فاطمة عليها من هذا الباب ولهذا السبب لامن أجل قيمتها الإقتصادية كما يظن أعداء فاطمة الواعون ومحبوها الجهلة.

فاطمة لم تهدأ، وإن رزئت بفقد ابيها، وتأثرت بالضربات المتتالية التي تتابعت عليها، وإن تركها المهاجرون والأنصار وكبار الصحابة، وبايعوا الخليفة الجديد، إلاّ مجموعة أقل من عدد الأصابع، برغم كل هذا ففاطمة لم تسكت ولم تهدأ.

إنها لا تأمل باستعادة الحكم من هؤلاء، وتعلم جيداً أن حق علي فُقد، و سيطر على الأمور مخططو ا الإنتخابات الأقوياء، الذين كانوا قد أعدوا العدة و هيّؤا الخطط منذ مدة، و لكن إستقرار القدرة و تسلط الحكومة و سكوت الناس وتسليمهم امام الحاكم الجديد لا يخلي فاطمة من مسؤولية الجهاد من أجل الحق وضد الباطل، فعليها أن تسعى من أجل نصر ولوكان الامل ضئيلاً ، وعليها أن تحارب النظام الحاكم، فاذا إستطاعت غلبته فيها، وإن لم تستطع، فعلى الأقل انها تؤدي رسالتها في التنديد به، وإن لم يكن بالامكان إسقاط الباطل، فان من الممكن فضحه، وإذا لم يكن بالامكان إقرار الحق فمن

الممكن إثباته، عرضه، تعريفه للعصر، وإحياؤه، وعلى الاقل ليعرف الناس أن من هو على رأس الحكومة، باطل وظلم، ومن هو مطرود ومهزوم وسجين، حق وعدل و حرية.

هكذا كانت المدينة تشهد أغرب مناظر التاريخ جوار مسجد النبي(ص)، رجل يقود إمرأته، في أزقة المدينة الملتوية على مركب.

الماشي هو علي، والراكبة هي فاطمة، حبيبة رسول الله(ص)، يخرجان كل ليلة من البيت، ويتجهان نحو مجالس الأنصار، جمع أكثر إخلاصاً وحيادية، فالمهاجرون أكثرهم من قريش وهم مرتبطون ببعض، تربطهم شبكة سياسية قديمة، والخليفة الحالي منهم، شيخهم المتنفذ، إذن فالجميع لهم حصة في حكومته، أما الأنصار فلا سهم لهم في الحكومة الجديدة، فمرشحهم هو سعد بن عبادة الذي ترك المدينة، واغتيل في الطريق، ولكنهم إستسلموا لإستدلال أبي بكر الذي كان مهاجراً ومن أقارب النبي(ص) وشيخ قريش، حين قال: إن رسول الله كان يحب أن يكون خليفته من قريش، ومن أقربائه، ولهذا كلّه، غضوا النظر عن الخلافة، وتركوا الحكم لأبي بكر الذي كان من قبيلة النبي (ص) وأبا زوجته والزموا انفسهم بطاعته.

وها هي فاطمة، تذهب إليهم شخصياً كل ليلة برفقة علي(ع)، تمر على مجالسهم وتتحدث إليهم، تعدد لهم فضائل علي(ع)، وتذكرهم بوصايا النبي(ص) فتثبت لهم بنفوذها المعنوي، شخصيتها القوية الانسانية ووعيها السياسي و معرفتها الدقيقة للاسلام وغاياته، وأخيراً قدرتها على الاستدلال المنطقي، احقية علي(ع)، وكذلك

بطلان الانتخابات التي آجريت، وتحذرهم من العواقب الوخيمة للخدعة التي إنخدعوا بها، ومن المصير القلق المظلم الذي ينتظر الاسلام وقيادة الأمة.

عندما ينقل المؤرخون هذه القصة، لايذكرون ان الانصار صمدوا ولو مرة واحدة أمام منطق فاطمة، كانوا جميعاً يعطونها الحق في ذلك، ويعترفون بزلتهم وخطئهم الكبير نحوها، وبفضل علي(ع) واحقية مطالبه.

وحيثما تطلب منهم «أن انصروا أبا الحسن في إستعادة الحق الذي يسعى في سبيله»، كانوا يعتذرون جميعاً قائلين:

«باهنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك. سبق إلينا قبل أبي بكر ماعدلنا به».

فيسألهم علي بدهشة وألم:

«أفكنت أدع رسول الله في بيته، لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟»

وتقول فاطمة التي ترى علياً، هذه المرة أيضاً وكالعادة، ضحية حبه وفائه للنبي(ص):

«ماصنع أبو الحسن إلاّ ماكان ينبغي له وقد صنعوا ما الله حسبهم وطالبهم».

والآن إنتهى كل شئ.

إستسلمت فاطمة للموت، أحست أنها وحيدة إلى حد لا يُتصور، أحست بالوجوه التي كانت دائماً مرافقة لابيها، في كل مكان،

و لسنين طويلة، غريبة عنها و بعيده فأصحابه الان، يتحدثون عن شئ آخر... المدينة لم تعد «مدينة الرسول» فقدِ خيّم الحكم والسياسة على «مدينة الايمان» حين سكنت تلك الروح العظيمة التي كانت تهب البداوة العربية، العاطفة، والايثار وعبادة الحق، والخضوع للحقيقة وتحسس الفضائل الانسانية وكمالات الحياة وروائعها «الجهاد والايمان والتقوى»، وتدمر العادات البالية والتقاليد القومية المتزمتة، والروابط العرقية القبلية، والغرور والأنانية، والتفاخر، والتحزب، والدناءة والخسة، تحت ضربات أحاديثه الدائمة والتي كانت «سوط أهل اليقين» ومنار الثورة والالتزام والمسؤولية والجهاد والمنطق والتجليات المعنوية للروح، والتحرك المستمر للحياة، وأبعدت عن أنظار قادة السياسة الجديدة، وجوه صحابته الاحبة، الذين كانوا لايملكون قاعدة طبقية اَو قبلية، ولكنهم كانوا كراماً بعين النبي(ص)، مكتسبين شرفهم بالايمان والاخلاص والوعي والجهاد، وتقدمت عليهم «الشخصيات» و«الدهاة»!

وحين إنشغلت الاذان بضوضاء القدرة والحكومة، لم تعد تسمع نداء العاطفة والحب والاخلاص الضعيف الناعم.

لقد بنت شخصية أبي بكر وخشونة عمر وسيف خالد ودهاء عمروبن العاص سوراً وحصاراً حول المدينة لايخترق، يضم في داخله الجماهير المرعوبة، والصحابة ـ الواعين وغير الواعين ـ ولكن بيت فاطمة بقي خارج هذا السور، فلم يسمع أحد صوتها.

إن أعداء فاطمة(ع) هنا، أقوى بكثير من أعدائها الذين كانت

تحاربهم في مكة، فأبوها الذي كان وحيداً هناك، كان يهتف بصوت عالٍ في المسجد الحرام، مركز قوة العدو، وفي مواجهة دار الندوة ـ مجلس قريش ـ بسقوط أكثر من ثلاثمائة وثلاثين صنماً حجرياً، ويقول بثقة عالية ودون أدنى شك أو ضعف أنه سيكسرها كلها بعون الله، ويسفّه آباءهم ويسمهم بالحمق، وينسب مقدساتهم إلى الخرافة والأساطير.

النبي(ص) نفسه، رأيناه، في آخر أيام حياته، وهو في ذروة اقتداره ونفوذه وحب الناس له، لم يستطع أن يحرك جيش أسامة، رغم كل تصريحاته وتأكيداته، ودعائه على المتلكئين وحتى لعنه إياهم.

ماذا اَقول أنا؟ إنه لم يستطع حتى كتابة رسالة في بيته بين أقرب أصحابه إليه، ولم يستطع ذكر وصيته، وحفظ ماقاله من التحريف والتشويه.

وزوجها علي(ع) بطل عصره المشهور، الذي غير مصير حرب الخندق، الحرب التي هجمت فيها كل قبائل العدو كرجل واحد على المدينة الصغيرة، واتحدت أحزاب الكفر والدين « أي العرب المشركين واليهود» كي يجتثوا جذور الاسلام ويهدموا قلعة «ثورة محمد» على محاربيها والمدافعين عنها.

وهو نفسه الذي كان في حرب أحد، في لحظات مهوله رهيبة سيطر فيها العدو على الجبل، وتشتت فرق المسلمين، وانهار الجيش الاسلامي، وظل النبي(ص) وحيداً جريحاً في موضعه، كان يدور هو حول النبي(ص) كزوبعة ويدافع عنه، ثم يتركه، وينصب على رجال

العدو كعاصفة شديدة، فيقتل منهم ويجرح. ويعود مرة آخرى نحو النبي(ص) يدافع عنه، ثم فجأة يشكل من اليائسين والهاربين جيشاً جديداً، يعيد الحياة والأمل، للقوات الاسلامية المنهارة، ويضطر العدو في ذروة نشوته بالنصر، وامله في قتل النبي(ص)، يضطره لترك القتال والعودة. وهو الذي تلافى هزيمة حنين، وضمن النصر في خيبر.

وهو الرجل يحصد سيفه في مزارع الدم والموت، في صفوف الأعداء كما يحصد المنجل الحاد السنابل اليانعة هذا الرجل إنعزل الان عن الحياة جليساً في البيت تظلله سحابة من القلق، لم تؤلف في وجهه أبداً، فتقود فكره إلى الافاق المظلمة وأراضي الخوف والقلق.

ماذا دها سيف زوجها المشهور الذي ما كان يعود من الحرب إلاّ مرتوياً من دم الاعداء يتكئ على الجدار إلى جوار سيف أبيها، و يقول لها بافتخار «إغسلى السيف يا فاطمة» ـ ماذا دهاه خامداً هكذا، بلا حراك و لاحياة، نائماً في غمده.

إذن ماذا تستطيع فاطمة الوحيدة أن تفعل في حرب بدأت دون وجود أبيها، وبهزيمة علي ـ حامل الراية المنصور الذي كان يضفى على ساحة المعركة عظمة وجلالاً وشجاعة فائقة ـ؟

دائماً، كانت الحرب في الجبهة الداخلية، أصعب بكثير و أكثر تعجيزاً للمحاربين، من الحرب في الجبهة التي يكون فيها العدو الأجنبي في الجبهة المقابلة، لقد بدأت الان حرب، ليست عند أبي لهب و أبي جهل و أبي سفيان و هند و عتبة و أمية بن خلف و عكرمة ـ وجوه الفساد و الشر المعروفة ـ المجردة عن كل معنى

وإيمان و غاية إنسانية، والتي لاتحارب إلاّ من أجل منافعها حفظ قوافلها التجارية وأسواق الرقيق، حرب الرجعية والثورية، العبودية والحرية، الأسر والخلاص، الذلة والسيادة والدناءة والطهارة، وأخيراً حرب أعداء الانسانية وحماة الجهل والظلام ضد الوجوه الانسانية ومبشري الوعي واليقظة.

إذن أي حرب هي ومع من؟

في هذه الجبهة، علي وفاطمة، كما كانا في مكة، في بدر، في أحد، في خيبر، و حنين...، وفي الجبهة المقابلة، أبوبكر، أول من آمن بالرسول(ص) خارج اهل بيته، صاحبه في الغار، رفيق هجرته، والد زوجته، ناصره في أيام الغربة والوحدة، وأفنى كل ثروته في سبيل الايمان به، فاضطر للعمل في المدينة عنداليهود الحقراء وأبناء المدينة الغرباء من أجل تأمين مصارف حياته، والشخص الذي يشهد كل الناس، برؤيته دائماً مع النبي(ص) ووقوفه معه في احلك الايام وأسوئها، لمدة ثلاث وعشرين سنة.

وعمر، الشخص رقم أربعين الذي التحق بالاسلام في ملجأ النبي(ص) وأصحابه ـ بيت أرقم بن أبي أرقم ـ والذي قوت عزيمة المسلمين بالتحاقه بهم هو والحمزة عم النبي(ص)، وأوقف كل طاقته منذ ذلك الحين من أجل تطور هذه الثورة، فكان من أقرب أصحاب النبي وأبرز المهاجرين، يعتبره الناس من القادة الكبار وصحابة رسول الله، خصوصاً وأنه والد حفصة، أم المؤمنين.

وأبو عبيدة، المهاجر الكبير، ومن المتقدمين في الاسلام، وعثمان

بن عفان، المهاجر «ذو الهجرتين[1]» وصهر النبي «ذو النورين[2]» رجل محتشم عفيف، ينتسب إلى عائلتين قرشيتين كبيرتين، ومن ساهم مساهمة مؤثرة في الأعمال الخيرية في جمع المسلمين الفقير، فاعتبره الناس وجهاً من وجوه الصحابة القدامى والمهاجرين الكبار، وأصدقاء النبي(ص) وأقاربه.

وخالد بن الوليد، الذي أظهر بطولات عديدة في قتاله ضد أعداء الاسلام، و في مؤته، كسر تسعه سيوف على رؤوس جنود الروم ولم يكن إلاّ جنديا عادياً فلقب «بسيف الله». وعمرو بن العاص. أحد أربعة رجال من أدهى العرب، التحق بالاسلام منذ سنين وأظهر للامبراطورية الرومانية، في جبهات الشمال، قدرة الاسلام وقوته، وسعد بن أبي وقاص، أول من رمى النبال بوجه العدو في الاسلام، والذي دافع عن حياة النبي(ص) في حرب أحد، بنباله ورميه الدقيق الماهر. دفاعاً امتدحه النبي بشخصه و...

وآخرون، وآخرون، وكذلك تأييد كبار المهاجرين والأنصار وكل السادة وقادة الجيوش وأقرب صحابة النبي(ص) ومرافقيه...

والشعارات؟ ليست الوثنية والشرك والاساطير وتجارة قريش وشرف القبيلة، بل إقرار التوحيد وتوسيع بلاد الاسلام، وجمع وإشاعة القرآن الكريم والزهد وخدمة الناس، ورضا الله وتنفيذ حدود الله

---

(١) هجرته إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

(٢) لزواجه من رقية بنت النبي(ص) ثم أم كلثوم بعد وفاة الأولى.

واحكام الشرع، وأخيراً إحياء «سنة رسول الله» و... حفظ وحدة المسلمين واتحادهم.

ولكن، هنا، يُداس وبين كل هذا الضجيج حق من الحقوق، بهدوء وسهوله! حق علي(ع) كيف؟ ببساطة، وبمنطق متعقل، وخوفاً على مصير الأمة والاسلام، وخطر التمرد الداخلي وضغط العدو الاجنبي وخشية تفرق المسلمين و... على اية حال، «ليس من الصالح ان يتبوأ مقاليد الامور الان، شاب في الثلاثين من عمره حاد الطبع بسوابق كثيرة، زرعت الحقد عليه عند كثير من الناس، وبتصرفات، أغضبت كثيراً من الأسر المتنفذة، والشخصيات المِؤثرة، ومراكز القوى التي لهايد في الأمور، ورجل في المجتمع!»

«لازال الأمر مبكراً لعلي» «وليس من مصلحة الاسلام الان» أجل «الصلاح والمصلحة». هذا السوط المشؤوم الذي سلط دائماً على رقبة «الحقيقة».

المصلحة، التي ذبح بها الدهاة الحقيقة دائماً، ذبحاً شرعياً! مستقبلين القبلة وباسم الله!

وما أسهل ذلك! وما أقل ضوضاءه! دون أن يعرف أحد بما يجرى، دون أن يستيقظ أي نائم! دون أن يثور الناس، دون أن يستطيع أحد توعية الناس ودون أن يستطيع أحد أن يعرف «الحقائق» المختنقه تحت ضربات «المصالح» المكتومة وأخيراً دون أن يستطيع، أي هتاف، وإعتراض، ايّ جهد، أن ينقذ الحقيقة، ويعمل شيئاً ضد القدرة المسلحة بسلاح «عبادة المصلحة».

لاتستطيع، وإن كانت هي جهود فاطمة، ومساعيها، وهتا فاتها وإعتراضاتها وآهاتها! فعندما يرتدى الجور لباس التقوى، تقع أكبر كارثة في التاريخ

الكارثة التي راح ضحيتها علي وفاطمة ثم أبناؤهم وأخلافهم!

بدأت فاطمة تشعر أنه ليس من الممكن القيام بشئ ضد هذه الكارثة التي إبتدأت وفجأةً، أحست بتعب مر من الجهاد وتحمل المصائب والالام. والمصاعب ومرارة الحياة،وأحستها ثقيلة على جسدها وروحها.

فقد تأكد لها أن كل شيٌ إنتهى، وعلمت أنها لاتستطيع شيئاً لانقاذ ما لم يستطع النبي(ص) ولا علي(ع) إنقاذه.

إسودت الافاق أمام عينيها، ووصلت «قطع الليل السوداء» ـ التي أخبر عنها أبوها في آخر أيام حياته ـ ما الذي سيحدث غداً؟ وما الذي سيجرى على ثمار جهود أبيها الكثيرة تحت رحمة الرياح الباردة للسياسة والمصلحة التي بدات تهب؟

بأي يدٍ سيقع مستقبل هذه الأمة الفتية، ومصير هذه الامّة التي دائماً ضحية سياسات أسرية وطبقية؟

هاقد إنتشرت رائحة القومية والطبقية في الجو. و«البيعة» بدلا عن «الوصاية» كيف يمكن أن يتغلب راي قبيلتي الاوس والخزرج اللتين تبايعان «رئيسهما» ورأي قريش التي تنتخب «شيخها» على راي النبي(ص)؟ وأي وعي هذا الذي يملكه هوّلاء الذين يجمعون في السقيفة على سعد، ثم يغيرون رايهم ويجمعون على «أبي بكر»

لجملة واحدة منه. أي وعي هذا الذي يغنيهم عن تدخل النبي(ص) في مصيرهم السياسي؟ والغريب ان هؤلاء هم من نفس مدينة النبي(ص) قد عاشوا، وجاهدوا وهاجروا معه، وغداً إذا رحل الاسلام ومضى هذا الجيل، فأي مصير ستصنعه هذه «البيعة» للناس؟ من سينتخبون ؟ ومن سيرشحون؟

وإذا أبعد هؤلاء الذين هم أكثر مهاجري الاسلام تضحية وأثبت أنصار النبي(ص) جيل الاسلام الاول، إذا أبعدوا علياً عن الساحة بهذا الشكل، إذن ماذا سيفعل جيل الغد وسياسيو الغد ـ لم يترعرعوا في جو الايمان والتقوى والجهاد ـ ماذا سيفعلون بأبنائه؟ ان بالامكان التنبؤ بمستقبل الحسن والحسين وزينب منذ الان، ومعرفة ما يكون عليه مصيرهم.

ان قعود علي في البيت وإعتزاله السياسة، بداية تاريخ مهول دامٍ، وسيتبع بيعة السقيفة ـ التي بدأت بهدوء ودهاء ـ بيعات دامية كثيرة، فدك بداية الاعتصابات الكبيرة والظلم الكثير الذي سيقع في الغد.

الغد، أسود، رهيب ودام،.... وغارات ومذابح وتعذيب!

و«خلافة الغد» مصيبة كبيرة على الاسلام، وكارثة ثقيلة على البشرية.

ولكن، ماذا يمكن القيام به الان، ففاطمة حاولت بكل جهودها كي لايصنعوا أول حجر في البناء بشكل أعوج، مشوه! إلاّ أنها لم تستطع. شعرت أن مدينة النبي(ص) صماء أمام صراخها، وقلبها «حجر» مقابل صمت علي(ع)! الصمت الذي ينزل كالصاعقة على

كل قلب يحس، ويفهم علياً، ويعرف العصر.

آه! ما أقسى الانانية. خصوصاً إذا تسلحت بالمصلحة، وإستطاعت تبرير نفسها بالعقيدة والدين، عندها ستضطر الصحابي المخلص المضحي، لاغتصاب الحق، حتى حق علي.

ها هي فاطمة قد تعبت وأنهكت، أعياها عمر كامل في تحمل عبء رسالة الأب وصعوبة الجهاد ضد جاهلية القوم، وحياة حافلة بالالام والأخطار والفقر والعمل والسعي من أجل غاية بعيدة عن جبر الزمن. حزينةً باكيةً لفقد أبيها، الذي عُجنت حياتها بحياته، وقلقةً على مصير علي - الذي لايُحتمل - والذي اصبح جليس البيت بعد عمر من الجهاد ضد العدو، على يد الصديق، وضحية قدرة جاءت بقوة ايمانه وسيفه وتضحيته وإخلاصه، وهي الان تعبة، يائسة من آخر جهود بلاثمرٍ تبذلها من أجل إستعادة حق «أبي الحسن» ومن أجل منع سقوط مايريد أن يسقط... ولم تستطع منعه!

لم يعد السعي فقط، بل حتى التحمل مستحيل بالنسبة لها. لاتحمل مايجري في الخارج فحسب، بل حتى تحمل مايجري في بيتها، وأيضاً. تحمل الصمت الرهيب الذي يسود «البيت المجاور».

فلقد أغلقت تلك «النافذة» أيضاً، ولم تبق من النافذتين اللتين كانتا تفتحان بوجه بعضهما، وتبتسمان لبعض، فتهبان أمواجاً من اللطف والحنان والأمل لبيت فاطمة، إلاّ واحدة، اما الأخرى فقد أغلقها الموت إليَّ الأبد.

أغلقت السياسة باب بيتها. و هي الان سجينة في هذا البيت.

بجوار علي - الجالس كجبل من الحزن صامتاً صمتاً قيد بين أطباقه بركاناً مهيباً - وبين أبناء النبي(ص) الذين تقرأ على محياهم البرئ الحزين مصير غد كل واحد منهم.

فقد أصبحت الحياة بالنسبة لها «مؤلمة منهكة»، والبقاء عبئاً ثقيلاً لاتستطيع أكتاف فاطمة العاجزة تحمله يتقدم الزمن ثقيلاً، هادئاً على قلبها الجريح، ويمضي كل لحظة، كل دقيقه وكل خطوة.

إنها لاتجد عزاءها إلاّ عند قبر أبيها الحنون، وفي البشرى التي بشرها بها قائلاً: «يا فاطمة، ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي».

ولكن متى؟ يا له من إنتظار صعب.

تتلوى روحها المتألمة المضامة، - كطائر جريح كسير الجناح - سجينة في قفص الحزن. ثلاثة جدران من الحزن: وجه زوجها الصامت المتألم، محيا أبنائها الحزين، وقبر أبيها البارد الساكت في أحد أركان بيت عائشة.

كلما عصرت قلبها قبضة الالم، وأختنقت بعبراتها، وأحست أنها بحاجة ماسة لحنان أبيها، ذهبت إليه، إرتمت على قبره، وتعلقت عيناها، المورمتان من فرط البكاء بترابه الصامت، وفجأةً تنوح، كما لو أنها سمعت خبر وفاة أبيها لأول مرة، وتغطس أصابعها في التراب، ثم تملأ يدها الخالية منه محاولةً رويته من خلال دموعها، تهيل التراب على وجهها، وتشمه بكل العاطفة التي كانت تحب بها أباها، فتهدأ للحظة، كأنها وجدت في ذلك عزاء لها،... فجأةً تبدأ بالانشاد بصوت متقطع من الالم:

ماذا على من شمّ تربة أحمد
ان لايشم مدى الزمان غواليا
صـبت على مصـائب لو أنها
صبت على الايام عدن لياليا!

فتـهدأ تدريجياً، تتـساقط «تربة أحمـد» من بين أصابعهـا النحيلة، فتتابعه بنظراتها ـ دون أن تبـدي أية مقاومة ـ مـبهوتة متأملة، وعندها، تغرق في صمت ذاهل كروح فارقت الحياة لاتبكي ولاتضحك

كانـت تبكي كل آلامهـا عند بكائها على مـوت أبيهـا، كل يوم، كـأنـه يوم وفـاته الأول. ويزداد حـزنهـا يومـاً بعـد آخـر، فـتـشـتـد آلامها، تتجدد، وعندما تجتمع لديها نساء الأنصار يبكين على بكائها، تشكو الظلم الذي نالهم وحقهم الذي اغتصب، بين ضجيح البكاء، وإنهمار الدموع.

لقـد كـان حـزنهـا أشـد وأكـثر من أن يـستطيع أحـد عـزاءها والتسلية عنها. هكذا كانت الأيام تمضي، الصـحابة فرحون بما غنموا، وعلي صامت، حـزين، وفاطمة بانـتظار الموت، وحلول موعد البـشرى التي أعطاها إياها أبوها.

فكانت تزداد شـوقاً للمـوت، كـلمـا مـر يوم، وهذا الانـتظار هو نافذتهـا الوحيـدة من أجل الهروب من الحيـاة، تأمل أن تلجأ الى ابيـهـا بروح طافحة بالالـم والشكوى وكم هي محتاجة لملجأ ومستقرٍ كهذا؟!

ولكن الزمن يمضي بطيئًا. فقـد مضى خـمسة وتـسعون يومـاً منذ بشرها ابوها بالموت، والموت لايأتي.

ولكن لا!

فاليوم هو الإثنين، الثالث من جمـادي الثانية، السنة الحادية عشرة للهجرة، سنة وفاة النبي.

قبلت أطفالها واحداً، واحداً، الحسن ذا السنوات السبعة، الحسين، ذا الست سنوات، و زينب ذات الخمس وأم كلثوم ذات الثلاث سنين.

وها هي لحظة وداع علي.

ما أصعبها!

فعلي، يجب أن يبقى في الدنيا،

ثلاثين عاماً أخرى!

أرسلت إلى أم رافع خادمة النبي(ص) أن تأتي.

إغتسلت بدقة وهدوء عجيب، ثم نضت عنها ثياب الحداد ارتدت ملابسها الجديدة كأنها خرجت من حداده تواً، وتوجهت نحوه، للقائه.

قالت لام رافع:

ضعي لي فراشاً وسط البيت.

إضطجعت على فراشها بهدوء، وهي مستقبلة القبلة، وانتظرت، مرت لحظة، ولحظات... وفجأةً... إرتفع العويل من البيت.

لقد أغمضت فاطمة عينيها، وبوفاتها إنطفأت شمعة من نار وألم في بيت علي(ع). وبقي عليّ وحيداً. مع أطفاله.

كانت قد طلبت منه دفنها ليلا كي لايرى أحد قبرها، ولكيلا يشيع الشيخان جنازتها.

وهكذا فعل علي.

ولكن أحداً لايدري كيف؟ وأين؟

في بيتها؟ في البقيع؟ لأأحد يدري.

وفي أي مكان من البقيع؟ لأأحد يدري أيضاً [1].

علي؟ بقي وحيداً، في البيت، وفي المدينة، كجبل من الألم.

والليل، ـ صامت حزين ـ ينصت إلى همس مؤلم، المدينة الخائنة التعيسه، والبقيع الهادئ السعيد، صامتان يستمعان إلى القبور اليقظة والبيوت النائمة. ونسيم منتصف الليل، يأتي بكلمات يقولها علي(ع) جوار قبر فاطمة، ويحملها نحو بيت النبي. الصامت:

«السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك من إبنتك وحبيبتك وقرة عينك وزائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك المختار الله لها سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري وضعف عن سيدة النساء تجلدي، إلاّ أن في التأسي لي بسنّتك والحزن الذي حلّ في لَفراقك، لموضع التعزى ولقد وسدتك في ملحود قبرك بعد أن فاضت على صدرى نفسُك وغمضتك بيدي وتوليت أمرك بنفسي.

«إنا لله وإنا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى ان يختار الله لي دارك التي

---

(١) على المحققين أن يحققوا، أنا لست محققاً، ولا أحب التحقيق، لا أريد أن أجد مكان قبرها. فمدفنها يجب أن يبقى دائماً مجهولاً، كي يبقى ما أرادته معلوماً وهي التي أرادت ألا يعرفوا قبرها، في أي وقت. كي يبقى الجميع يتساءلون وإلى الأبد: لماذا؟

أنت بها مقيم.

وستنبـؤك إبنتك بتظافـر امتك عليّ وعلـى هضـمـهـا حـقـهـا فاستخبرها الحال فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً، وستقول (ويحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين).

سكت لحظـة، أحس بتـعب عـمـر من الالـم فـجـأة فـي روحـه. كـأن كل كلمـة مـن هذه الكلمـات، قطعـة من وجـوده، تقـتطع من صميم روحه.

ترك وحيـداً، فريداً، مـاكان يدري أي شئ يفـعل، أيبقـى؟ أيعود؟ كـيف يتـرك فـاطـمـة لوحـدها هنا؟ كـيف يعـود لـوحـده إلى البـيت؟ والمدينة! إنها تبـدو كمارد، كمن في ظلام الـليل البشع. تنتظره بالاف المؤامرات والخيانة.

أو ان يبـقى فكيف يبقى؟ أطفـاله؟ الناس؟ الحقـيقـة؟ المسؤولـيات التي تنتظره هو، والرسالة التي عقد عليها العزم، وعاهد الله عليها؟

كـــان الألم مـــحـــضـــاً الـى درجـــة أعـــجـــز روحـــه القـــوية المقتدرة، لايستطيع أن يتخذ قرارة، والتردد يشلّه أيذهب؟ أيبقى؟

يشعر أنه عاجز عن كليهما، وهو لايدري أي شئ يفعل،...

يشرح للرسول قائلاً:

«سـلام عليك يا رســول الله، سـلام مـودع لاسـأم ولاقـالٍ، فـان أنصـرف فـلا عن مـلاله، وإن أقم فـلا عن سـوء ظـن بما وعـد الله الصابرين، الصبر أيمن وأجمل، ولولا غلبـة المستولين علينا لجعلت المقام عند قـبرك لزاماً والـتلبث عنده معكوفـاً ولأعولت إعـوال الـثـكلى على

جليل الرزية، فبعين الله تدفن إبنتك سراً ويهتضم حقها قهراً ويمنع إرثها جهراً ولم يطل العهد، ولم يخلو منك الذكر، وإلى الله يا رسول الله المشتكى، وفيك أجمل العزاء».

هكذا عاشت فاطمة. وهكذا ماتت، وبعد موتها، بدأت حياة أخرى في التاريخ، فقد كان هنالك قبس من محيا فاطمة على وجه الكثير من المظلومين في تاريخ الاسلام، المغصوب حقهم، وكل ضحايا الجور والخداع، إتخذوا من إسم فاطمة شعاراً لهم، واختلط ذكر فاطمة بحب وعواطف وإيمان كثير من النساء والرجال الذين حاربوا في تاريخ اسلام من أجل الحرية والعدالة، فنما وترعرع تحت أسواط خلافة الجور وحكومات الغضب والظلم القاسية الدموية، وملأ كل القلوب المحبة.

ولهذا كانت فاطمة، في كل مكان من تاريخ الشعوب الاسلامية، والقطاعات المحرومة في الامة الاسلامية، منبع إلهام الحرية والعدالة والجهاد ضد الظلم والقسوة والتمييز.

فالحديث عن شخصية فاطمة صعب جداً. فاطمة، كانت «المرأة» كما يريد الاسلام للمرأة أن تكون، فصوّر ملامحها، ورسمها النبي(ص)، وصقلها ورباها وعلمها تحت أضواء الفقر، والتعليمات الانسانية العميقة.

فأصبحت نموذجاً لكل أبعاد «المرأة» المختلفة.

نموذج الابنة تجاه أبيها

نموذج الزوجه تجاه زوجها.

نموذج الام تجاه أبنائها.

وتجسيد «الإمرأة المناضلة المسؤولة» تجاه عصرها ومصير مجتمعها.

فهي بنفسها كانت «إماماً» أي نموذجاً مثالياً للمرأة. «أسوة» و «شاهداً» لكل إمرأة تريد ان تختار «ان تكون نفسها».

فأجابت عن سؤال المرأة الملّح: «كيف تكون؟»، بطفولتها المتميزة، بجهادها المستمر في الجبهتين الداخلية والخارجية، في بيت أبيها، بيت زوجها، في مجتمعها، في فكرها وسلوكها، وحياتها.

وبعد! لاأدري ماذا أقول؟ قلت الكثير، ولم أقل شيئاً.

ولكن، الشئ الذي لفت نظري وأهمني من بين كل مظاهر روحها العظيمة، هو كونها رفيقة سفر وحياة وسمو روح علي العظيمة.

فهي لم تكن زوجته فقط، لان علياً كانت له نساء أخريات بعدها، ولكنه نظر إليها، كصديقة، عارفة بهمومه و غاياته الكبيرة، كانت أنيس خلوته و رفيقة وحدته.

لهذا كان يراها علي(ع)، بعين أخرى، هي وأبناءَها.

بعد فاطمة، يتزوج علي، فيرزق بأبناء، ولكنه يبقى يفضل أبناء فاطمة على بقية أبنائه، ويسميهم «بني فاطمة»، بينما يسمى البقية «بني علي».

عجباً كيف ينسب الابناء إلى أمهم رغم وجود أبيهم، وبرغم كونه عليّاً!

وكذلك، رأينا النبي(ص) ينظر إليها بعين آخرى، يتشدد عليها من بين كل أخواتهـا، ويعتمد عليـها أيضاً، يخـاطبها بدعوته الكبـيرة رغم صغر سنها.

والان؟ لاأدري ماذا أقول عنها، وكيف أقوله؟

أردت أن أقلد أحد أكبـر خطباء فرنسا في حديثـه عن «مريم» مرةً أمام «لويس» فقال:

ألف وسبعمئة عام، وكل خطباء العالم يتحدثون عن مريم.

ألف وسبـعمئة عـام وكل فلاسفـة ومفكري الشعـوب، في الشرق والغرب، وهم يشرحون فضائل مريم.

ألف وسبـعمئة عـام والشعراء، يستـخدمون كل قواهم ومـواهبهم وقرائحهم في مدح مريم.

ألف وسبـعئـة عام وكل فناني، رسـامي، ونحاتي الشـعوب، وهم يخلدون المعاجز الفنية في إظهار محيا وحالات مريم.

ولكـن، كل هذه الكـلمــات والاقـوال، والأفكـار والجـهــود، طوال هذه القرون العـديدة، لم تستطع أن تبين عظمة مـريم كما بينتـها هذه الجملة:

«مريم هي أم عيسى!»

وأردت أنا أن أتحــدث عن فــاطمــة بنفـس الاسلوب، ولكـني عجزت.

أردت ان أقول: فاطمة هي بنت خديجة الكبرى.

وجدت أنها ليست فاطمة.

أردت أن أقول: فاطمة هي بنت محمد(ص).

وجدت أنها ليست فاطمة.

أردت أن أقول: فاطمة هي زوجة علي(ع).

وجدت أنها ليست فاطمة.

أردت أن أقول: فاطمة هي أم الحسنين.

وجدت أنها ليست فاطمة.

أردت أن أقول: فاطمة هي أم زينب(ع).

وجدت أنها ليست فاطمة أيضاً.

كلا! فهذه كلها هي، وليست هي كلها!

«ففاطمة «هي فاطمة»!

المحتويات

نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية

به روان مادرم : زهرا ـ آینه "افتادگی، عاطفه و نارسائی ـ که زندگی‌ام برایش، همه "رنج" بود و وجودش، برایم همه، "مهر" ـ

علی

سخنی با خوانندهٔ : حسینیه،

آنچه می‌خوانید سخنرانی من است در

ارشاد . ابتدا خواستم گزارشی بدهم از تحقیقات پر قصور اولی ما مسلمون دربارهٔ شخصیت و شرح حال پیچیدهٔ حضرت فاطمه و بخصوص اثر عمیق وانقلابی خاطره او در جامعه های مسلمان و تحولات دامنه دار تاریخ اسلام، اختصاصاً برای دانشجویانم در کلاس درس "تاریخ ادیان و اسلام شناسی" به مجلس که آمدم، دیدم که بجز دانشجویان بسیاری دیگر هم آمده اند و مسأله فوری تری را ایجاب می‌کند. برآن شدم که به این "سئوال مقدر" که امروز بشدت در جامعهٔ ما مطرح است جواب بگویم که : "زنان چگونه باید شد؟"

زنانی که در قالب های سنتی قدیم مانده اند، مسأله ای برایشان مطرح نیست، و زنانی که قالب های وارداتی جدید را پذیرفته اند،

فاطمه فاطمه است

در چنین [تاریخ] مقدس، قرار نبود که من برنامه ای داشته باشم،
امّا چون با کار عظیمی که پروفسور لوئی ماسینیون ـ انسان بزرگ و اسلامشناس
بزرگوار ـ درباره‌ٔ حضرت فاطمه (ع) انجام می داد، تماس مختصری داشتم و از
تحقیقات آن بزرگ ـ درباره‌ٔ "زندگی و شخصیت حضرت فاطمه (ع) و بخصوص
"زندگی پربرکتش پس از مرگ" و تأثیرش در تاریخ اسلام و در زنده داشتن روح
عدالتخواهی و مبارزه با ظلم و تبعیض در جامعه‌ٔ اسلامی بویژه، بعنوان مظهری
ونشانه ای از راه و مسیر اصلی اسلام که به صدها دست داخلی و
خارجی منحرف شده بود ـ سودهای بسیار برده‌ام، به عنوان یك شاگرد، گوشهٔ
کوچکی از این کار بزرگ را داشتم[۱] بخصوص در مرحلهٔ اول کار که خواندن و جمع
آوری همهٔ اسناد و اطلاعاتی بود که در طول چهارده قرن، به همهٔ زبانها و
لهجه های محلی اسلامی، درباره‌ٔ حضرت فاطمه وجود دارد، اعم از اشاره‌ای
تاریخی در سندی یا حتی سرودی در لهجه ای، گفتند که امشب گزارشی از
این کار در اینجا عرضه کنم؛ وچون هنوز این کار عظیم منتشر نشده است و آن
بزرگ زندگی را تمام کرد و کار را ناتمام گذارد[۳]، و غالباً اروپائیانی که با اسلام
آشنایند نیز از این کار بی اطلاعند و این موجب شده است که حتی برخی از دانشمندان
ما هم که با کارهای اروپائیان درباره‌ٔ اسلام آشنائی دارند از آن بی اطلاع
بمانند، این دعوت را پذیرفتم وگفتم که اختصاصاً برای دانشجویان درسهای
"تاریخ وشناخت ادیان" و "جامعه شناسی مذهبی" و "اسلام شناسی" ـ که
در ارشاد آغاز کرده ام ـ خطوط اصلی ونتایج برجستهٔ علمی وتاریخی تحقیقات

---

۱ ـ Louis Massignon ...

۲ ـ

۳ ـ ...

مساله برایشان حل شده است .

اما در میان این دو نوع "زنان قالبی" آنهائی که نمی توانند آن شکل قدیم موروثی را تحمل کنند و نه به این شکل تحمیلی تسلیم شوند چه باید بکنند ؟

اینان می خواهند خود را انتخاب کنند، خود را بسازند، الگو می خواهند، نمونه ایده آل . برای اینان مساله "چگونه شدن" مطرح است . و فاطمه با "بودن" خویش، پاسخ به این پرسش است .

خواستم به توصیف تحلیلی از شخصیت حضرت فاطمه اکتفا کنم، دیدم که کتابخوان‌ها و روشنفکران ما شرح حال وی را نمی دانند . ناچار کوشیدم تا حدی این کمبود را جبران کنم . این است که رساله حاضر - که همان کنفرانس است که بسط بیشتر یافته - حاوی شرح حال مستندی از این شخصیت محبوب، ولی ناشناخته یا بد شناخته است . در این شرح حال تکیه ام اساساً براسناد کهن تاریخی است و در آنجاهائی که مسائل اعتقادی و قاطع تشیع طرح می شود، من مآخذ را از اهل تسنن انتخاب کرده ام، چه، تشیعی که از منابع تسنن برآید، از نظر علمی و تاریخی، تردید ناپذیر است . و چهره "مظلوم" و "معترض" فاطمه - آئینه تمام نمای تشیع علوی - در چشم انصاف

این نوع کار ... از انتقاد بی نیاز است، بلکه بر عکس، سخت نیازمند است و چشم براه صاحب نظران پاکدل . آنهائی که از راهنمائی خدمتگزاران بیشتر لذت میبرند تا کینه توزی و دشنام و بهتان !

علی شریعتی

نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية

(ص ٣٠)

وجانشگفتی میپرسد :

" محمد ، قرآن ، علی ، فاطمه ، حسین ، زینب ، عدالت ، امامت ، تقوی ، اجتهاد ، جهاد ، شکست ، شهادت ، کربلا ، ...

پس چرا از اینهمه — که هر کدام ملتی را زندگی وبیداری وحماسه میتواند بخشد ، هیچکدام اثری ندارد ؟ پس چرا اینهمه عشقها واحساسها واشک هائی را اینان به این مفاهیم لبریز از حیات و حرکت و دروفای به این چهره های سرشار از جلالت انسان ، هیچ ثمری نمی بخشند ؟

پس مقصر کیست ؟

در یک کلمه : عالم !

او بود که باید علی را بشناساند و مکتب علی را بیاموخت .

در اسلام ، عالم یک داننده ی بی تعهد و دارنده ی مشتی یا خرواری یا خرمنی " دانستنی " نیست . علم ، در مغز او ، انبوهی از معلومات و اطلاعات نیست ، در دل او پرتوی از " نور " است : " نوری خدائی "(۱) . این تعبیر خاص — که در سخن پیغمبر است — یک مفهوم اسرارآمیز غیبی ماوراء الطبیعی ندارد ، علم لدنی و اشراق عرفانی و آن مسائل نیست ، همچنین ، علم فیزیک و شیمی و تاریخ و جغرافی و فقه و اصول و فلسفه و منطق نیست — که اینها همه " معلومات علمی " اند ونه نور . علمی که نور است ، علم مسئول است ، علم هدایت ، " علم عقیده " (۲) — که در زبان قرآن " فقه " نام دارد ولی امروز به معنی " علم احکام شرعی وفرعی " است . این عالم ، در تاریکی و با تاریکی کار نمیکند ، او فضا را روشن میسازد و شب را میشکند ، راه را نشان میدهد ، استاد شاگردان و حکیم خواص نیست ، معلم مردم است ، علم او علم آکادمی های افلاطونی نیست ، علم رسالت پیامبری است . اینگونه عالمان اند که " وارثان پیامبران "(۳) خوانده شده اند .

---

۲ – ۱ – العلم نور یقذفه الله فی قلب من یشاء ... پیامبر

۳ – العلماء ورثة الانبیاء ... پیامبر .